
لميا
زيادة
القاهرة
بيروت
دمشق
القدس
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل
هاشيت
أنطوان



القاهرة، بيروت، دمشق، القدس

نقله من الفرنسيّة جان هاشم

هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2017
سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورست
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

التصميم الفنّي: Lamia Ziadé و Patrick Tanguy/Nuit de Chine
اقتباس تصميم الغلاف: معجون
اقتباس التصميم: ماري تريز مرعب
متابعة النشر: رنا حايك
طباعة: المطبعة العربية

ر.د.م.ك.: 978-614-438-628-6

Titre original :
Ô nuit, ô mes yeux
© P.O.L éditeur, 2015

Cet ouvrage a bénéficié du soutien des Programmes
d'aide à la publication de l'Institut français

أنا من ضيّع في الأوهام عمره

الجندول
كلمات علي محمود طه
موسيقى محمد عبد الوهاب

أشرب لوحدي كاس فاضي دايماً بفكّر فيه مليان

بفكّر في اللي ناسيني
كلمات علي حسين السيّد
موسيقى محمد عبد الوهاب



تهادت السفينة وسط الضباب داخلة مرفأ بيروت.

القسم الأوّل

1

ولادة أسطورة والعودة إلى لبنان

كان ذلك فجر أحد أيام تشرين الثاني العام 1917. تهادت سفينةٌ وسط الضباب داخلة مرفأ بيروت تحملُ مسافرةً مميّزة، طفلة ولدت على متنها أثناء الرحلة.

كان والدا الطفلة وشقيقاها قد استقلّوا السفينة من مرفأ إزمير هرباً من الجيش العثماني. هم من الطائفة الدرزية. والدها هو الأمير فهد الأطرش من جبل الدروز في سوريا، وزوجته الأميرة عليا من حاصبيا في لبنان، أقاموا عدة سنوات في الأناضول حيث شغل فهد منصباً في الإدارة العثمانية. لكن في غضون سنوات تغيّرت الأوضاع كثيراً في الشرق الأدنى، فبعد احتلال العقبة، ساند الدروز، وعلى رأسهم عشيرة الأطرش، الثورة العربية على الأتراك بقيادة الأمير فيصل والمايجور تي. إي. لورنس (لورنس العرب)، فبات فهد الأطرش وأسرته عرضة للخطر في تركيا، ما دفعهم إلى مغادرتها على وجه السرعة. أُطلِق على الوليدة اسم «أمال» لما تحمله هذه الكلمة من دلالة.

إنكشف لهم جبل صنين مهيباً مكسواً بالثلوج مشرفاً على المرفأ. وفيما السفينة ترسو، راح الصبيّان فؤاد وفريد يتنقّلان بحماس على سطحها، يستطلعان بفارغ الصبر شوارع بيروت وراء تخشيبات المستودعات على الأرصفة. كانت الطفلة بصحّة جيدة تغفو بأمان على صدر أمّها. لاحت لهم سطوح القرميد المحاطة بأشجار العفص تلتمع بالندى. غمرت الغبطة عليا المتشوّقة لعطر زهر الليمون والفتنة والياسمين في حدائق بيروت وارتاحت للحركة الناشطة على الأرصفة وما وراءها: الحقول فالتلال وصولاً إلى الجبال... الآن وقد وصلت إلى ديارها، نسيت عناء السفر واستشرفت مستقبلاً واعداً وسعيداً في هذه الجنّة، لبنان، ولو أنّه لم يعد منذ سنتين جنّة بل صار جحيماً، بعد أن أهلكت المجاعة على يد الأتراك معظم سكّانه، وبعد أن بات شنق الوطنيين المناضلين من أجل الاستقلال في ساحة البرج[1] مشهداً مألوفاً. لكن عليا لم تشغل بالها بكل ذلك، فبعد مشقّات السفر لا بدّ من أن يكون المستقبل زاخراً بالأمل. ومثلها كان سائر الركاب، يتخيّلون ما ينتظرهم في بيروت، يتوجّسون المستقبل بقدر ما يحلمون به.

ما بتنا نعرفه اليوم، ولم يكن ليخطر على بال أحد من ركّاب تلك الباخرة، هو أنّ تلك الطفلة التي كانت أمها تضمّها إلى صدرها، الأميرة الصغيرة أمال الأطرش، ستصبح ذات يوم الفنانة الشهيرة أسمهان. كما نعرف ما توقّعه لها أحد العرّافين الضاربين بالرمل وهي في الخامسة عشرة من عمرها: «على الماء ولدت وفي الماء تهلكين». ولا أحد يفوته أنّ أسمهان قضت غرقاً بشكل مأساوي في نهر النيل وهي في السابعة والعشرين.

---

[1] ساحة الشهداء فيما بعد.



المجاعة التي تسبّب بها الأتراك وأحكام الشنق التي نفّذوها
في ساحة البرج حوّلت بيروت إلى جحيم.



الأمير فيصل والمايجور لورنس العرب، قائدا الثورة العربية.





الياسمين والبرتقال والرمّان والفتنة في حدائق بيروت.



يومئذٍ لم يخطر على بال أحد أنّ تلك الطفلة التي كانت أمّها تضمّها
إلى صدرها ستصبح يوماً الفنانة الشهيرة أسمهان.



2

فيلّا أسمهان في رأس الشارع

أمضيت طفولتي ومراهقتي في شارع صغير من حيّ مار نقولا في بيروت. وفي طرف هذا الشارع، عند زاوية التقاء طريقَي طلعة العكاوي والرينغ، وعلى بعد مئة متر من منزلنا، كانت تقع «فيلّا أسمهان» بمهابتها. لم أعرفها إلّا مهجورة بشبابيكها المغلقة وسط بضعة أشجار فانية من العفص والنخيل والليلك المهملة، تنتصب فوق قطعة أرض منحدرة، ما يجعلها على مرأى من الجميع. ومع أنها تشبه كثيراً سائر مساكن الحيّ إلّا أنها كانت تفتنني بشكل غريب. فقد أحاطت بهذا المبنى الضخم الأبيض القرميدي السطح، الذي يحاكي بهندسته نمط بيوت بيروت اللبنانية، هالة سحرية محيّرة تعود على الأرجح إلى موقع المبنى المشرف على الحي وحالته المهملة، بلا شك إلى شهرة نزيلته السابقة. ففي هذا المنزل عاشت أسمهان تحت الإقامة الجبرية بعد أن أسرها الإنكليز العام 1943 عند الحدود السورية التركية. وهو آخر مكان أقامت فيه في لبنان قبل أشهر من موتها في القاهرة. كنت أجهل كل ذلك وأجهل حتى من هي أسمهان وفي أي حقبة عاشت. وحده اسمها شغل مخيّلتي طوال سنوات الحرب هذه. ثمّ يوماً بعد يوم نالت الفيلّا، مثلها مثل سائر مباني بيروت، حصتها من القصف. الكلاشنيكوف والبازوكا وقذائف الهاون وسائر أنواع الأسلحة الثقيلة فعلت فعلها لتزيد من مظهرها الشبحي، وبالتالي من مهابتها في نفسي.

إذا بحثت اليوم عن فيلّا أسمهان في بيروت فلن تجدها. فبعد أن صمدت في الحرب، اقتُلعت، هي والأشجار التي كانت تحيط بها، في تسعينات القرن الماضي، ليشيّد مكانها المقاولون العقاريون عدّة مبانٍ من معدن وزجاج، ومكاتب وحوانيت.



فيلّا أسمهان كما عرفتُها في أواخر سبعينات القرن الماضي.

3

القاهرة، أرض الآمال

لكن دون أرض الآمال مراحل: ثمّة قبلها شوارع القاهرة والحانات واستوديوهات التصوير والكازينو والأزواج والعشّاق والخمر والمنوّمات والمال والانتحار ومسدسات البراوننغ والفضائح والفنادق الفخمة وحتى الغناء والموسيقى والأصوات والنجاحات والأوبرا والمجد.

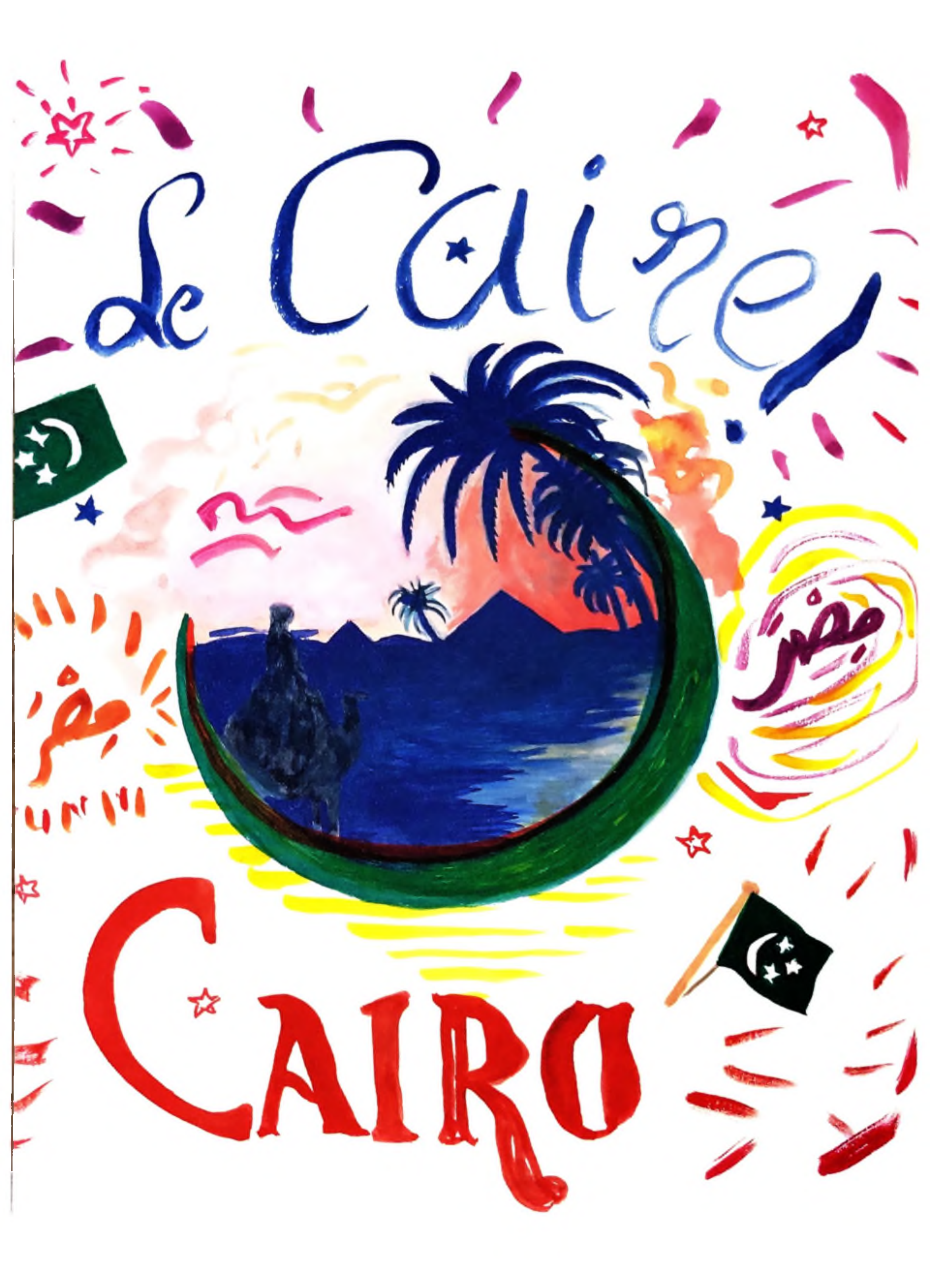
صبراً... فحتى الآن ليس هناك إلّا «السويداء» في جبل الدروز، تلك الأرض المجدبة القاحلة معقل آل الأطرش. هناك استقرّ فهد مع عائلته عند عودتهم من الأناضول بعد إقامة عابرة في بيروت، وقرّر أن يواصل مع أبناء عشيرته النضال ضدّ الفرنسيين الذين حلّوا مكان العثمانيين. وكان الحلم العربي الكبير قد تبدّد في معركة ميسلون[1] حين طرد الجنرال غورو فيصل من دمشق بعد أن أعلن ملكاً. وأصبحت الوعود بالاستقلال التي أعطيت للعرب حبراً على ورق فيما تقاسمت بريطانيا وفرنسا بلاد المشرق بموجب اتفاقية سايكس-بيكو التي وقّعتاها سرّاً أثناء الحرب. وما كان سلطان باشا الأطرش، زعيم عشيرة الأطرش الذي استبسل في محاربة العثمانيين، لينهزم أمام الفرنسيين، فاستمرّ النضال من أجل الاستقلال.

قصف الطيران الفرنسي السويداء فلم يرُق هذا لعليا التي قرّرت، بالرغم من معارضة زوجها، الانتقال للعيش في بيروت مع أولادها الثلاثة فؤاد وفريد وأمال.

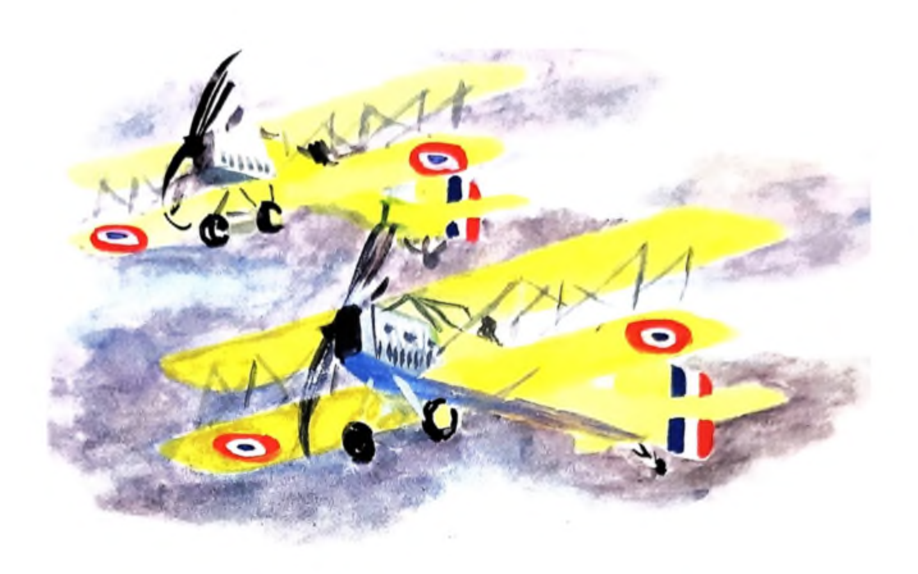
في بيروت، وبعد سنوات قليلة هانئة، داهم الخطر أفراد الأسرة من جديد إذ أراد الفرنسيون اعتقالهم، فقرّر فهد أن يعيدهم بالقوة إلى السويداء. إزاء هذا الخطر المزدوج فرّت عليا مجدّداً، وللمرّة الأخيرة... إلى مصر. ويزعم البعض أنّ عليا، بكل بساطة، هجرت زوجها الذي لم تعد تحبّه وجبل الدروز الذي لم يستهوها قطّ. كانت عليا، وهي أوّل امرأة قادت سيارة في بيروت، مرهفة الذوق ومثقّفة سافرة الوجه، تتقن العزف على العود وتتمتّع بصوت جميل. ومَن هوى الموسيقى فالقاهرة وجهته، وقد سبقتها إليها نساء أخريات بينهن كثيرات من سوريا ولبنان. فالقاهرة عاصمة عربية كوزموبوليتية. القاهرة مدينة كلّ الاحتمالات! القاهرة موضع السحر! كثيرون جرّبوا حظهم فيها، وقد حالف هذا الحظ بعضهم، ومنهم نساء حقّقن مستقبلاً باهراً تجاوز تطلعاتهنّ الأكثر جموحاً...

---

[1] بين بيروت ودمشق على الحدود اللبنانية السورية الحالية.



Le Caire
مصر
مصر
CAIRO





الحلم العربي الكبير تبدّد في معركة ميسلون.



الأمير الشهير سلطان باشا الأطرش.



أتقنت عليا العزف على العود وتمتّعت بصوت جميل.



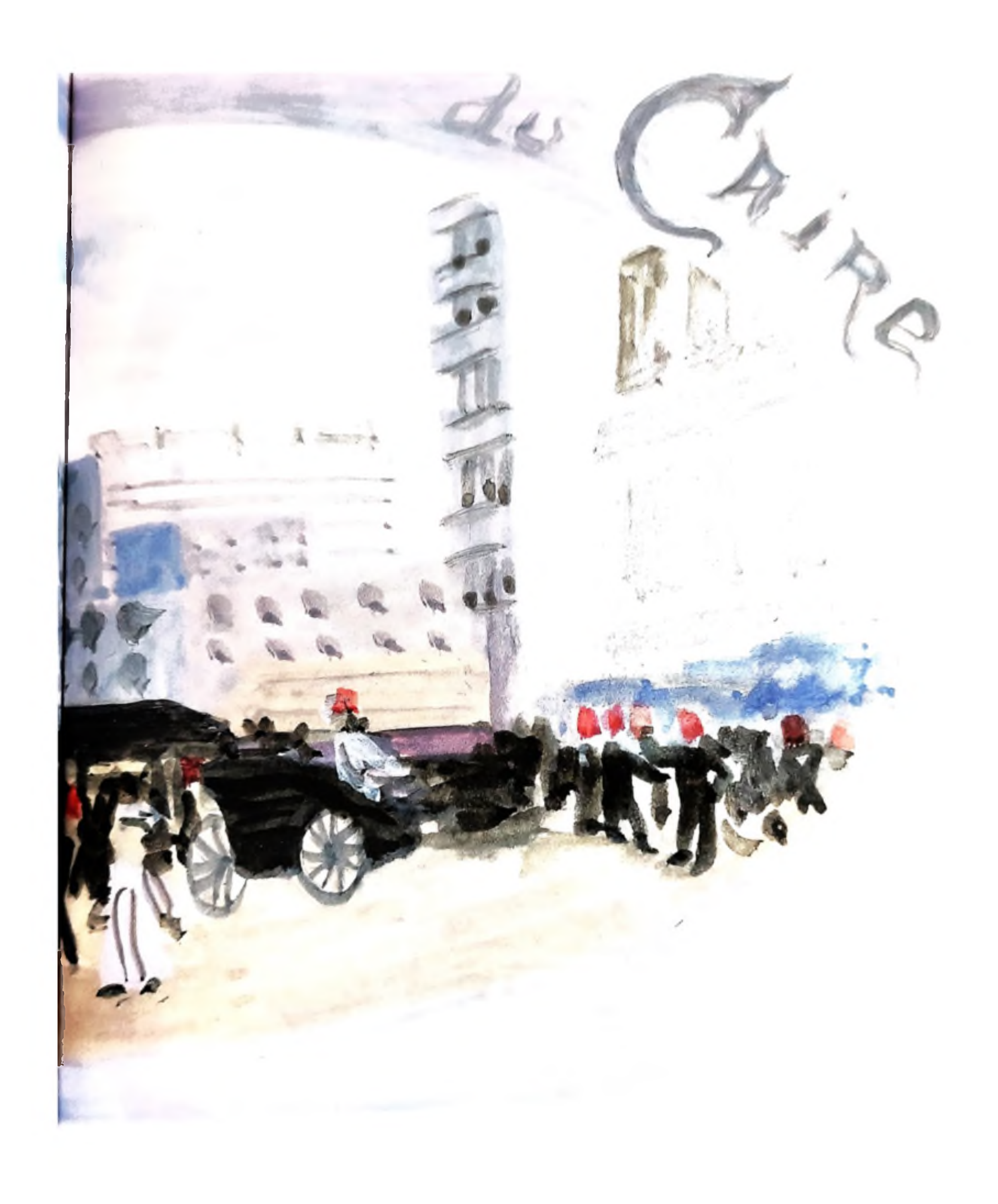
كانت عليا أوّل امرأة في بيروت تقود سيارة.



القاهرة عاصمة عربية كوزموبوليتية،
كانت تصدر فيها الصحف اليومية بمختلف اللغات.



LE PHARE D'ALEXANDRIE
The Egyptian Gazette
الوطن
LA BOURSE EGYPTIENNE
الاتحاد
L'IMPARZIALE
المحروسة
اللواء
Les Pyramides
L'ECHO DE PORT-SAID
البصير
ΘΑΡΡΑΦΟΣ
Il Messaggiero Egiziano
ΕΡΜΗΣ
المؤيد
مصر


du Caire



مصر «أم الدنيا».

4

بديعة مصابني

عندما غادرت بديعة مصابني بيروت إلى القاهرة، لم تكن أميرة. لم تكن مرهفة الذوق. لم يبدُ عليها أنها تتمتّع بموهبة معيّنة. كانت أبعد ما يكون عن كلّ ذلك. قبل أن تصبح ربّة ليالي القاهرة من دون منازع، لم تكن بديعة سوى طفلة من دمشق اغتُصبت وهي في السابعة من عمرها.

شاء القدر أن تُنكب عائلة مصابني بالمصائب مع ولادة بديعة: من وفاة والدها وأحد أشقائها في سنّ مبكرة إلى سرقة مجوهرات أمها وحريق معمل الصابون الصغير الذي تتعيّش منه العائلة، وإدمان أحد إخوتها الكحول وأخيراً الاغتصاب... وإذ بات أبناء بديعة وشقيقاتها من دون مورد عيش وتأباهم المجتمع كأنهم مصابون بالطاعون، نقموا عليها معتبرين أنها سبب ويلاتهم، فعاملوها بالضرب وهددوا بقتلها إذا لم ترحل بها الأم إلى أبعد مكان ممكن عن دمشق. اختارت الوالدة الغربة وهاجرت إلى الأرجنتين مع بديعة واثنين من أبنائها. كانت سفرتهم في الدرجة الرابعة مضنية والحياة التي تنتظرهم هناك أسوأ بكثير، حتّى أنّ شقيقيها عاطلان عن العمل واضان. بعد سنوات من البؤس والشقاء، عادت الأسرة إلى دمشق حيث الحرمان والجوع والتسوّل... فأثناء غربتهم في الأرجنتين، أنفق الشقيق الذي بقي في دمشق المال القليل الذي تركته له أمه، كما باع المنزل. لفترة وجيزة تهيّأ لبديعة أنها ستخرج من محنتها هذه، إذ على الرغم من فقرها، طلبها للزواج شاب تركي أُغرم بها. إلّا أنّ أحداث الماضي لا تمضي، إذ أخبر أحد الجيران خطيبها في اللحظة الأخيرة بقصة اغتصابها. أُلغيت الخطوبة وتوسّلت بديعة إلى أمها الانتقال للعيش في لبنان حيث لا أحد يعرفها. سافرتا سيراً على الأقدام، ووصلتا إلى بيروت بعد أسابيع، مُنهكتين. قبل أن تعودا إلى حياة التشرّد، لجأتا موقّتاً إلى مطرانية الروم الكاثوليك حيث كان القندلفت من أقاربهم الأباعد. فرصة العمل الوحيدة التي وجدتها كانت في أحد مواخير منطقة المرفأ. كيف تؤمّن عيشها من دون أن تضطرّ إلى بيع جسدها؟ عليها أن تبدأ حياة جديدة في القاهرة. هكذا، أقنعت والدتها بالهجرة مرة ثانية. وبعد أسابيع في العاصمة الكبرى، بدأت تلعب أدواراً بسيطة في فرقة مسرحية مُقنعةً أمها بأنها تعمل في الخياطة بدوام ليلي، كذبة سرعان ما اكتشفتها الأم، فقررت العودة بابنتها إلى سوريا. فالأمّ لم تكن تريد الوقوع في فضيحة بعد أخرى، أمِن الاغتصاب إلى المسرح؟ هذا مرفوض كليّاً.

ولكن، في اللحظة التي أوشك فيها القطار العائد بالأمّ وابنتها من القاهرة إلى بيروت على الانطلاق، قفزت بديعة إلى رصيف المحطة وأطلقت ساقيها للريح. لن تغادر القاهرة أبداً، وقد أثبتت الأيام صحة خيارها!



بديعة مصابني: من دمشق إلى القاهرة، مروراً ببوينوس آيرس وبيروت والإسكندرية...

5

روز اليوسف

تلك الفتاة الصغيرة التي وصلت ذات يوم إلى مرفأ الإسكندرية قادمة من بيروت في أواخر القرن التاسع عشر، لم تكن تماماً صاحبة طفولة وردية. أصلاً، لم يكن اسمها روز، بل فاطمة، ولم تكن تتوقّع قطّ ذاك الدور الفريد الذي قُدّر لها أن تلعبه يوماً في تاريخ الصحافة والسياسة في مصر.

كانت والدتها قد توفيت عندما ولدت، بينما كان والدها، رجل الأعمال الثري، يجوب أراضي الأمبراطورية العثمانية مسلّماً ابنته إلى عائلة مسيحية تعنى بتربيتها مقابل أجر. هذه العائلة هي التي أطلقت عليها اسم روز. وعندما انقطع والدها عن الدفع بعد سنوات، تخلّت عنها العائلة لمهاجر أراد اصطحابها إلى البرازيل، لكن الرحلة انتهت في الإسكندرية. راحت روز تتنقّل في الأوساط المسرحية إلى أن أخذ بيدها الفنان الشهير عزيز عيد، وهو مسيحي من أصل لبناني، على غرار كُثر من الممثلين والمخرجين ومديري الفرق المسرحية في القاهرة في تلك الحقبة. إهتمّ عيد بتعليمها وأعطاها أدواراً تمثيلية بسيطة إلى أن لفتت الأنظار عندما قبلت بتمثيل دور امرأة عجوز في السبعين من العمر رفضته سائر الممثلات. كانت إذّاك في الرابعة عشرة من عمرها وحقّقت نجاحاً باهراً ليسطع بعدها نجمها في هذه المهنة. لكنها في العام 1925، وفي قمة مجدها، قرّرت أن تعتزل المهنة فتركت فرقة «رمسيس» لمديرها يوسف وهبي، وكانت حينذاك الفرقة الأبرز في القاهرة. كان تعامل الصحافة مع الممثلات، وجنوحها حتى أحياناً إلى التجريح بهنّ، قد أغاظها طيلة السنوات الماضية، فقرّرت إصدار مجلة مميّزة تدافع فيها عنهنّ وتتناول الأوساط الفنية عموماً بطريقة مختلفة. وعندما طرح السؤال عن الاسم الذي يجب أن يطلق على المجلة، خالفت رأي كل الرجال الذين أحاطت نفسها بهم من كتّاب وصحفيين بارزين، وقرّرت أن تسميها باسمها هي: روز اليوسف، عازمة على أن يشكّل إطلاقها تحدّياً، فكتبت: «اسمعوا ما أقوله لكم، أنا روز، أنا ممثلة، أنا امرأة...». خصّصت روز اليوسف بداية صفحاتها للفنون ثمّ راحت شيئاً فشيئاً تتطرّق إلى المواضيع الاجتماعية والسياسية من دون أي رادع. فـ«روز اليوسف» لا تخشى معارضة الإنكليز، وتتجرأ على مهاجمة الملك، ولا تخاف الدفاع عن المرأة ولا تتورّع عن الكلام في الجنس، كما أنها اختصّت وحدها بالكاريكاتور. جرَّ هذا التجرّؤ والموقف الطليعي الكثير من المتاعب لروز ومنها دخولها السجن عدّة مرات.

لا تزال مجلة روز اليوسف تصدر حتى اليوم في القاهرة، وهي المجلة الوحيدة في العالم التي تحمل اسم صاحبتها...



خالفت رأي كل الرجال الذين أحاطت نفسها بهم من كتاب وصحافيين بارزين
وقرّرت أن تسميها باسمها هي: روز اليوسف.

6

من الفقر إلى الأمجاد

حقّقت كل من روز اليوسف وبديعة مصابني نجاحاً باهراً، لكنّ الحقّ يُقال إنّهما لم تكونا خاضعتين لقيود الاعتبارات العائلية التي قد تكبّل أميرة درزية...

اشتغلت عليا بغسل الثياب ثمّ اشترت ماكينة خياطة بما تبقى لها من مدّخرات من ثمن سيارة «الباكارد» الجميلة التي باعتها عند مغادرتها بيروت. سجّلت فؤاد وفريد باسم «كوسى» المستعار في مدرسة الفرير الفرنسية الكاثوليكية، وأدخلت أمال مدرسة راهبات. كما تمكّنت من الحصول على منحة مالية لتعليم أولادها الثلاثة، فيما أمّنت مورد العيش من بعض أعمال كيّ الثياب والخياطة. وبفضل عليا، ظلّ الشغف بالموسيقى محور اهتمام العائلة. وحده فؤاد لم يطرب للموشّحات والمواويل والليالي.

شارك فريد وأمال، كلّ في مدرسته، في الجوقة الموسيقية. ولاحظ أستاذ الموسيقى موهبتهما، فعمل على تمرينهما خارج أوقات الدرس. هذا الأستاذ لم يكُن سوى مدحت عاصم، عازف البيانو الكلاسيكي والمُلحّن الذي عُيّن لاحقاً أوّل مدير للإذاعة الوطنية المصرية حيث لعب دوراً حاسماً في مستقبل موسيقيّي زمانه.

عرف الولدان السعادة في هذه المدينة الكوزموبوليتيّة حيث تمتّعا بأفضل ما في عالم الحداثة الثقافية والفنية في الشرق الأوسط. كانت النهضة العربية التي بدأت قبل مئة سنة قد بلغت أوجها في مجالات الأدب والرسم والشعر والسياسة... وكان عالم الموسيقى في ذروة ازدهاره مع شركات متمكّنة لتسجيل ونشر الأسطوانات، مثل شركة «أوديون» و«زونوفون» و«كايروفون» و«بيضافون». وجاءت السينما! فعُرِضت الأفلام الغربية ولم تلبث مصر أن بدأت تنتج أفلامها الخاصة. كان في واجهات هذه الصروح الجديدة ذات الأسماء الساحرة جاذبيّة آسرة. كان الولدان يمضيان ساعات وساعات أمام صالات سينما «البوسفور» و«فؤاد» (على اسم الملك) و«الريالتو»... حالمين وهما يتأملان عناوين الأفلام وملصقاتها الإعلانية. كان فيلم «ليلى» هو الأول من إنتاج مصري بالكامل، أنتجته امرأة، هي ممثلة المسرح الشهيرة عزيزة أمير، أول امرأة تجرّأت على الوقوف أمام الكاميرا.

كانت القاهرة تعجّ بشخصيات فذّة يحدوها نفسٌ لا شيء قادر على كبحه، لا مجتمع ولا دين ولا عائلة ولا تقاليد. بين هذه الشخصيات العظيمة شبّ فريد وأمال مأخوذين بهذه الرياح التي لا تقاوم. لكن قبل الكلام على ما حقّقه كلاهما من نجاح، سنتوقّف قليلاً عند أولئك الروّاد، وهم في معظم الأحيان... رائدات.



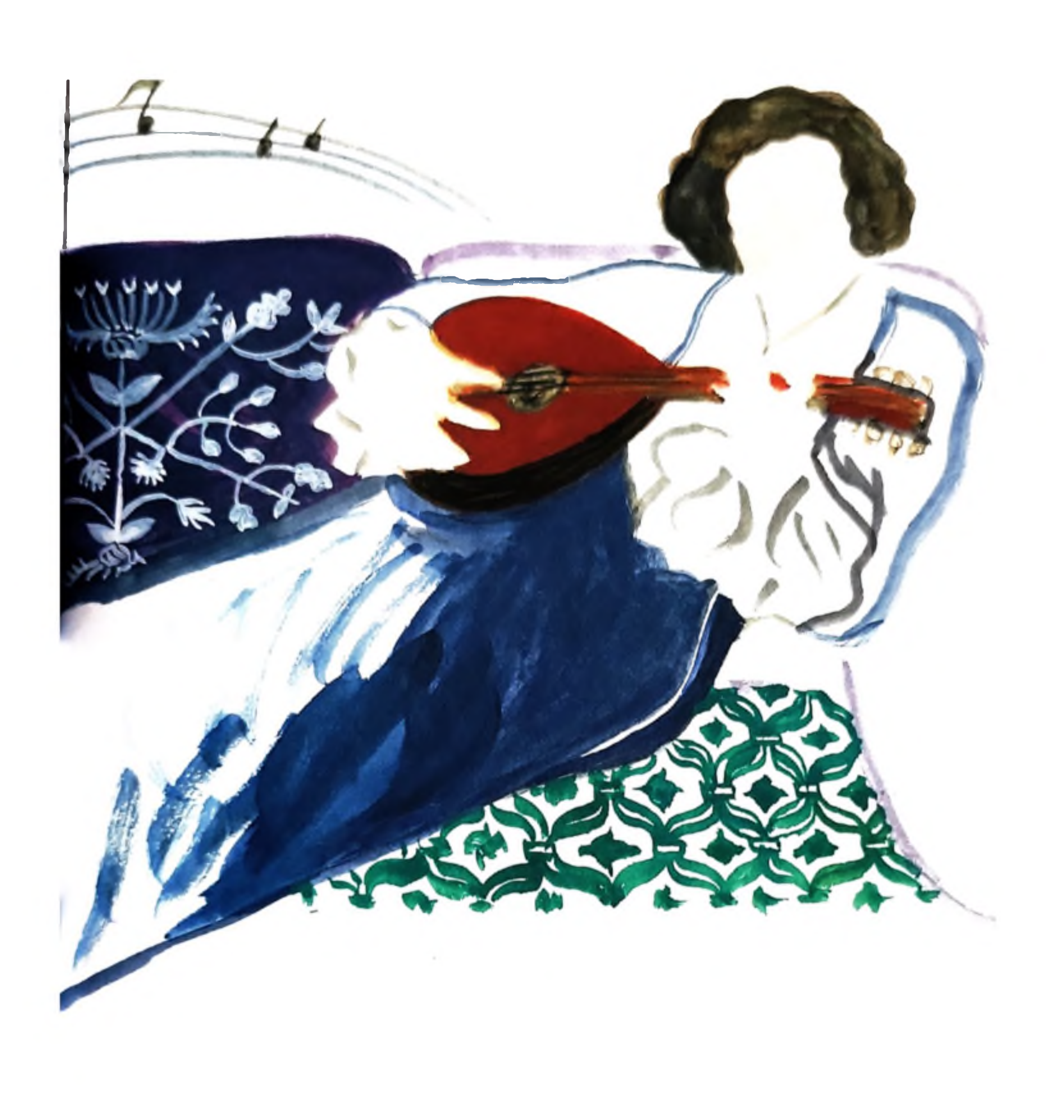
اشترت عليا ماكينة خياطة بما تبقّى لها
من ثمن سيارة «الباكارد» التي باعتها عند مغادرتها بيروت.



بلغت النهضة الموسيقية أوجها، وبفضل تقنيات التسجيل،
تمكّن المطربون والموسيقيون من توسيع جمهورهم.



بيضافون، كايروفون، زونوفون، أوديون...
كثّفت شركات تسجيل الأسطوانات إنتاجاتها، لحسن حظّ فريد وأمال.



بفضل عليا، ظلّ الشغف بالموسيقى محور اهتمام العائلة.
راح فريد يتمرّن بلا كلل على العزف على العود، وأمال تعمل على تطوير غنائها.







بهرتهما السينما، وفتنتهما صورتا فاطمة رشدي وعزيزة أمير.





خطفتهما مشاهد فيلم «قبلة في الصحراء».

7

أناقة محمد عبد الوهاب

يا للفضيحة! وصلة الرقص الشرقي التي أدّتها عزيزة أمير من خارج السيناريو في فيلم «ليلى» تعرّضت لانتقادات شديدة رأت فيها محاكاة ساخرة ومسيئة للعادات المصرية. فسيّدة الدار لا ترقص أبداً أمام ضيوفها الذكور! لكنّ الجلبة التي أثيرت غير مهمّة، فالسجال سرعان ما خمد. المهمّ هو أنّ فقرة الرقص تخطّت إطار فيلم «ليلى» لتصبح على مدى عقود وصلة لا بدّ منها في مئات الأفلام المصرية التي أعقبت الفيلم. هكذا، حقّقت عزيزة أمير ما لم يكن يخطر ببال أحد في مجتمع محافظ يحرّم على النساء الظهور على الملأ. بعد نجاح فيلم «ليلى»، أنشأت عزيزة شركتها الخاصة للإنتاج، «أفلام إيزيس».

في تلك المرحلة، لم يكن من السهل، حتى على الرجل، مواجهة الضغط الاجتماعي الهائل الذي يعزل أهل الفنّ، سواء أكانوا ممثلين أم مغنين أم موسيقيين، كأنّهم مصابون بالطاعون. وقد كافح بعضهم، على غرار روز اليوسف، لفرض احترام الفنانين على الجمهور. فيوسف وهبي مثلاً كان ابن باشا، وقد اختار التمثيل على رغم معارضة والده، فأسّس فرقته المسرحية الخاصة، فرقة «رمسيس»، ما يُعَدّ ثورة بحد ذاتها بالنسبة إلى ابن باشا. هكذا، بدأت النظرة إلى هذه المهنة التي كان يُعتقد أنها محصورة بالمنحرفين أخلاقياً تتغيّر... وقد فرض وهبي من البداية ما لم يفكّر أحد قبله في مطالبة جمهور القاهرة به، وهو الالتزام بموعد بداية العروض والدخول إلى المسرح كأنما إلى هيكل وليس إلى خمّارة. وفي سابقة له رفض دخول المتأخّرين!

بدوره جاهد العظيم عبد الوهاب منذ بداياته لكي يكون للفنان موقع أفضل في المجتمع. خلال شبابه، دُعي ذات يوم للغناء مع فرقته في إحدى القرى المجاورة للقاهرة، فانتقلوا إليها على ظهور الحمير. ضحك عبد الوهاب، ذوّاقة الجمال والمهفهف، لمشهد أعضاء فرقته ببدلات «السموكن» الرسمية على متن الدواب، فعلى الرغم من الحرارة المرتفعة، أصرّ عليهم أن يرتدوا اللباس الرسمي. ما من شيء كان يجعله يهمل أناقته أمام جمهوره. وصلوا إلى مكان الاحتفال وأشير عليهم بالذهاب لتناول طعام العشاء مع المكارين قبل بدء العرض. «آه! فعلاً؟!! الله الله، هيّ دي مكانة الفنان في نظر أصحاب السهرة! لا لا لا لا...» لم يتناول عبد الوهاب طعام العشاء، ولم يقُل حتّى كلمة واحدة لمضيفيه. فقط، طلب من أعضاء فرقته أن يتبعوه، وعادوا إلى القاهرة سيراً على الأقدام.



ما من شيء كان ليجعل عبد الوهاب يهمل أناقته أمام جمهوره.

8

شوقي باشا عايز يشوفك

ذاك هو محمد عبد الوهاب، متأنق بارد الأعصاب ورزين بطبيعته، مع أنّ طفولته المتواضعة ما كانت لتهيئه لهذا المزاج المرهف. حين بلغ الرابعة من عمره، سجّله والده، المؤذن ومجوّد القرآن في مسجد سيّد الشعراني في القاهرة، في المدرسة القرآنية، على أمل أن يصبح إمام مسجد. وجّهه إلى الأزهر وليس إلى ما دون ذلك، في حين أن الولد، التلميذ النجيب أساساً، لم يرَ الأمور بالمنظار نفسه. ليس لأنه كان ذا ميل جارف إلى الموسيقى وحبّ مفرط للغناء فحسب، بل لأنّه كان صاحب موهبة سرعان ما تحولّت إلى عبقرية. هكذا، وجّه الصبي نفسه بنفسه لكي يصبح أحد أعظم موسيقيي العرب في القرن العشرين، لا بل أعظمهم على الإطلاق. استهواه جداً الاختلاط بمجوّدي القرآن في الجامع وكان يمضي ساعات متربعاً على الأرض مرافقاً إياهم في الإنشاد. كان يتسلّل إلى حفلات الزفاف لكي يسمع المغنّين الذين يُحيون الاحتفال فيمضي أمسيات بأكملها منبطحاً تحت منصّة مرتجلة لينصت إلى غناء أحد الشيوخ. كان ولداً بعد عندما راح يتعاقد مع بعض الملاهي الليلية لكي يؤدّي على المسرح أغنية واحدة فقط كفاصل بين عرضين، وغالباً ما كان يُسحب مشدوداً بشعره ليُعاد بالقوة إلى البيت. وفي إحدى الأمسيات حضر الشاعر الكبير، «أمير الشعراء» أحمد شوقي، أحد العروض التي غنّى فيها هذا «العيّل» الذي لم يكد يبلغ العاشرة من عمره، فغضب واحتجّ لدى مديرة الملهى مبدياً صدمته من كونها تشغّل ولداً بهذا العمر الصغير. لم تشأ صاحبة الصالة أن تُسبب لنفسها المتاعب مع شخصية بارزة مثل شوقي، فصرفت الطفل المعجزة.

في الثالثة عشرة من عمره، سجّل محمد عبد الوهاب أسطوانته الأولى. وبعد سنة سمعه أحمد شوقي يغنّي في فندق «سان ستيفانو» في الإسكندرية. مرّة جديدة، أسره الصبيّ بغنائه، وهذه المرّة لم يلتفت كثيراً إلى سنّه. ولكن، عندما تقدّم أحدهم من عبد الوهاب بعد انتهاء العرض قائلاً له: «شوقي باشا[1] عايز يشوفك»، كانت أوّل ردة فعل من المغني الفتى، الذي لم ينسَ ما حدث سابقاً في القاهرة، هي الفزع والرفض. إلّا أنّ شوقي كان في حينه القامة الأكثر رفعة في الحركة الأدبية العربية، وقد زادت من هيبته الكبيرة القصائد الوطنية التي نظمها، ونفي الإنكليز له إلى الأندلس. لذا كان من المستحيل أن يُرفض له طلب، فكيف إذا كان ذلك الطلب يتعلّق بتهنئة مغنٍّ شاب مغمور. في ذلك اليوم، افتُتح فصل جديد في حياة محمد عبد الوهاب ترك أثره الكبير على مستقبله وفنّه وشخصه وساهم بشكل حاسم في جعله أحد أعظم أعلام الموسيقى العربية.

---

[1] أحمد شوقي هو في الأساس «بيك»، لكن اسمه كان يُقرن دوماً بلقب «باشا».



كان ولداً بعد عندما صار يتعاقد للغناء في بعض المسارح أو الملاهي.

9
المرشِد والنجم

بعد هذا اللقاء في سان ستيفانو خُلِب أحمد شوقي بكلّ هذه الموهبة فمنح محمد عبد الوهاب رعايته ومسكناً عنده، وبات لعبد الوهاب غرفته الخاصة في فيلا راعيه ومرشده الفخمة في الجيزة. بدأ الشاب يشارك في حياة فنّية وفكرية عامة فائقة الغنى. يزور الأماكن المشهورة ويتردّد على صالونات الأناقة والأدب ويلتقي يومياً أصدقاء شوقي وكبار الأدباء والصحافيين البارزين والملحّنين المشهورين والوزراء والباشوات والبكوات. تعلّم اللغة الفرنسية وعرف برانس الليل الحريرية والأحذية الملمّعة و«بزّ» السجائر. كانا يمضيان فصل الشتاء معاً في القاهرة وشهري، حزيران/يونيو وتموز/يوليو في لبنان، وآب/أغسطس وأيلول/سبتمبر في أوروبا. وصادف أن كانا في بلدة عاليه في جبل لبنان يوم وفاة والد عبد الوهاب. فُجِع هذا الأخير بالخبر وأراد إلغاء حفلته في مساء ذلك اليوم، وإذا بالأديب الكبير طه حسين الذي كان ينزل في الفندق نفسه يسأله: «وهل يقتصر الغناء على الفرح فقط؟». فاقتنع عبد الوهاب وغنّى في تلك الأمسية على عوده. غنّى كما لم يغنِّ من قبل. بكى وأبكى جمهوره معه حتى دللوع الفجر...

قبل سنوات، التقيت في بيروت شخصاً حضر تلك الأمسية. كان يدير مقهى خلف نادي «سبورتنغ كلوب» حيث توقفتُ لشراء سندويش. كانت أغنية لعبد الوهاب تُبثّ عبر راديو الترانزستور في المحل فرحت أرافقها مدندنة. لم يستطع الرجل أن يكبت متعة إخباري بأنه التقاه مرّة، مرّة واحدة ظلّت محفورة في ذاكرته إلى الأبد. كان يومها في السابعة من عمره ويعمل كمساعد في أحد مقاهي عاليه مع والده مجهّز النراجيل، وكان عمل الصبي يقوم على التنقل بين الطاولات حاملاً «النارة». يذكر أنّ الزبائن دخّنوا كثيراً في ذاك المساء الشهير. وعدّد لي الأغاني التي أنشدها عبد الوهاب في تلك الليلة، أغاني البدايات التي طواها النسيان، إلّا عند ذلك العجوز الذي ما زال يحفظها عن ظهر قلب. لكنّ أكثر ما فاجأ «صبي النراجيل» في ذلك المساء هو أن «عبد الوهاب لم تكن قد نبتت له شوارب بعد، كان ولداً، مثلي تقريباً».

شجّع شوقي فنّانه على التلحين. كان ينظم القصائد وعبد الوهاب يغنّيها، فحقّقا بذلك نجاحاً باهراً. وجّه أمير الشعراء المهيب براعم الفنّ عند عبد الوهاب وكذلك شخصيته، لكن سرعان ما تجاوزت



انتقل عبد الوهاب للإقامة في فيلّا راعيه الفخمة في الجيزة.

شهرة الموسيقي الشاب شهرة مرشده. فجمهور الأغنية في تلك السنوات التي انتشر فيها الفونوغراف والراديو ثمّ السينما الناطقة كان أوسع بكثير من جمهور الشعر. إلّا أن عبد الوهاب ردّ الجميل لأميره إذ عمّم بأغانيه أعماله الشعرية تعميماً لم يكن لأيّ شاعر أن يحلم به.

وشيئاً فشيئاً انجذب عبد الوهاب أكثر إلى الموسيقى الغربية، مثل الجاز والجافا والفالس والتانغو والبوليرو والرومبا، التي تسنّى له اكتشافها في زياراته مع شوقي إلى باريس. وعنها اقتبس الكثير مثيراً بذلك جدلاً حول أصالة موسيقاه وعروبتها. ولم يؤثر ذلك في مسيرته، ففي أواخر العشرينات من القرن الماضي أصبح، كرمز للموجة الجديدة، أكثر مطرب يحظى بمحبة الجمهور. فمنذ بروزه على الساحة بات كل شيء آخر قديماً عفا عليه الزمن.







أصبح المطرب المفضّل لدى الجمهور.
منذ بروزه على الساحة بات كل شيء آخر قديماً عفا عليه الزمن.

10

الرائدات

غمرت آمال وفريد حالة من الانبهار الكلّي. سحرهما صوت عبد الوهاب. وأسرتهما نظرة عزيزة أمير. لا يملّان الوقوف ساعات لتأمل ملصق إعلاني سينمائي، وعيونهما في حالة من الدهشة والحبّ شاخصة إلى عيني فاطمة رشدي. وهل بقي أحد لم يفتن بها؟ فتلك التي لُقّبت سارة برنهارت الشرق أدّت سلسلة من الأدوار الرائعة كانت غالباً اقتباسات إلى العربية من المسرح الفرنسي. لعبت دور سيدة الكاميليا ودور «الصقر». لكن طبعها العنيد جعلها تغادر فرقة رمسيس لتؤسّس فرقتها الخاصة وشركتها لإنتاج الأفلام السينمائية.

أُغرم فريد وآمال بفاطمة رشدي وبالسينما بشكل عام. فذلك الفنّ الجديد لم يكن فنّاً فحسب، بل كان نوعاً من السحر. أنتجت أفلام مثل «قبلة في الصحراء» و«بنت النيل» و«معجزة الحبّ» و«حسناء الصحراء»، وظهرت ممثلات مثل عزيزة أمير الاستثنائية، وفاطمة رشدي الفاتنة، ناهيك عن آسيا داغر الخارقة التي انبهر الولدان بشقرة شعرها. كانت آسيا قد أتت من تنورين، البلدة المعلّقة على إحدى قمم جبل لبنان، عازمة على خوض غمار التجربة في القاهرة. وصلت آسيا الإسكندرية مع ابنة أختها ماري، بطرس يونس، التي أصبحت لاحقاً ماري كويني، وبدأت مشوارها بظهورها ككومبارس في فيلم... «ليلى»! ثم توالت أدوارها... لكنّ السينما الناطقة فضحت صوتها الحاد جداً الذي لم يرقَ إلى مستوى جمالها. إلّا أنها بانفتاحها وثقافتها تحوّلت إلى عالم الانتاج حيث انطلقت بإصرار وثبات. وإذ أسّست ماري، بعد أن أصبحت من كبريات نجوم السينما، حتى الناطقة منها، شركتها «ستوديو جلال»، أنشأت آسيا شركتها «لوتس فيلم»...

اشتُهرت روز اليوسف كصاحبة صحيفة، وتحولت عزيزة أمير وفاطمة رشدي وآسيا داغر وماري كويني إلى نجوم سينما وصاحبات شركات إنتاج في عشرينات القرن الماضي في القاهرة وفي الإسكندرية... أُعجبت عليا بهؤلاء النسوة اللواتي تمتّعن بالكثير من الجرأة والنفوذ، وحقّقن أحياناً ما عجز الرجال عن تحقيقه، بعد أن تحدّين المجتمع لإرواء شغفهنّ وعيش حياتهنّ كما يجب، وأرادت، بعد أن تجرّأت على التحرّر بهجرها زوجها وبلادها، أن تجاريهنّ في مسارهنّ الواثق وتدخل عالم الغناء. لكن، للأسف، لم يكن ذلك بالأمر السهل على أميرة درزية...



فريد وأمال: عيون تتأمّل عينَيْ فاطمة رشدي.


عزيزة أمير






فاطمة رشدي





نساء تحلّين بالجرأة: فاطمة رشدي، عزيزة أمير، بهيجة حافظ، آسيا داغر...
كانت عليا تحلم بهنّ أثناء عملها في غسل الثياب.

11

طلائع الناشطات النسويات ضدّ الإنكليز

غالباً ما فكّرت عليا، وهي تعمل على ماكينة الخياطة، في ضرورة انضمامها إلى حركة هدى شعراوي، تلك المرأة التي تناضل منذ سنوات من أجل قضية المرأة المصرية. لم تكن الشعراوي ممثلة ولا مغنية، بل كانت مثلها من علية القوم، كونها ابنة باشا.

كانت الشعراوي، التي أمضت طفولتها في حريم تحت رقابة الخصيان، وحُرمت التعليم الذي حصل عليه إخوتها، وزُوّجت لأحد أقربائها وهي في الثالثة عشرة من عمرها، قد بدأت نضالها من أجل تحرير المرأة. وفي خلال الثورة المصرية العام 1919، نظّمت أول مسيرة نسائية احتجاجاً على الاحتلال الإنكليزي ونفي الزعماء الوطنيين، فاتحة بذلك المجال أمام المصريات للإسهام في صناعة تاريخ بلادهنّ، وهو امتياز كان حتى ذلك الوقت حكراً على الرجال، على أساس أن المرأة المحترمة لا يمكنها أن تخرج من بيتها إلّا بإذن من والدها أو من زوجها. وقد شاركت في الحراك ثلاثمئة امرأة محجّبة، يسترن وجوههنّ بالـ«يشمق» وهو وشاح رقيق وأنيق يحميهنّ من النظرات الوقحة. ثلاثمئة امرأة من القاهرة نزلن إلى الشارع إذاً. وما همّ إن كنّ محجبات!

بفضل مبادرة الشعراوي، انضمّت المرأة إلى حركة التحرّر الوطني التي تلازمت مع نضالها من أجل تحرّرها هي نفسها. فمن خلال النضال الوطني، فرضت الحركة النسائية نفسها في المجتمع. والمفارقة في هذا الوضع أنّ أولى المناضلات النسويات وظّفن معركتهن ضدّ الغرب من أجل الحصول على الحقوق التي تتمتّع بها المرأة الغربية!

في العام 1923، ولدى عودة هدى الشعراوي ورفيقتها سيزا نبراوي من روما، من أول مؤتمر نسائي شاركت فيه مصر، قامتا بالخطوة الحاسمة. فعند نزولهما من القطار في محطة القاهرة، نزعتا اليشمق في العلن أمام جمع حضر لاستقبالهما. ساد الذهول للوهلة الأولى ثمّ علا التصفيق... وعلى خطاهما سارت نساء أخريات منهنّ بعض المشهورات وذوات النفوذ مثل صفية زغلول التي خلعت حجابها أمام الحشد الذي حضر لاستقبال زوجها سعد زغلول عند عودته من المنفى.

بالنسبة إلى الشعراوي، لم تكن مسألة الحجاب هي الأساس، بل كان عندها أولويات أخرى، كحقّ المرأة في التعلّم وفي العدالة. وبعد سنوات وجدت في أم كلثوم الشخصية التي جسّدت معاركها. لكن فلننتظر قليلاً، ولندع الكلام عن أم كلثوم إلى ما بعد...



ثلاثمئة امرأة نزلن إلى شوارع القاهرة.














12

الموسيقى شغفهما

لم ينشغل فريد وأمال بمستقبل مصر السياسي والوطني، ولا خفق قلبهما لإنجازات الحركة النسائية، لكنّ الفنّ هو ما دوّخهما. فهؤلاء المطربات الحسناوات اللواتي لا يمكن رؤيتهنّ إلّا على أغلفة المجلات كنّ أمراً آخر! يا لعيونهنّ المكحّلة وشعورهنّ المنسدلة على أكتافهنّ وجواهرهنّ التي تشبه جواهر ملكة سبأ... الموسيقى هي شغفهما. ينمرنان عليها، يستمعان إليها، وينهلان منها، من دون توقف. وغالباً ما كانا يزوران، كلما سنحت الفرصة، بعض الأصحاب ممّن حظوا بنعمة امتلاك فونوغراف، ذلك الاختراع الخارق الآخر. كان من السهل على أمال أن تحفظ قطعة موسيقية بمجرّد أن تسمعها مرّة واحدة. أما فريد فقد تقدّم بخطى حثيثة ليصبح عازف عود ماهراً. علّمتهما عليا كلّ ما تعرفه، لكن لم يلبث التلميذان أن تفوّقا على معلّمتهما. فؤاد هو الوحيد الذي لم تصبه هذه اللوثة، ولم ينظر بعين الرضى إلى انغماس شقيقه وشقيقته في هذه التفاهات المبتذلة التي لا تليق بأمير، وطالما ردّد على مسمعهما: «الله يهديكم!».

بلغت أخبار ثورة جبل الدروز القاهرة. لقد انتصر الدروز، بقيادة سلطان باشا الأطرش، على الفرنسيين في بعض المعارك ليصبحوا نموذج النضال ضد الاستعمار ورمز العزّة الوطنية في كل أرجاء الشرق الأدنى. وفي مدينة القاهرة هذه، حيث رسخت في المجتمع الروح الوطنية والقومية العربية، كبُر قلب الفتى فريد بمآثر عائلته وباح باسمه الحقيقي إلى أحد زملاء صفه الذي سارع إلى نقله إلى مدير المعهد الفرنسي. النتيجة: طارت المنحة! ما اضطرّ عليا، التي لم تغنّ من قبل إلّا للعائلة أو لبعض الأصحاب، إلى الغناء مقابل أجر. قامت بذلك بمنتهى السرّية وفقط أمام حلقات نسائية في مناسبات الزفاف أو الأعياد العائلية. فأكثر ما كانت تخشاه هو أن تصل أخبارها هذه إلى «الجبل» حيث ضغط التقاليد العائلية الدرزية يمنعها من الانطلاق. ليت بإمكانها أن تتصرّف على هواها، ولتكن امرأة عادية، انتهازية، أو حتى وضيعة، المهمّ أن تكون صادقة مع نفسها.

ولكم حسدت هاتيك اللبنانيات والسوريات والمصريّات لأنهنّ لسن أميرات... بل ملكات، ملكات الليالي الصاخبة في شارع عماد الدين في حيّ الأزبكية.


الصباح



عيونهنّ المكحّلة وشعورهنّ المنسدلة وجواهرهنّ التي تشبه جواهر ملكة سبأ...



... خفق لها قلبا فريد وأمال.

13

النضال ضدّ الاستعمار
وملاهي شارع عماد الدين

«ألف ليلة وليلة»، صالة السورية توحيدة، هي أقدم ملهى في القاهرة، تديره تلك المرأة التي غنّت ورقصت لسنوات في حيّ الأزبكية، قبل أن تتزوج برجل يوناني اشترى الصالة خصيصاً لها، وقرّرت أن تديرها بنفسها بعد وفاته. في القاهرة أيضاً «كازينو الحمرا» بإدارة نعيمة المصرية. أما الملهى الأشهر، فكان ملهى منيرة المهدية، «سلطانة الطرب»، التي لا ينازعها أحد على سلطان...

كانت منيرة شخصية فذّة، من «عوالم» الراقصات، تتمتّع بجمال متجدّد وصوت لا مثيل له ومزاج فريد. حظيت بثناء الجمهور كما بثناء المثقّفين والفنانين وهي من النساء القليلات اللواتي سجّلن بعض الأغاني قبل الحرب العالمية الأولى. بدأت حياتها الفنية في ملهى «إلدورادو» ثمّ في ملهى «نزهة النفوس» الذي غالباً ما أغلقته السلطات البريطانية بسبب النفس المعادي للاستعمار في الأغاني التي كانت تؤدّيها في لياليه. ثمّ انضمّت إلى فرقة المطرب الشهير سلامة حجازي[1]. وكانت تنوب عنه في غناء أدوار الرجال، عندما يمنعه المرض من اعتلاء المسرح، فهي التي لعبت دور «روميو». لكنّها، عندما شكّلت لاحقاً فرقتها الخاصة، مثّلت دور «كارمن» و«مدام باترفلاي» و«توسكا» في اقتباسات عربية كُتبت خصيصاً لها. هي أوّل امرأة مصرية مسلمة تلعب أدواراً نسائية على المسرح، فحتى ذلك الوقت، ظلّ يمثّل الأدوار النسائية رجال متنكّرون أو ممثلات مسيحيات سوريات ولبنانيات أو يهوديات. ثم جاءت فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية التي شهدت تألّقها عبر أغانٍ خفيفة أدّتها في مصر المكبّلة بنزعة محافظة، وأخرى وطنية تقع تحت رقابة الإنكليز. بات مسرحها ملتقى الكثير من السياسيّين والصحافيين ومن ضمنهم سعد زغلول نفسه. من موقعها امرأة مستقلة فتحت للاستقبال، في العوامة التي تملكها على ضفاف النيل[2]، صالوناً انعقد فيه مرّةً مجلس الوزراء لكي يفلت من مراقبة الإنكليز. كانت منيرة المهدية ذات نفوذ كبير واعتبار رفيع. لكن غمرها النسيان بين ليلة وضحاها بعد قدوم صبية ريفيّة إلى القاهرة تدعى «أم كلثوم». لكن لننتظر قليلاً بعد قبل الكلام على أمّ كلثوم...

---

1 المغنّي الأوسع شعبيّة في عصره (أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين) وهو رائد المسرح الغنائي.

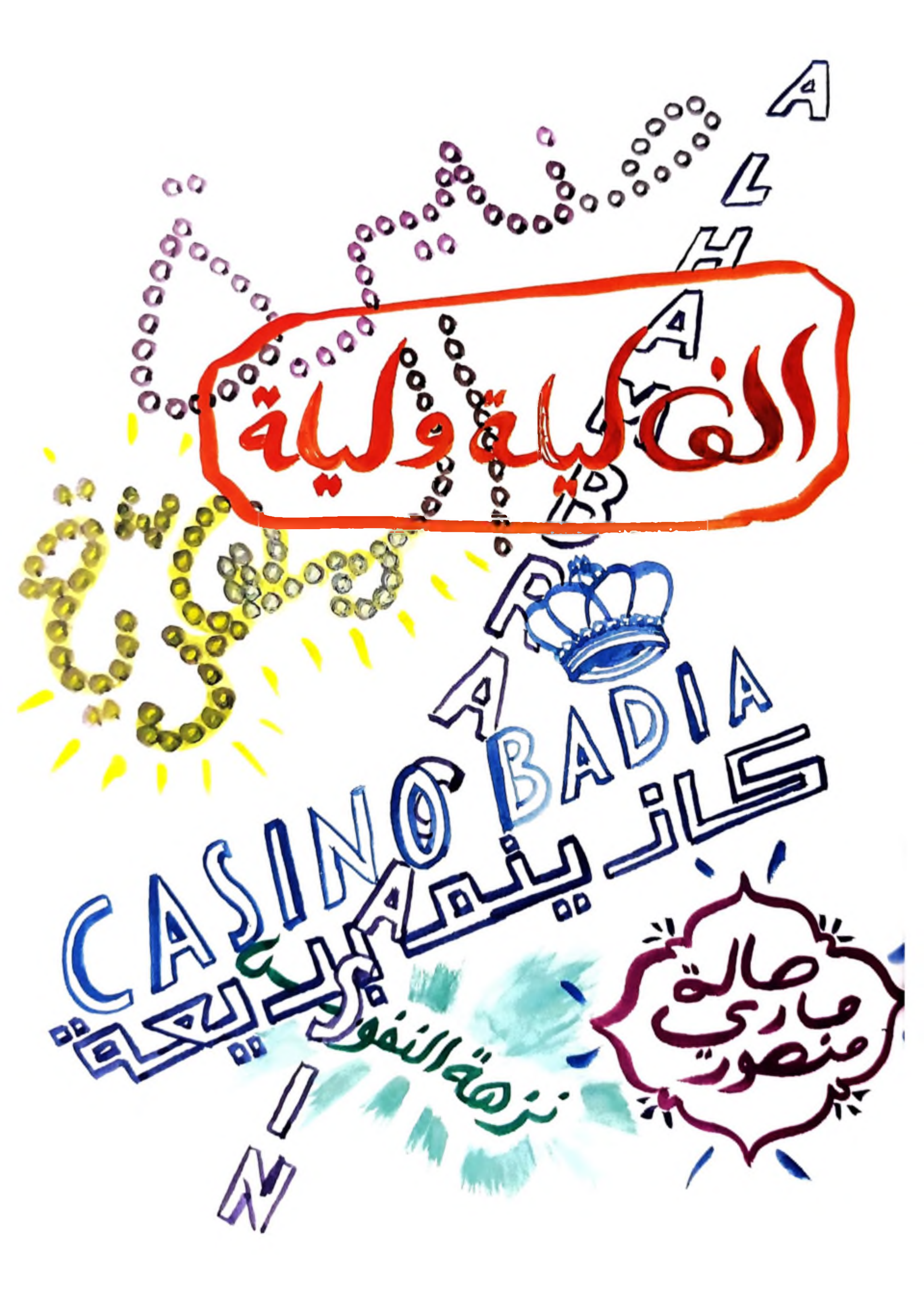
2 زورق تحوّل إلى بيت بأثاث شبه ثابت.



تميَّزت عن منافساتها بنفسيَّتها وبجمالها العصري.



كانت عليا تحلم بريّات الليالي في شارع عماد الدين.



ALHAMBRA
الف ليلة وليلة
CASINO BADIA
كازينو بديعة
صالة ماري منصور
نزهة النفوس



منيرة المهدية "سلطانة الطرب" ومجلس الوزراء وبينهم سعد زغلول



انعقد مرّةً مجلس الوزراء في صالونها لكي يفلت من مراقبة الإنكليز.

14

صالة بديعة

في شارع عماد الدين أيضاً «ملهى بديعة». بديعة مصابني التي شقّت طريقها منذ أن قفزت من ذاك القطار الذي كان يُفترض أن يُعيدها إلى بيروت.

أمضت بديعة سنتين ما بين مسارح حيّ الأزبكية وملاهيه. وفي العام 1915، عادت بملء إرادتها إلى بيروت حيث تعاقدت للغناء عند «مدام جانيت». ما تعلّمته في القاهرة جعل منها نجمة الملهى. وبفضل موهبتها وحماسها وروحها المثابرة، وقّعت العقد تلو الآخر في أنحاء بلاد المشرق كلّها، وراح أصحاب الصالات يتنافسون عليها، ممّا رفع أجرها. من طرابلس إلى حلب ويافا وحيفا ونابلس... في ملاهي مثل «كافيه المرصد» و«لونا بارك» و«شهرابندر»... جابت المنطقة متحاشية قدر الإمكان الذهاب إلى دمشق حيث ظلّت عائلتها تسبّب لها المتاعب، إذ كان هاجسها الوحيد هو سلبها أرباحها. راحت بديعة تتفنّن في إنفاق ثروتها. لم يكن أهلها الوحيدين الطامعين في أموالها... هناك العشّاق العابرون والخطّاب الذين يختفون فجأة والأصدقاء المعوزون... والحقّ أنه كان زمناً صعباً. زمن الحرب وزمن المجاعة، وقد اختبرت بديعة كلّ ذلك بأسوأ الأشكال، هي التي آوت فتاة جائعة صادفتها في الشارع تفتّش عن طعام بين النفايات، فأطعمتها وعالجتها ولكن عجزت عن إنقاذها إذ ماتت بين يديها بعد أيام. إنفطر قلبها وقرّرت فوراً أن تتبنّى فتاة يتيمة. وفي الفترة نفسها، تعرّفت بنجيب الريحاني الذي كان مع فرقته في جولة في بيروت، ووجدت فيه شخصية متميّزة توافق مزاجها. لم يعرف أحد إن كان مولوداً في القاهرة أو في الإسكندرية، أو إن كانت عائلته المسيحيّة كردية الأصل أو لبنانية. الأمر الوحيد المؤكّد عنه هو أنه كان الممثل الأكثر شعبية في العالم العربي، ملك الفكاهة، القادر على إبكائك وإضحاكك في الوقت نفسه. هو صاحب الشخصية الشهيرة «كشكش بيه». تزوّجته بديعة وعادت معه إلى القاهرة مصطحبة جولييت، ابنتها بالتبنّي. وبعد الكثير من المشاكسات التي باعدت بينهما، انفصلت عنه نهائياً في العام 1926، واستأجرت ملهى «سندكس كلوب»، في شارع عماد الدين بين الـ«ماجستيك» والـ«سميراميس» مغيّرةً اسمه إلى «صالة بديعة». هناك، حقّقت نجاحاً كبيراً، وهي تغنّي وترقص وتقلّد في عروض منفردة على الخشبة. كان ذاك أوّل ملهى لها لكنها فتحت ملاهي كثيرة غيره فيما بعد. لن تبقى طويلاً الفنانة الوحيدة في ملهاها، بل ستدير بمهارة فريقاً من أفضل أصحاب المواهب في عصرها. أمّا إنجاز بديعة الأكبر فهو تغييرها كلّياً أسلوب الرقص الشرقي الذي ستقلب موازينه جذريّاً مانحةً إياه موقعاً كان من المستحيل تخيله من قبل. فهي التي ستُعِدّ، لا بل ستدرّب بعض المبتدئات من ذوات المواهب اللواتي سيتحوّلن على يدها إلى معبودات الجماهير من أمثال الرائعة تحية كاريوكا والعظيمة سامية جمال.



استأجرت ملهى «سندكس كلوب» في شارع عماد الدين وغيّرت اسمه إلى «صالة بديعة».



سرعان ما أصبحت صالة بديعة مقصداً لمعظم جماهير القاهرة.





في شارع عماد الدين أيضاً ملهى «ماري منصور» التي جاءت، مثل بديعة، من بلاد الشام. وهي بدورها أعطت الفرصة الأولى لعدّة مواهب شابة ممّن تحوّلن إلى نجمات مشهورات. وكان من شأن حسّ التضامن بين المهاجرين الوافدين المنحدرين من المنطقة ذاتها وحرص ماري منصور على الحفاظ على الطابع السوري لصالتها أن جعلاها أوّل من منح الفرصة يوماً لفريد وأمال الأطرش.

15

عندما ينضج هذا الصوت سنواجه المتاعب

«الدورادو» و«الحمرا» و«كازينو بديعة»... لم تفكّر عليا يوماً، حتى في أحلامها الأكثر جموحاً أن تطأ قدماها هذه الأماكن التي يتردّد عليها الرجال فقط. ولذلك أقامت صالوناً موسيقياً في منزلها تستقبل فيه المهاجرين من بلاد الشام، المنهل الآخر للموسيقى العربية. راح موسيقيون مصريون يتردّدون على المنزل بدعوة من فريد الذي بات الآن يدرس في المعهد الموسيقي (الكونسرفاتوار) وبدأ يعزف على العود لبعض الإذاعات الخاصّة[1].

وماذا عن أمال؟ كبرت أمال ولفت صوتها أخيراً الانتباه. وما أكثر الذين اكتشفوا صوت أسمهان! كانوا كثراً، ومن الكبار أيضاً. هناك أولاً مدحت عاصم الذي سبق أن علّمها الموسيقى في المدرسة، ثمّ القصبجي الملحن العظيم، وعبقري العود، والموسيقيّ البارع الذي كتب في تلك الحقبة معظم أغاني أم كلثوم والذي علّم عبد الوهاب نفسه العزف على العود! كان أيضاً أستاذ فريد، ويأتي أحياناً لزيارة تلميذه اللامع. وفي يوم ،بعد أن شاهدت أمال في السينما كوميديا موسيقيّة من تمثيل جانيت ماكدونالد، عادت إلى المنزل وحاولت أن تقلّدها. وتقول الحكاية إنّ محمد القصبجي وصل في هذه اللحظة بالتحديد، ولم يصدّق ما سمعت أذناه. بعد أيام، عاد برفقة موسيقيّ بارز آخر. وكانت أمال تتمرّن في غرفتها على أداء إحدى أغاني أم كلثوم، فذُهل الموسيقي الصديق وأعلن قائلاً: «عندما ينضج هذا الصوت، سنواجه المتاعب».

لكن الرواية الأكثر غلوّاً حول اكتشاف صوت أمال تتعلق بداود حسني، إذ يقال إنّها غنّت أمامه فسالت دمعة على خدّه وقال لها: «يا بنتي فيك شيء عجيب!». ثمّ حكى لعليا وأمال أنه التقى قبل سنتين صبية ذات صوت ذهبيّ وكان عازماً على إعدادها لكنها توفيت في ظروف مأساوية. وكأنّ القدر عوّضها بأمال. واقترح: «نسمّيها أسمهان»، فعارضت عليا وقد اضطربت وارتبكت. لكن حسني ألحّ مؤكّداً أن في هذا الاسم من السمو ما يليق بصوت قادر على إدماع العيون.

كان داود حسني قبل سنوات من وفاته محطّ تقدير الجميع في القاهرة، فهو أوّل من ألّف الأوبريت كما وضع أوّل أوبرا مصرية. فداود حسني فهم تماماً وضع أمال فهو أيضاً ابن عائلة بورجوازية يهودية تعارض مهنته كموسيقي. ضحكت أمال عند إثارته مسألة تشدّد عائلته الغريب وعلّقت: «أمال نقول إيه عن عيلة أمرا دروز!»، ثم عادت عليا وسمحت بالأمر.

[1] في مطالع الثلاثينات من القرن الماضي كان في القاهرة أكثر من مئة إذاعة خاصة.



أقامت عليا في بيتها صالوناً موسيقياً ينعقد مرّة في الشهر،
وكان ضيوفها أحياناً من الموسيقيين اللامعين، وهنا داود حسني والقصبجي.



يحكى أنّ محمّد القصبجي وصل في تلك اللحظة تحديداً...



... ثمّ عاد بعد أيام برفقة موسيقيّ بارز آخر.


على



«يا بنتي فيك شيء عجيب!».

16

نجاحات كثيرة وتنبّؤ بالموت

لم تكن عليا مطمئنة للمنحى الذي اتّخذته الأمور وربما استشعرت توالي المآسي التي ستقع، ومع ذلك وافقت على أن يتولّى إعداد ابنتها كل من داود حسني والقصبجي وزكريا أحمد[1]، ويا لهم من معلّمين!

كان على فريد وأمال أن يتعلّما الكثير. فالمخزون التراثي غنيّ بالأنماط والإيقاعات والتوزيعات الموسيقية، من «الدور» إلى «الموشّح» و«الطقطوقة» و«العتابا» و«الميجانا» و«البياتي» و«القصيدة» و«النشيد» و«الموّال» و«الليالي»... بدأ اسم فريد يلمع كعازف عود وشارك من حين إلى آخر في فرقة بديعة مصابني. وبدأ ينفق على عائلته ويمرّن شقيقته التي وقّعت بفضله عقداً مع استوديو «كولومبيا» لتسجيل خمس عشرة أغنية. ثم جاءت المفاجأة الكبرى لتسرّع حركة صعودها: لقد دعيت لتغنّي في الأوبرا الملكية! هذه دعوة لا يمكن الاستخفاف بها... تطلّب الأمر استشارة العائلة والأصدقاء والمعلّمين، وعُقِد اجتماع على مستوى القمّة لاتخاذ القرار. هل يجب قبول الدعوة أم رفضها؟ جرت موازنة كل الأمور: من جهة عمرها الصغير جداً، وخبرتها المتواضعة التي قد لا تأتي في مصلحتها، وشرف العائلة وردّة الفعل المحتملة في جبل الدروز... ومن جهة أخرى، هذه فرصة حياتها، ثمّ هناك طبيعة الدعوة التي لا يجوز رفضها. لاذت أمال بالصمت. لم تبدِ رأيها. تركت الآخرين يبتّون في الأمر عنها. كانت تعرف بالضبط ما تريد، وجاء القرار موافقاً لما أرادت.

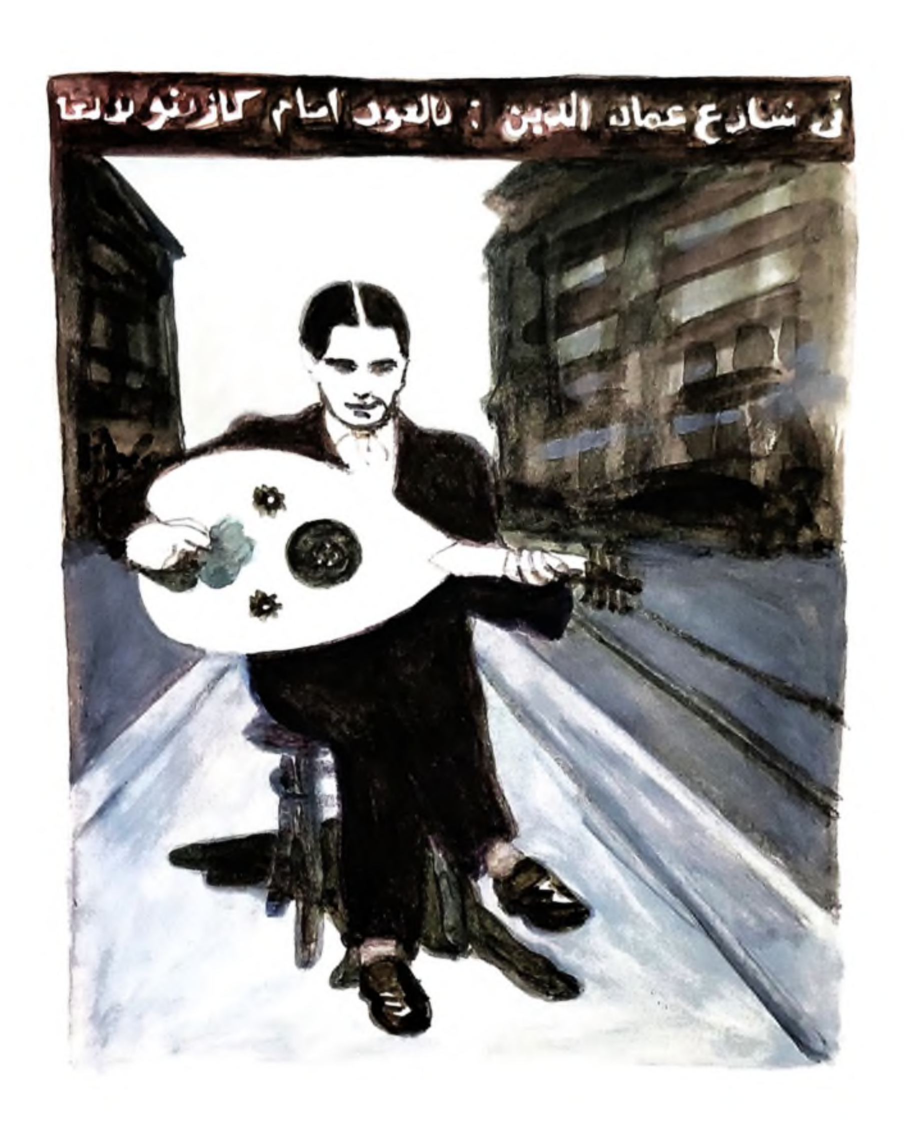
في تلك الفترة تقريباً ذهبت مع بعض زميلاتها في المدرسة لقراءة طالعها مقابل فلسين عند عرّاف مقيم تحت قنطرة حارة درب قرمز في حيّ الجمالية، حالمة بأن يتنبّأ لها بالمجد والتألّق. تلت الشهادة همساً قبل أن تدخل تحت القبة المعتمة وذلك لكي تتّقي الشياطين التي ذاع عنها أنها تسكن المكان. مرّت رفيقاتها المتحمّسات واحدة تلو الأخرى أمام الرجل المُريب المقرفص على سجادة صغيرة بالية حتى بانت عقدها. عندما جاء دورها، كانت تتوقع مستقبلاً كمستقبل ملكة سبأ، لكن بدلاً من ذلك سمعت صوتاً أجشَّ يتسرّب عبر لحية العرّاف وينطق بهذا الحكم المخيف: «على الماء ولدت وفي الماء تهلكين»، فنهضت مترنّحة ومضطربةً وسط صيحات الفتيات المراهقات. أقنعت نفسها أنها سرعان ما ستنسى ذلك، ولم يخطر في بالها أنّ هذا التنبؤ بالموت سيتحول إلى وسواس في نفسها سيدفعها طوال حياتها إلى تجنّب شواطئ الإسكندرية وبيروت ومسابح الفنادق الكبيرة.

---

[1] كان شيخاً وملحّناً مهمّاً.



ظلّ فؤاد يراقبها عن كثب حتى أثناء التسجيل.



بدأ نجم فريد يلمع كعازف على العود،
وله صورة في شارع عماد الدين أمام «صالة بديعة»
التي كان يعزف في فرقتها من حين إلى آخر.



وقّعت أمال، بفضل شقيقها، عقداً مع شركة كولومبيا لتسجيل خمس عشرة أغنية.







داود حسني ومدحت عاصم ومحمد القصبجي وزكريا أحمد...



محمّد القصبجي



... معلّمو فريد وأمال، هم من الموسيقيين الأوسع شهرة في القاهرة.



كان على فريد وأمال أن يتعلما الكثير.
فالمخزون التراثي غني بالأنماط والتوزيعات الموسيقية.



qasida
قصيدة
Munulug
مونولوج
Dawr
دور
موّال
mawal
Layali
ليالي


وَفي
المياه
سَتَختَفين



ونطق بهذا الحكم المخيف: «على الماء ولدت وفي الماء تهلكين».

17

في دار الأوبرا الملكية في القاهرة

دار الأوبرا الملكية! أو الأوبرا الخديوية (قبل أن تصبح ملكية) في القاهرة، شيّدها الخديوي إسماعيل، النصير المتحمّس للفنّ الغنائي، في مناسبة الاحتفالات الضخمة بافتتاح قناة السويس. وقد كلّف أفضل الرسامين والنحّاتين في ذلك العصر بزخرفتها الداخلية، كما ألّف الموسيقي الإيطالي جوزيبي فيردي أوبرا «عايدة» خصّيصاً لتلك المناسبة[1]. تقع الدار في وسط المدينة وهي موضع فخر أهلها بقدر فخرهم بأهرام الجيزة وضريح الإمام الحسين. ارتعدت أمال لكل هذه الأفكار فيما هي تتهيّأ أمام المرآة، وقد جمّدتها رهبة الموقف، مكرّرة بصوت منخفض: «بسم الله الرحمن الرحيم...».

كان النجاح باهراً! تمالكت أمال أعصابها وتماسكت فلم تبدر منها أدنى حركة خارجة عن المألوف. بدت صغيرة جداً على الرغم من الكعب العالي المخفيّ تحت ثوبها الطويل والحجاب الذي رفعته ببراعة إلى أعلى رأسها فوق عقيصة شعرها. كانت عليا قد رفضت الحضور وبقيت في المنزل بصحبة بعض الصديقات. أما فؤاد وفريد، فقد جلسا متوتّرين في الصفّ الأمامي وعلى أهبة الاستعداد للتدخل في أي لحظة. غنّت بكلّ جوارحها، وألهبت مشاعر الجمهور المتفاعل معها حتى البكاء، فقابلها بموجة من الهتاف والتصفيق، كما هلّل لها النقّاد. وكان من شأن الحماس لهذا الصوت الجديد أن اجتذب أفواج الزوّار إلى المنزل العائلي ومنهم أم كلثوم. أم كلثوم! أي شرف هذا للصغيرة أسمهان! أم كلثوم معبودة أمال التي حفظت كل أغانيها عن ظهر قلب. كان فخرها بزيارة أم كلثوم لمنزلها أكبر منه لغنائها في دار الأوبرا!

كانت أم كلثوم آنذاك مطربة لا أحد يجاريها. مطربة تفوّقت على جميع من حولها... شخصيّتها فذّة وصوتها فريد. كانت دون الثلاثين من عمرها، لكن لا أحد... لا أحد يشبهها. رغم ذلك، لن يتوانى البعض عن خلق مُنافِسة لها.

ها قد آن الأوان للكلام على أم كلثوم...

---

[1] لكن فيردي تأخر في إنجازها فافتتحت الدار بعمل آخر له هو أوبرا «ريغوليتو». وأخرج فعلاً أوبرا «عايدة» لكن بعد سنتين.



الحماس لهذا الصوت الجديد اجتذب أفواج الزوّار إلى المنزل العائلي، ومنهم أم كلثوم.



شُيِّدت الأوبرا الملكية في مناسبة الاحتفالات الضخمة بافتتاح قناة السويس.



غنّت بكلّ جوارحها.

18

طفولة في دلتا النيل

«كانت قرية صغيرة جداً، أعلى بيت فيها لا يرتفع عن طابقين. كنت أغنّي في القرى المجاورة، وكلها صغيرة أيضاً. وكنت أعتقد أن السنبلاوين، وهي الكبرى بينها، أكبر مدينة في العالم. أسمع أخبار السنبلاوين كما أسمع اليوم أخبار نيويورك أو لندن أو باريس. وعندما ركبت القطار للمرّة الأولى لم أستوعب أنه يتقدّم، بل ظننت أن المحطّة تتراجع».

هكذا تكلمت أم كلثوم عن قريتها «طماي الزهايرة» الواقعة على دلتا النيل حيث ولدت في حدود العام 1904. وُلِدت ليلة القدر. كان والدها رجلاً تقيّاً جداً وإمام مسجد المحلّة. وقد أطلق على ابنته الثالثة اسم بنت النبي الثالثة، أم كلثوم. في الخامسة من عمرها التحقت بـ«الكتّاب» حيث تدرّبت بشكل أساسي، إن لم يكن حصريّاً، على حفظ القرآن الكريم. كانت تلك طريقة تعليم الأولاد الرائجة في هذه البيئة الريفية، يكتسبون معها القدرة على تلاوة المصحف الشريف بتجويد وإيقاع متقنين تماماً، متمكّنين من مخارج الحروف ومن كل وقف بين الكلمات.

لتحسين دخله المقتصر على معاشه الزهيد في الجامع، عمل الوالد في إنشاد التواشيح الدينية في حفلات الزفاف وسائر المناسبات في قريته والقرى المجاورة، مصطحباً معه ابنه خالد وحفيده. كانت أم كلثوم تتنصّت في السرّ وتحفظ سريعاً الترانيم التي تسمع والدها يعلمها للولدين وهي قابعة خلف الباب، حتى أصبحت في السرّ أفضل منهما كتلميذة. وفي أحد الأيام، عجز خالد عن تسميع ما علّمه إياه والده للتو، فبرزت من وراء الباب وألقت النصّ على أتمّ وجه. عندها، تنبّه الوالد إلى تمكّن ابنته كما اكتشف ما في صوتها من قوة مدهشة. «لكنّني سمعت والديّ يوماً يتهامسان بعد صلاة العشاء. قال والدي إنه لم يعد لديه المال الكافي ليرسلني إلى المدرسة، ويجب أن يخصّص النزر اليسير الذي تبقى له لتعليم شقيقي. وسمعت والدتي ترتمي على قدميه وتترجّاه أن يجد سبيلاً لتأمين مبلغ إضافي يسمح لي بالبقاء في المدرسة. وقد أمّنه فعلاً، لكنّني ما زلت لا أعرف حتى اليوم، من أين حصل عليه وكيف». ظلّت أم كلثوم ترتاد الكتّاب والتحقت بدروس الغناء التي كان والدها يعطيها للصبيان. وعندما أنشدت للمرّة الأولى أمام الجمهور، كان ذلك لتحلّ مكان أخيها المريض في حفل زفاف في دارة وجيه قريتها.

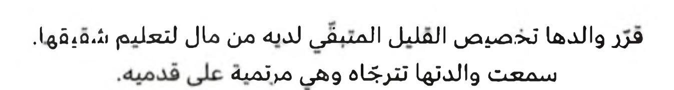


«طماي الزهايرة»، مسقط رأس أم كلثوم.



التحقت بالكتّاب في الخامسة من عمرها.





قرّر والدها تخصيص القليل المتبقّي لديه من مال لتعليم شقيقها.
سمعت والدتها تترجّاه وهي مرتمية على قدميه.

19

نجمة العائلة

لم يكن يُسمح إلّا للذكور بإنشاد التواشيح الدينية، لذلك أُلبست أم كلثوم في المناسبة ثياب صبيّ. كانت ما بين الخامسة والثامنة من عمرها. وإذا بهذه الفتاة الصغيرة، ذات الصوت الجهوري، تفتن الجماهير بأدائها الأناشيد النبوية، فيتزايد الطلب عليها بالاسم في القرى المجاورة. باتت هي نجمة العائلة. تنامى جمهورها وأصبحت تتلقى الدعوات من قرية تلو الأخرى. كان أعضاء الفرقة الصغيرة يجوبون منطقة دلتا النيل سيراً على الأقدام، ولكن، مع النجاحات والأرباح المتزايدة بكثرة صاروا يستقلّون القطار ويفرضون على الوجهاء الذين يدعونهم أن يرسلوا إليهم الحمير لنقلهم من المحطة. يسافرون في الدرجة الثالثة ثم ينتقلون قُبيل الوصول إلى مقدمة القطار لينزلوا من مقطورة الدرجة الأولى، إذ رأى والدها أنّ هذا يولّد انطباعاً جيّداً عنهم عند متعهّدي حفلاتهم. بعد فترة، اشترى الشيخ حماره الخاص ممّا سهّل تنقلاتهم في النواحي المجاورة.

ذاع صيت أم كلثوم، ما دفع بعض المنظّمين إلى إقامة حفلات مدفوعة في القرى المجاورة. كانت أم كلثوم تغنّي تحت الخيم وعلى منصّات مرتجلة ودوماً برفقة والدها وشقيقها ونسيب لها، وآخرون من الأفراد الذكور في العائلة، ودوماً بثياب صبيّ. ومع النجاح المتزايد تمكّن والدها من فرض بعض الشروط لحماية ابنته، ومنها ألا تُقدّم الخمور أبداً في الأماكن التي تؤدي فيها العائلة عروضها، كما حصل على بعض المكاسب ومنها أن يرد في العقود مثلاً أنه يحقّ لأم كلثوم أن تحصل بعد العرض على كوب من عصير الفواكه أو صحن مهلبيّة.

شبّت الفتاة، وتزايد قلق والدها من المجازفة بسمعتها، فحياة الفن ليست مستحسنة لرجل، فكيف بها لامرأة. ويتذكر زكريا أحمد، الذي كان لقاؤه حاسماً بالنسبة إلى الصبية المغنية، ملامات والده له في شبابه: «ربنا يكون في عونك، انت ابن عيلة وعايز تبقى واحد من اللي عايشين على «يا ليل يا عين»! روح شوفلك شغلانة محترمة يا ابني!».

بالنسبة لامرأة، كان الأمر أسوأ بعد. لذلك قرّر والد أم كلثوم أن تستمرّ ابنته في الظهور بثياب صبيّ.



غنّت، وهي بثياب صبيّ، في حفل زفاف في دارة وجيه قريتها.



أم كلثوم



راحوا يجوبون منطقة دلتا النيل بالقطار أو على ظهور الحمير. ومع النجاحات المتزايدة فرض والدها أن يقدَّم إليها بعد العرض كوبٌ من عصير الفواكه أو صحن مهلبيّة.

20

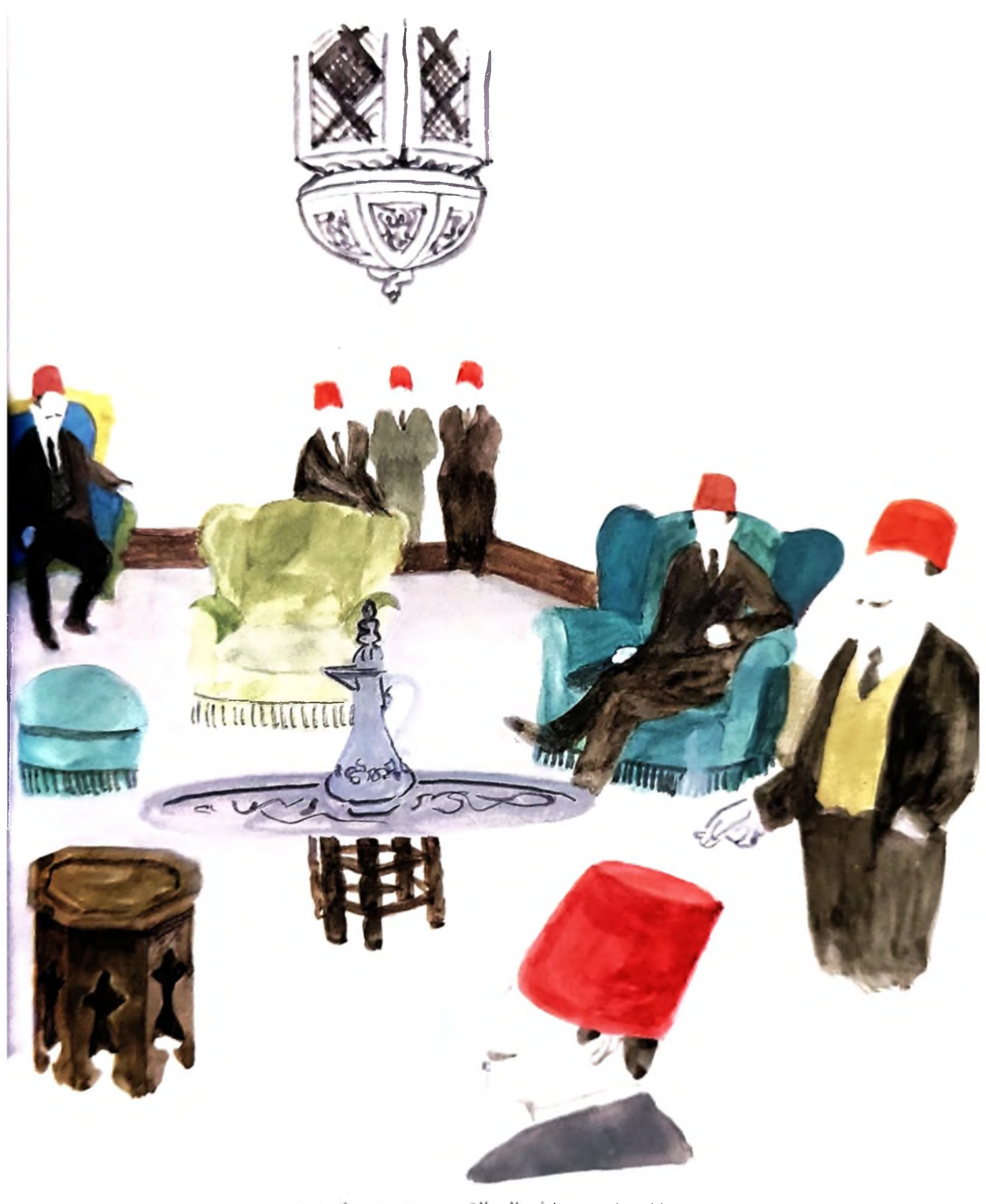
السهرة الأولى في القاهرة

تلقّى والد أم كلثوم نصيحة بأن ينتقل للسكن في القاهرة إذا أراد لابنته أن تتقدم في مسيرتها الواعدة. ظلّ لفترة طويلة متردّداً إذ لا عهد له بالمدينة. ولكن، في حوالى العام 1920، سنحت الفرصة لأم كلثوم أن تغنّي أمام زكريا أحمد الذي كان مارّاً بالسنبلاوين بمناسبة الاحتفالات الرمضانية، فتأثّر بصوتها وطاقتها وشجّع الوالد على حسم قراره بالنزول إلى القاهرة وساعده في هذا الاتجاه بدعوته مع الفرقة الصغيرة، قبل اتخاذ قرار الانتقال النهائي، للقدوم إلى القاهرة والغناء في بعض حفلات الاستقبال فيها. افتتنت الفتاة الصبية بالعاصمة، بصخب شوارعها وقرقعة الترامواي وحركة المحلات الناشطة وأضواء الكهرباء ليلاً... لكنها ظلّت تغنّي بثياب صبيّ، تاركةً ذكرى لا تمحى عند كل من تيسّر له مشاهدتها وسماعها من النخبة الفنية والفكرية في خلال سنواتها الأولى في القاهرة.

يتذكّر مدحت عاصم حفل استقبال عند آل عبد الرازق اصطحبته أمه إليه وهو ما زال فتياً. كانت النساء منعزلات في قاعة منفصلة عن قاعة الرجال، وإليهنّ أرسلت أم كلثوم لتغنّي. لكنّ تأثّرهن وتفاجؤهن بهذا الصوت الجهوري من فتاة يافعة بهذا اللباس، جعلهنّ يدفعنها دفعاً نحو صالون الرجال. في قاعة الرجال تلك، كان بين الحضور شخصيات من الأرفع مقاماً في مصر ورجال السياسة من الأشد نفوذاً في القاهرة. إرتبكت أم كلثوم بزيّها الفلاحي وسط كل هذه الأبّهة المهيبة، بكوفيتها الملفوفة على رأسها التي لا يبدو منها سوى عينيها وفمها. عبرت الصالون جامدة لا تلتفت إلى الرجال المُنشغلين عنها بأحاديثهم. وما إن علا صوتها في الصالة حتى خيّم صمتٌ عميق. قطع الرجال ثرثرتهم ليولوها كل الاهتمام ثمّ راحوا يطالبونها بالإعادة. وعندما ذكّرها مدحت عاصم، بعد سنوات طويلة، بأنه كان حاضراً في أحد عروضها الأولى في القاهرة، وبأنها كانت مرتعبة في ذلك المساء، أجابته: «لا، دول هم اللي خافوا مني».



أوّل بطاقة تعريف لـ«السيّدة» أم كلثوم: «مقرئة السيرة النبوية».



وما إن علا صوتها في الصالة حتى خيّم صمتٌ عميق.



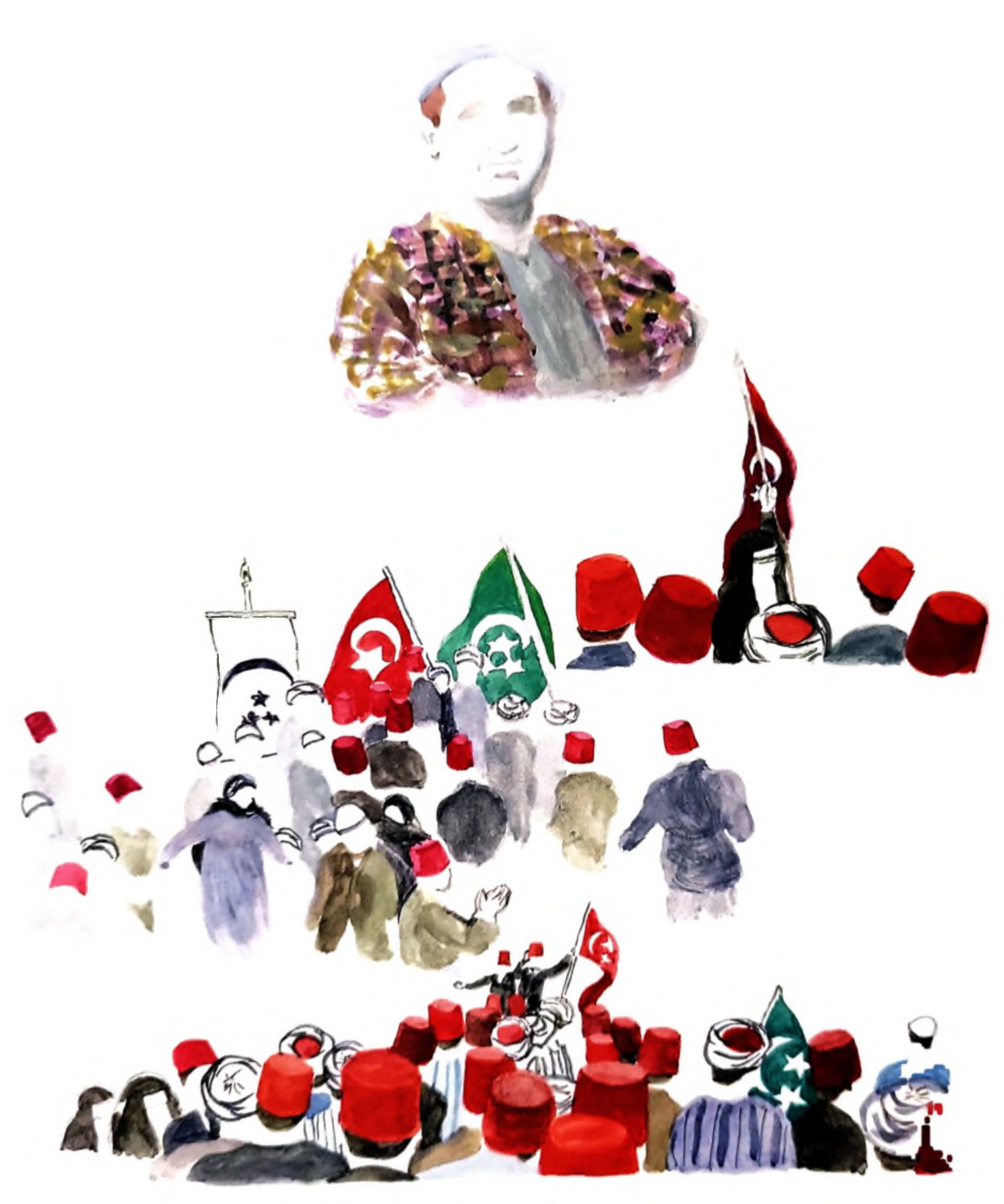
قطع الرجال ثرثراتهم وقد فوجئوا
بهذا الصوت القويّ الصادر من فتاة يافعة ترتدي ثياب صبيّ.

21

يوم قدومها إلى القاهرة

الواقع أنّ حضورها قد ولّد، في أحسن الأحوال، ارتباكاً عند البعض وصل إلى حدّ النفور عند البعض الآخر. لم يكن زيّها البدوي هو وحدَه ما جعل جمهور القاهرة يشمئزّ منها، بقدر ما نفّرهم منظر الفلاحين الأربعة أو الخمسة المتجهّمين المحيطين بها على المسرح، من الأب إلى الأشقاء والأقارب.

منذ أن دخلت الفرقة الصغيرة تحت رعاية عائلة عبد الرازق، استقرّت في القاهرة. إطمأنّ والدها في ظلّ رعاته من ذوي الاحترام والنفوذ، وهي رعاية ضرورية للفنان في تلك الحقبة. ومن غرائب الصدف أن يكون يوم وصولهم إلى العاصمة الكبرى ليس كسائر الأيام. كان الابتهاج والغليان في الشوارع في أوجه، حيث تجمّع الناس وتبادلوا السلام والتحيات. وبين الصياح والهتافات والأعلام، كان الحشد يتعاظم ويتقاطر صوب موقع واحد وسط حالة من الانفعال الشديد والوجوه المشرقة بالفرح. كانت الجماهير تتوافد إلى ساحة المحطّة من حديقة الأزبكية، وساحة الأوبرا، وساحة العتبة، وساحة الكازندار، والجمالية والأزهر، والحسين. كانت القاهرة، وهي تستعدّ لاستقبال بطلها سعد زغلول العائد من المنفى، في حالة فوران. لم يسبق لأم كلثوم أن رأت مشهداً كهذا من قبل، فانجرفت مع كل هذه الحميّة والحماس، على وقع الأغنية التي كانت جميع الأفواه تردّدها بصوت واحد: «بلادي، بلادي، بلادي» والتي وضعها قبل سنوات النابغة سيّد درويش رائد الموسيقى العربية الحديثة وأحد أركان النهضة، ومنشد الثورة على الاستعمار التي قادها سعد زغلول في العام 1919. أصلاً، كان من المفترض أن يكون سيد درويش موجوداً هنا أيضاً، فقد ألّف مؤخّراً نشيداً جديداً بمناسبة عودة سعد باشا، وكان من المقرّر أن يغنّيه اليوم. إلّا أن إشاعة سرت بين الجمهور ولم تلبث أن تضخّمت حتى كادت تغطّي على الصخب القائم، وسرعان ما اختلطت الدموع بالهتافات الجذلى، وانتشر الخبر وسط غليان القاهرة كالنار في الهشيم، فقد توفي سيّد درويش الليلة الماضية في الإسكندرية عن إحدى وثلاثين سنة إثرَ تناوله جرعة زائدة من الكوكايين. تردّدت دعاءات «رحمه الله»، و«أسكنه الله فسيح جنانه»، قبل أن تُستأنَف الأناشيد بين الجماهير مختلطة بالدموع. تأثّرت أم كلثوم واضطربت لهذا الخبر. فقد اقترن يوم وصولها إلى القاهرة بقدر مشؤوم، شكّل فاجعة للموسيقى العربية، وإذا كان «أوّل القصيدة كفر» فمن الأفضل لها أن تعود إلى الدلتا!



انتشر الخبر وسط غليان القاهرة كالنار في الهشيم،
فقد توفي سيّد درويش الليلة الماضية في الإسكندرية.

22

أم كلثوم المطربة

تغلّبت أم كلثوم على قلقها وانصرفت إلى حياتها الجديدة بكلّ جوارحها. أحيت الحفلات في الاستقبالات الخاصّة وفي المسارح. ثمّ وقّعت عقداً مع شركة «أوديون» وحقّقت أسطواناتها مبيعات جيّدة. «عندما سمعت صوتي مسجّلاً للمرّة الأولى، هرعتُ إلى غرفتي وارتميت على سريري نشوى من الفرح». كان معجبوها من القوميين المتحمّسين الذين فتنهم صوتها بالتأكيد، وإنما أيضاً أصولها الفلاحية والأصالة العربية في غنائها بعكس الأغاني الرائجة آنذاك والتي ما زالت مطبوعة بالمؤثرات العثمانية. تعاقدت معها هدى شعراوي لإحياء سهراتها النضالية. ثمّ سرعان ما هجرت صالات العروض المتواضعة في الأحياء الشعبية إلى حيّ الأزبكية. وعلى الرغم من ذلك، ظلت حتّى ذلك الوقت تنشد الأناشيد الدينية من دون مرافقة آلات موسيقية بل فقط بمرافقة صوتية من بعض الذكور من أفراد عائلتها. وإذا ما صادف وخرجت عن هذه النوعية التقليدية لتغني إحدى الأغاني الحديثة بناء على طلب الجمهور، كانت تفعل ذلك من دون موسيقى ودوماً بزيها البدوي!

ولكن، على الرغم من صوتها الذي لم يبدِ أحد أيّ شكّ في تفوّقه على الأصوات الأخرى، وعلى الرغم من امتلاء الصالات في حفلاتها، بدأت تصدر بعض الانتقادات لوجود هؤلاء الفلاحين معها والكوفية التي تلفّ بها رأسها وأخيراً للمعين نفسه الذي تختار أغانيها منه.

التخلّص من الغناء التقليدي. ذلك ما كانت تحلم به أم كلثوم! لكن كيف التوصّل إلى ذلك مع والدها الإمام الذي يتحكّم بحياتها؟ حاولت أن تستغل كل الفرص التي توفّرت لها، ومنذ أن تعرّفت بالشاعر الشاب أحمد رامي، توطّدت علاقتها به وصار يزورها باستمرار. عرّفها على عالم الأدب والشعر، فيما كانت، من جهة أخرى، تأخذ دروساً في الموسيقى لكي تحسّن تحكمها بصوتها ومرونته. كانت تتلقى دروساً خصوصية على يد أساتذة من بين أبرع أساتذة الموسيقى وأشهرهم، من زكريا أحمد إلى داود حسني ومحمد القصبجي الذين لم يتمنّعوا عن القيام بذلك (ولا تقاضوا عنه أجراً) بعد أن صعقتهم موهبتها وصوتها الاستثنائي، وهو ما لخّصه القصبجي قائلاً: «صوتها من النوع الذي لم يسبق أن سمعه إنسان قطّ». كما تأتّت عبقرية أم كلثوم من صرامة التربية التي تلقتها ومن طبعها المجتهد، هي التي أصبحت ترتاد صالونات المجتمع الرفيع حيث كانت تُدعى للغناء، وحيث يحضر خيرةُ المفكرين والبورجوازيين والأرستقراطيين وهواة الفنّ، الذين كانوا يدعمون الفنانين الشباب الموهوبين مثلها ومثل عبد الوهاب والأديب طه حسين، لتحصيل المعرفة وتأمين إطار التفاعل والتأثر المفيد لهم.

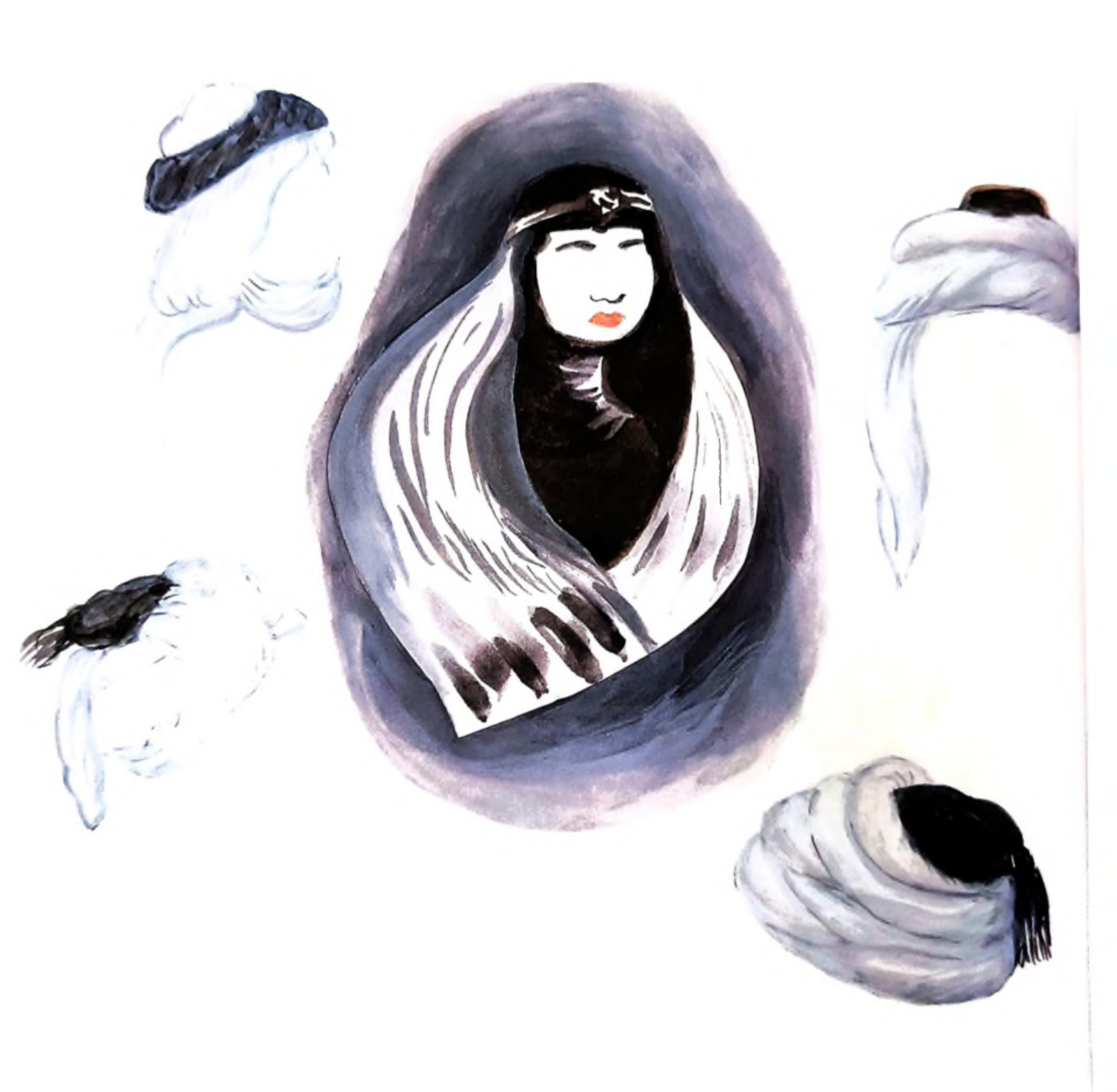
لكن للأسف، على الرغم من ذلك كلّه، استمرّ الأب في ممارسة سلطته على ابنته في اختيار أغانيها وأسلوبها الغنائي ولباسها.



أم كلثوم وشقيقها خالد سنة قدومهما إلى القاهرة.



وقّعت عقداً مع شركة «أوديون».



بدأت الانتقادات لوجود هؤلاء الفلاحين حولها.



تلقّت دروساً خصوصيّة على يد أساتذة من بين أبرع أساتذة الموسيقى وأشهرهم،
زكريا أحمد وداود حسني ومحمد القصبجي.



توطّدت علاقتها بالشاعر الشاب أحمد رامي، وأصبح يزورها باستمرار.

23

حملة الصحافة

انطلقت حملات الاستهجان والهجمات من كل صوب، وبلغت ذروتها في ربيع العام 1926، فكتبت مجلّة روز اليوسف: «تلقّينا مؤخّراً رسالة من أحد القرّاء يتساءل فيها عن سرّ وجود مرافقي أم كلثوم المعمّمين معها طوال الوقت متمنياً على المغنية الشابة أن تستبدلهم بـ«تخت» موسيقي، أو إذا كان لا مفرّ من وجودهم فلتوقفهم وراء الستائر... فما حاجة هذه الصبيّة إليهم وهم لا يفعلون شيئاً إلّا التثاؤب من وقت إلى آخر حتى يغلب النعاس هذا أو ذاك منهم فلا يستيقظ إلّا عندما يعلو التصفيق؟».

وكتبت مجلة المسرح: «المشكلة هي في الفلاحين الذين يحيطون بها كتماثيل من حجر. فما الفائدة من إبقائهم جالسين حولها؟ هل تعرفون أحداً لم يتذمّر من حضورهم وطرائقهم المزرية التي ليس من شأنها سوى إثارة الاشمئزاز خصوصاً عندما يرفعون أصواتهم الرهيبة التي تشبه خوار بعير في حالة ضيق؟ إنّ هذا يُسقط نصف موهبة أم كلثوم. فهل مَن رأى أسوأ من هذا الذوق؟ يجب أن يكون الفنّ رقيقاً وروحانياً. وهذه الشائبة تفسد كلّ شيء».

وأضافت روز اليوسف متناولة نوعية الأغاني التي تختارها: «أين التجديد؟ هي تنشد الأناشيد الدينية وهذا النوع معروف في مصر منذ قرون». كما كتبت مجلة المسرح: «إن جمال صوتها وصفاء نطقها والإحساس العميق المتولّد من غنائها والذي تنفعل به هي نفسها (وهذا أجمل ما في الأمر، أن يتفاعل المغني مع ما يغنّيه) كلها لا تضاهى. نحن لا ننفي فرادة امتداد نفَسها في تجاويدها وقوة صوتها، لكن هذا وحده لا يكفي، بل يجب أن يقترن بشيء اسمه «الفنّ»! صحيح أن أم كلثوم تتمتّع بالكفاءات والقدرات والمؤهلات الطبيعية، لكن ليس هذا كافياً».



انطلقت حملات الاستهجان والهجمات من كل صوب،
ولم ترحمها مجلة روز اليوسف.

24

جدّي في أوّل رحلة له إلى مصر

غالباً ما كان جدي يحكي لنا عن أول حفلة حضرها لأم كلثوم. كان ذلك في القاهرة العام 1926. قصد الإسكندرية للتفاوض على شراء وكالة بحرية يونانية. وبعدما أنجز عمليته، واصل الطريق إلى القاهرة إذ لم يُرد العودة إلى بيروت قبل أن يشاهد الأهرام. أقام عند صديق ذي أصول دمشقية مثله، ومثله أيضاً رحل عن دمشق العام 1912 للإفلات من الخدمة العسكرية في الجيش العثماني (سفر برلك). كان جبل لبنان في تلك الحقبة ينعم بوضع خاص في الأمبراطورية العثمانية أعفي أبناؤه بموجبه من الخدمة العسكرية الإلزامية. يومها غادر الشابان الدمشقيان مدينتهما مختبئين تحت قاطرة قطار يعمل على خطّ حمص-بيروت، وكل ما حملاه معهما هو بضع قطع نقدية ذهبية خاطوا فوقها حاشية زناريهما. «أسوأ ما كنا نخشاه هو أن يذوب الذهب قبل وصولنا إذ كان الموضع الذي تعلّقنا به مثل الأتون!». بعد أن أقام صديقه فترة قصيرة في بيروت انتقل للسكن في حيفا ثم غادرها إلى القاهرة حيث استقرّ نهائياً، بينما بقي جدّي في لبنان. إلى أن التقيا مجدّداً بعد كل هذه السنوات والمغامرات. احتفالاً بالمناسبة، اصطحب الصديق جدّي إلى حيّ الأزبكية ليحضرا حفلة تلك المغنية الجديدة التي يقال في المدينة إنها ذات صوت فريد. وعند الخروج من الحفلة راح الصديق يقدم اعتذاراته. فكل ما أراده هو أن يُبهر صديقه بجعله يعيش ليالي القاهرة الصاخبة! صحيح أن هذه المغنية تتمتع بصوت وغناء لا مثيل لهما، لكنها في منتهى التزمّت! وكارثة بكل معنى الكلمة! يا لَزيّها! وأولئك الفلاحون الذين يزعقون حولها! كان آسفاً فعلاً! وكنوع من التعويض، سيصحبه في الغد لسماع عبد الوهاب!

أتيح لجدّي أن يسمع أم كلثوم مرة ثانية، وذلك في بيروت بعد أربع أو خمس سنوات. آنذاك، كانت قد أصبحت «كوكب الشرق».



ذهبا لحضور حفلة تلك المغنية الجديدة
التي يقال في المدينة إنها ذات صوت فريد.

25

يا لَلْعار!

لم يعهد جمهور القاهرة هذا التزمّت. لقد اعتاد منيرة وتوحيدة وفتحية... هو جمهور يتوقّع سماع مطربة جميلة وجذّابة، وحتى ذات نزعة إغرائية إذا أمكن، تأسره بسحرها وخفّة دمها وغنجها. «إرخي الستارة اللي في ريحنا خلّي عيونهم تدبحنا!» هو من نوع العبارات التي كانت تُردّد كلازمة آنذاك على بعض خشبات المسرح في القاهرة. ويُقال إنّ أم كلثوم لم تكُن تشرب الخمر ولا تدخّن ولا تعرّض نفسها بأي شكل لأي تصرّف ممكن أن يهزّ صورتها الجدّية قيد أنملة. لكنّ الجدّية هذه لم ترُق للجمهور الذي يطالب بعض الخفّة من الفنّان، فهو يقصد العرض للاستمتاع بحفلة وليس للصلاة والتعبّد. لا أحد يريد أن يدخل صالة وكأنه يدخل جامعاً! بدأ ذلك يصبح مشكلة لأم كلثوم التي تراجع نجاحها فجأة، حتى هبط تقديرها إلى أدنى الدرجات، فكتبت روز اليوسف: «بغية اجتذاب الجمهور إلى حفلة أم كلثوم في الأسبوع القادم، تعاقد المنظمون أيضاً مع الرجل الذي يأكل ثلاثمئة بيضة وخمسين رغيف خبز وعشر جرار من الكبيس. يا للعار!».

إلّا أن الصبيّة لم تعد هي ذاتها تلك الفلاحة التي وصلت إلى القاهرة. فقد حدث تبدّل كبير في حياتها وإن لم يكن ظاهراً بعد. والرجل الذي شجّع على هذا التحوّل كان مغرماً بها، وما كان سوى الشاعر أحمد رامي الذي هام بها وظلّ كذلك حتى وفاتها مع أنها لم تبادله ذلك الحبّ. وقد غنّت أم كلثوم مئة وسبعاً وثلاثين قصيدة له، أي ما يعادل نصف الأغاني التي أدّتها، وهي تصدّه بلا هوادة.

كان أحمد رامي قد سافر إلى باريس لمتابعة دراساته في جامعة السوربون حيث أمضى ثلاث سنوات تعلّم خلالها اللغة الفارسية إشباعاً لافتتانه بعمر الخيام، ولكي يتمكن من قراءة نصوص هذا الشاعر الماجن من القرن الثاني عشر الذي تغنّى، عبر خيبته، بالحياة والمرأة والخمر. تلقّى، في باريس، رسالة من صديق في القاهرة يخبره فيها أنّ مطربة جديدة بثياب رجل تغنّي قصائده في حي الأزبكية. وبعودته إلى مصر ذهب لسماعها. هكذا وجد أحمد رامي نفسه جالساً في الصفّ الأول في إحدى حفلات أم كلثوم، من دون أن يتخيّل للحظة أنه سيحتلّ من الآن وصاعداً كرسيّه في الصفّ الأول في كلّ حفلاتها، حتى في حفلتها الأخيرة في الرابع من كانون الثاني/يناير العام 1973 في قاعة سينما «قصر النيل». فمنذ الليلة الأولى لعودته إلى القاهرة وقع في الحبّ. هزّت هذه الصبية بثياب الرجال كيانه وسحرته بغنائها. وفي نهاية الحفلة تعرّف بها وبوالدها وزارهما في اليوم التالي، ليواظب بعد ذلك على هذه الزيارات بعد أن أصبحت هاجسه الوحيد، بالإضافة إلى مشروع طموح آخر وضعه لنفسه وكان يستغرق منه سائر وقته، وهو ترجمة «رباعيات الخيّام» إلى العربية.


الرباعيات
أحمد رامي
عمر خيام
أم كلثوم

26

مسيرة تبدّل أم كلثوم

كان أحمد رامي، في كلّ زيارة لأم كلثوم، يحمل لها كتباً جديدة. أعجب بشخصيتها المتعطّشة إلى المعرفة وباتقاد ذكائها فعمل على تثقيفها وإغنائها وعلّمها اللغة الفرنسية. باتّصالها برجل الفكر هذا، بدأ التحول في حياة الفلاحة التي لم تعرف سوى القرآن ولم تعش حياتها إلّا بكل جدّية. لقد غيّر نظرتها إلى العالم، وعلّمها الضحك والمزاح... حتى بات بإمكانه أن ينجز الخطوة الحاسمة، وهي إعطاؤها قصائد الحبّ التي نظمها وتشجيعها على غنائها...

وأتت اللحظة المناسبة حين قبلت القصائد التي كتبها أحمد رامي خصّيصاً لها وطلبت من القصبجي أن يلحّنها.

كان زمن الأناشيد الدينية القديمة بالعربية الفصحى التي تستعصي معانيها على نصف المستمعين قد ولّى، ولم يكن مطروحاً في قاموسها أن تغنّي الطقاطيق الدارجة، من المستوى الهابط، الخفيفة والمكتوبة على عجل. كذلك، انتهينا من العبايات، تلك الأثواب التي لا شكل لها، والكوفيات والتصرفات الريفية. فعلى مدى ثلاث سنوات، كانت قد حظيت بالوقت الكافي والفرص الكثيرة لمراقبة سيدات المجتمع الرفيع في القاهرة ولباسهنّ وتصرفاتهنّ... كانت هؤلاء النسوة من صفوة المجتمع، وقد عرفن كيف يوفّقن بين الأناقة والموضة الحديثة من جهة، والممارسات الإسلامية والمصرية من جهة أخرى، وأساس ذلك فساتين تنمّ عن ذوق رفيع بأكمام طويلة لا تكشف عن العنق.

تغيّرت أم كلثوم.

صارت الشابة التي كانت تشمّر كمّيها لتأكل بيديها تستعمل الآن السكين والشوكة وترتدي فساتين «الكريب دو شين» وتتكلم الفرنسية. إكتملت عملية التحوّل ولم يعد بالإمكان التمييز بينها وبين سيدات المجتمع.

لكن التغيّر السينوغرافي اللافت كان على مستوى آخر، فقد تمكنت من استبدال عائلتها من الفلاحين بفرقة موسيقية رائعة، بـ«تخت» باهر.


أم كلثوم





أم كلثوم وحولها من اليسار إلى اليمين زكريا أحمد ومحمد العقّاد
وسامي الشوّا وأحمد رامي ومحمد القصبجي.

27

التخت

تحضيراً لافتتاح موسم العام 1927، فتشت أم كلثوم عن صالة مسرح تليق بهذا الانقلاب الكبير. لأن الانقلاب يجب أن يكون كاملاً بكل معنى الكلمة: فالموضوع ليس أنه أصبح عندها «تخت» يرافقها فحسب، بل أنّ هذا التخت يتألّف من موسيقيين بارزين، هم أفضل موسيقيّي القاهرة، حتى أنّ شهرتهم كانت تفوق شهرة أم كلثوم نفسها.

المدبّر الكبير لهذه الانعطافة التاريخية كان محمد القصبجي، فهو الذي أقنع كبار العازفين هؤلاء بالانضمام إليها. ومَن هم هؤلاء العازفون؟ على آلة القانون محمد العقاد، الملقّب بـ«العقاد الكبير» الذي سبق أن قام بتسجيلات لموسيقاه منذ القرن التاسع عشر، وكانت المرّة الأولى التي يرافق فيها امرأة بعزفه. والسوري سامي الشوا على الكمان، العازف المنفرد الماهر الذي أوصلته الحفلات التي أحياها إلى أوروبا وأميركا. وعلى العود القصبجي نفسه، ولعلّه الأبرز في الفرقة الجديدة التي سوف يُديرها في الوقت نفسه. فقد كان، بالرغم من أنّه الأصغر سنّاً، أحد كبار عازفي العود في العالم العربيّ، وخبيراً ملمّاً بالموسيقى وخفاياها، وهو بالتأكيد أحد أركان تجديد الموسيقى العربية المعاصرة.

أجمع الكلّ، أصدقاء وأعداء، على الترحيب بظهور «التخت» معها بوصفه إنجازاً كبيراً. وتردّد على الألسنة سؤال واحد: كيف أمكنها التخلّص من الشبّان الذين لم يكونوا يبتعدون عنها قيد أنملة؟ كيف توصّلت إلى إقناع والدها؟ وهو الشيخ الإمام المؤمن إيماناً راسخاً بأن صوت الإنسان وحده الذي خلقه الله هو الطاهر وبأنّ الآلات التي صنعها الإنسان هي كفر وتجديف ورجس... هو المقتنع بأن الموسيقى التي لا تسبّح الله تمجّد الشيطان. كيف وافق على غنائها قصائد أحمد رامي؟ بالطبع كان المال بنداً أساسياً في المفاوضات الشاقة التي أجرتها معه، وإليكم الاتفاق الذي تمّ التوصّل إليه في النهاية: تحصل هي على نصف مداخيل حفلاتها ويتقاسم الرجال النصف الثاني. كما أن شرطاً مالياً تفصيلياً ساعد على إقناع الوالد في النهاية، وهو أن أحمد رامي يهديها قصائده ولا يبيعها إياها، كما يلحّن القصبجي ولا يتقاضى شيئاً إلّا من حين إلى آخر. وقد اعتمدت أم كلثوم إلى حدٍّ ما هذه الطريقة العملية في الإدارة المالية طوال مسيرتها مع هذين الرجلين، كما مع الآخرين...

حقّقت حفلتها الأولى مع «التخت» نجاحاً عظيماً. وقد قدمتها في صالة «دار التمثيل العربي» التي لم تخترها مصادفة. ففيها كانت أخطر منافساتها تقدّم حفلاتها في أغلب الأحيان، منيرة المهدية التي لا تزال تحتلّ عرش «سلطانة الطرب».



كانت المفاجأة كبيرة،
فقد أقبل الناس بكثافة على دار التمثيل العربيّ.



أحاطت أم كلثوم نفسها بعازفين فاقوها شهرة.


الآنسة ام كلثوم
مع فرقتها المكوّنة من مشاهير الفنانين







أمّا الآلات التي صنعها الإنسان فهي كفر وتجديف ورجس...

28

كليوباترا وسقوط «السلطانة»

في العام 1927 بلغت المنافسة أشدّها بين ملكات الطرب الثلاث، منيرة المهدية وفتحية أحمد وأم كلثوم. كان لكلّ منهنّ مجلسها وتناهت أخبار مكائدهنّ إلى الصحافة. فقد استعانت منيرة بأصدقائها من الصحافيين لكي تنظّم حملات التهجّم على أم كلثوم وانتقادها، ووصل الأمر بمجلة المسرح حدّ التعريض بأخلاقياتها البتولية عبر التلميحات المشينة إلى وجود حلقة من رجال معجبين بها في مجالسها. أعطى هذا الغمز من قناتها ثماره. فقد أحسّ والدها بالإذلال وقرّر حزم الحقائب والعودة بابنته إلى القرية. ولم يثنه عن ذلك سوى تدخّل راعيه الشخصي النافذ عبد الرازق، لتصمد أم كلثوم في هذه المعمعة.

لم تكن منافستاها بصلابتها وثباتها. رحلت فتحية لعدة أشهر إلى سوريا قبل أن تعود إلى القاهرة وتلمس الأهمية الكبيرة التي اكتسبتها أم كلثوم في غيابها، فانسحبت مؤقتاً من المشهد الفني لكي تتفرّغ لإنجاب الأولاد فيما جمهورها ينتظر ظهورها ثانية من دون جدوى فهي لم تعد إلى الخشبة قطّ. فيما لم تبذل منيرة، ومنذ زمن طويل، أي جهد لتحسّن صوتها أو تطوّر أسلوبها، بل ظلّت تعيش على أمجادها، مسرّعة سقوطها بنفسها.

أمّا ما أدى فعلاً إلى نهايتها فهي المحاولة الأخيرة التي قامت بها لكي تبقى سلطانة الطرب. فقد قرّرت تمثيل أوبرا «كليوباترا» التي ألّفها سيّد درويش ولم ينجزها قبل وفاته. واتفقت مع محمد عبد الوهاب لكي يكمل كتابة موسيقاها ويلعب دور مارك أنطونيو معها. فعبد الوهاب نجم شاب شعبيّته واسعة جدّاً، وموهبته فائقة الوصف في الغناء والتلحين. لا بدّ إذاً من أن ينجح العمل معه نجاحاً باهراً. إلّا أنه انتهى بفشلٍ ذريع.

إتّفق النقّاد على أنّ عبد الوهاب كتب أغاني رائعة لنفسه وكتب لمنيرة قطعاً بسيطة لا قيمة لها. واتهمه البعض بأنه أعاد كتابة بعض المقاطع من سيد درويش لمصلحته هو. فما كان من منيرة إلّا أن صرفته ولعبت بنفسها دور الرجل، فجاءت النتيجة كارثية. ولم تتحسّن الأمور عندما لعبت مجدّداً، في صيغة ثالثة، دور كليوباترا أمام مطرب لا يمكنه أن يحجبها. فإذا بها تتهاوى ممزّقة القلب بعد هذه الإهانات، لتنتهي بذلك المرأة التي حظيت بأكبر قدر من محبة الجمهور والأكثر حصانة في عالم الغناء.

ويقال إنّ تصرّف محمد عبد الوهاب في هذه القصة الكارثية هو السبب الذي دفع أم كلثوم إلى أن ترفض بشدّة أيّ تعاون معه على مدى عشرات السنين الآتية.



منيرة وفتحيّة وأم كلثوم... في العام 1927 بلغت المنافسة أشدّها بين ملكات الطرب الثلاث.



وكانت نهاية المرأة الأكثر حصانة في عالم الغناء
والتي حظيت بأكبر قدر من محبة الجمهور.



كان المنتظر أن تحقّق «كليوباترا» نجاحاً كبيراً فإذا بها تُمنى بفشل ذريع.

29

أحمد رامي ومحمد القصبجي: يا غرام يا غرام

شيئاً فشيئاً، لم يعد غرام أحمد رامي خافياً على أحد، وبات هيامه جليّاً للعيون وللآذان خصوصاً لأنه كان يعلنه شعراً. غنّت أم كلثوم تقريباً كل القصائد التي أعطاها إياها من دون أن تتفاعل مع المعاني الأكثر وضوحاً في كلماتها: «ياللي انت جنبي وانت بعيد، أشوف خيالك واسمع لقاك، بُعدك شغل بالي، تعال شوف حالي». نظم القصائد عن معاناته الشخصية وغنّتها. قصائد متأججة بالبوح، وغنّتها. القصيدة جميلة، تغنّيها لأنها جميلة فقط، ناظرة إليه بترفّع يزيده إحباطاً. كانت كلماته على لسانها عزاءه الوحيد وقد اضطر إلى الاكتفاء بذلك طوال حياته. كتب قصائد العتاب وغنّتها، وقصائد الشك والغضب والرجاء والتهديد وغنّتها. غنّت كل ذلك غير متأثرة بالحرقة في كلمات حبّه اليائس.

«ليه يا غرامي بتئلمني، وتهرّب النوم من عيني
عملت إيه بتعذبني، وتسيبني للنار تكويني.»

اعترافات الحبّ التي تمزّق القلب، تشكّيات العاشق المحروم، لم تستمع إليها، غنّتها فقط.

ومثل رامي، كان القصبجي أيضاً هائماً، إنما بشكل أكثر تكتماً. فبعد أن لعب دوراً حاسماً في معركة أم كلثوم مع منافساتها بتشكيله التخت الموسيقي الرفيع وبإدارته بنفسه، احتلّ رسمياً مكانة ملحنها شبه الحصري. ويُعدّ القصبجي، إلى جانب عبد الوهاب، أحد مجدّدي الموسيقى العربية الأكثر جسارة. وقد لاقت الأغاني الأولى التي ألّفها لأم كلثوم نجاحاً باهراً في أوساط الجمهور والذوّاقة. وعبقريته هي التي قادت صوت أم كلثوم إلى معجزة التحوّل التاريخية في أساويها، لتنفتح أمامها مرحلة من المجد المطلق دامت خمسين سنة. ذلك المجد، نالته هي ولم ينله قطّ القصبجي الذي مني بأحد أكثر الأقدار تعاسةً وأكثرها غموضاً في تاريخ الموسيقى العربية. لكن ليس بهذه السرعة. ليس الآن. فهو لا يزال الآن ذاك الملحّن الذي يكرّس حياته وموهبته للمطربة التي أسرته، مطربة مصر الأولى.



أم كلثوم بين أحمد رامي ومحمد القصبجي.

30

الرحلة إلى لبنان وسوريا

لم يعد لأم كلثوم منافسة الآن. لقد منحها كفاحها من أجل بلوغ الموقع الفنّي الأول الثقة في النفس والسلطة. صارت تعرف كيف تتعامل مع كل فعاليات الوسط الفني وكيف تفرض خياراتها. وقد وظّفت المؤلفين والملحنين واستوديوهات تسجيل الأسطوانات والإذاعات والوسطاء وأصحاب الصالات لكي تنمّي جمهورها وتطوّر أسلوبها وتدبّر أمورها. ثمّ بدأت تسافر، واستُقبلت بكل حفاوة في لبنان وسوريا والعراق وفلسطين.

في مرفأ بيروت تجمّعت عشرات قوارب الصيد أمام الباخرة التي تقلّها، واستُقبلت بالأعلام المصرية واللبنانية وبالأوشحة وعزف الأبواق والهتافات والتحيات والورد والياسمين. وقد وظّف أحمد الجاك، متعهد حفلاتها في لبنان وأحد الزعماء المحليين، علاقاته المشبوهة في المرفأ لكي يأتي الاستقبال المعدّ لها على مستوى سمعتها وسمعة لبنان. وقد سارت السيارة التي أقلتها على السجاد الأحمر الذي بُسط في شوارع المدينة من درج النزول في سفينتها وصولاً إلى مدخل «التياترو الكبير»!

كان منزل أهل جدّتي يقع على هذا المسار. وقد حكت لي «تيتا» أنها كفتاة صغيرة وديعة ترعرعت في ظلّ أسرة شديدة التقوى، ظنّت أن كلّ هذه التشريفات والحركة لا يمكن أن تكون إلّا لاستقبال بطريرك أنطاكيا للروم الكاثوليك العائد من القدس. وعند مرور الموكب جثت على الشرفة مصلية.

في حلب نزلت أم كلثوم في فندق «بارون» وغنّت في مسرح «شاهبندر» حديث البناء.

وفي القدس، وهبت مداخيل إحدى حفلاتها للصندوق الخاص بمقاومة الاحتلال الإنكليزي والهجرة اليهودية إلى فلسطين.



بفضل متعهّد حفلاتها أحمد الجاك
لقيت أم كلثوم في بيروت استقبالاً استثنائيّاً.



في حيفا وهبت مداخيل إحدى حفلاتها للصندوق الخاص
بمقاومة الاحتلال الإنكليزي والهجرة اليهودية إلى فلسطين.



31

المنافِسة الجديدة

استمرّ توافد المغنّيات الجديدات إلى القاهرة، لكنّهن لم يشكّلن أي خطر على أم كلثوم، إذ كنّ في أحسن الأحوال نسخة باهتة عنها وهنّ يقلدن طريقتها في الغناء، بعد أن أصبحت النموذج المرجعيّ في هذا الكار. تلك ترتدي لباساً بدوياً، وتلك يرافقها والدها باستمرار، وجميعاً يحاولن تقليد أسلوبها في الغناء. أما اللواتي توقع لهنّ البعض مستقبلاً واعداً فقد اصطدمن بنفوذ أم كلثوم في المؤسسات، وهي لم تتساهل معهنّ. قيل الكثير لملك محمد الجميلة عن صوتها المعبّر جداً وعن المستقبل الكبير الذي ينتظرها في مجال الغناء. لكن في اليوم المقرّر لتسجيلها أغاني جديدة برفقة أوركسترا «غراموفون» التي كانت تضمّ محمد العقاد، ادّعت أم كلثوم في اللحظة الأخيرة أنها بحاجة إلى عازف القانون في فرقتها، للسفر معها إلى مدينة أخرى، فجرى تسجيل أغاني ملك مع عازف قانون أقل شهرة من العقاد...

لكن ليلة غنّت أسمهان في الأوبرا، أدرك الجمهور والوسط الفني وأم كلثوم أن نجمة جديدة قد وُلدت. فتيّة جداً وجميلة جداً وذات صوت مميّز؛ صوت جارح يُدمِع العيون... هذه المرة، لم تكن أم كلثوم إزاء واحدة من مقلّدات لا حصر لهنّ. فكيف تتعامل مع هذه المنافسة الجديدة؟

لم تضطرّ أم كلثوم إلى بذل أي جهد إذ تكفّل آخرون بكبح انطلاقة الصبية من دار الأوبرا الملكية ذاك المساء: من عائلتها الدرزية في جبل الدروز حيث عادت وأمضت أربع سنوات، إلى شقيقها المتزمّت فؤاد، وإلى الأسرة الحاكمة في مصر وعلى رأسها فاروق وخصوصاً الملكة نازلي. ثمّ كان هناك الضباط الإنكليز والفرنسيون وحتى الألمان، والإدارة المصرية والصحافة، ناهيك عن الأزواج والعشاق... لكن ألدّ أعداء أسمهان كانت أسمهان نفسها.



هذه المرة، لم تكن أم كلثوم إزاء واحدة من مقلّداتٍ لا حصر لهنّ.

32

فريد وأسمهان: صعود لا يقاوَم

بعد سهرة الأوبرا تسارعت الأمور بالنسبة إلى أسمهان وفريد على حدّ سواء. كان حلماً يعيشانه في يقظتهما. باتت أسمهان تُدعى باستمرار للغناء في السهرات الموسيقية التي تحييها عائلات المجتمع الرفيع وتُدعى إليها أم كلثوم وعبد الوهاب وغيرهما. كانت صاحبة موهبة وجمال وحضور ذهني، ما سهّل عليها حضور الكثير من اللقاءات المهمّة. وفي إحدى هذه السهرات تحديداً تعرّفت بعبد الوهاب الذي كان من بين المدعوين. في تلك الليلة ارتأت أن تغنّي موّالاً على الطريقة اللبنانية عن رجل يندب شقيقه الراحل. انتزع غناؤها شهقات عازف القانون البارز المرافق لها وأبكى سائر الحضور. تأثّر عبد الوهاب كثيراً فدعا فريد وأسمهان لزيارته كي يقدم إليهما النصح في مجال المهنة التي اختاراها. وعندما زاراه حدثهما عن هذا الاختراع الرائع الذي هو السينما، وخصوصاً بعد أن أصبحت ناطقة، وعن أهميتها الجوهرية بالنسبة إلى أي مغنٍّ.

إلتقيا، في السهرة نفسها، المصرفي طلعت حرب البالغ النفوذ، صاحب «بنك مصر»، أول مصرف تأسّس كلياً برؤوس أموال مصرية وموظفين مصريين، في ردة فعل على الهيمنة الإنكليزية في هذا المجال. كان وطنياً ملتزماً أسّس لاحقاً استوديوهات «مصر» للسينما. فأصبح راعيهما الجديد، وبفضله وقّعت أسمهان أول عقد للتسجيل عند استوديو «بيضافون».

واصل فريد وأسمهان تسجيلاتهما في الإذاعة. ولم تلبث المحطات الخاصة الصغيرة التي نشأت في السنوات الأولى أن واجهت ثورة قلبت المشهد الموسيقي في مصر رأساً على عقب، وذلك مع قيام أول إذاعة رسمية، الإذاعة المصرية الشهيرة التي تولّى إدارة البرامج فيها مدحت عاصم، أستاذ الموسيقى الذي علّم فريد وأمال في المدرسة.



غنّت أسمهان في سهرة خاصّة
تحت أنظار طلعت حرب ومحمد عبد الوهاب وشقيقها فريد.



تعرّف فريد وأسمهان إلى المصرفيّ النافذ طلعت حرب
وإلى محمد عبد الوهاب، نجم الأغنية بلا منازع.

بيضافون

Ste BAIDA pour-DISQUES
B.P. 2055
BEYROUTH_LIBAN

شركة بيضا للاسطوانات
ص.ب ٢،٥٥
بيروت_لبنان



وقّعت عقداً مع شركة بيضافون.

33

وضعٌ حرِج

عندما دعت ماري منصور أسمهان لتغنّي في «الصالة»، جنّ جنون فؤاد. فرضت عليه الغناء في السهرات الخاصة ودار الأوبرا والإذاعة وتسجيل الاسطوانات، لكن أن تغنّي في ملهى في شارع عماد الدين، فهذا ما لم يُرِد السماع به بتاتاً، ونقطة على السطر!

دافع فريد عن أخته بعد أن كان قد بدأ يعزف على العود في «الصالة» قبل بضعة أشهر. لكنّ فؤاد لم يكن ليعبأ برأي شقيقه الذي يعود إلى المنزل يومياً مع الفجر، ولم يليّن موقفهُ سوى تكفّل القصبجي الذي كان يدير الأوركسترا أحياناً بالسهر على أسمهان، والمعاش الذي وعدت ماري منصور بأن تدفعه لها. وبالتالي وافق، لكن بعد وضع جملة من الشروط، منها ألا يذكر أبداً اسم أمال الأطرش، وأن تغني أسمهان وهي محجّبة، وألا تظهر على المسرح إلّا في وقت أداء أغانيها، وألا تطأ قدماها أرض الصالة، وألا تتكلم مع أي من الزبائن... وتمّت الموافقة على هذه الشروط كلّها. وهكذا ظهرت أسمهان للمرة الأولى على مسرح ماري منصور، وفي ما يلي النظرة التي كوّنها عنها محمد التابعي[1] عندما رآها للمرة الأولى: «... كانت ماري منصور إحدى مديرات «مسرح رمسيس» وقد افتتحت «الصالة» الخاصة بها، وهي نوع من نادٍ ليلي في شارع عماد الدين. أرسلت لي بطاقة دعوة إلى سهرة الافتتاح، لكني لم ألبِّ الدعوة. ثم التقيتها بعد فترة وعاتبتني... تذكّرت معاتبتها لي في إحدى الأمسيات وأنا أتمشى في شارع عماد الدين مع صديق لي، وعندما وصلنا إلى ملهاها دخلنا. كانت القاعة مكتظة لا مكان فيها للجلوس فبقينا واقفين في إحدى الزوايا نستمع إلى صوت حزين ورقيق... صوت صبية واقفة على المسرح، محتشمة المظهر، ترتدي فستاناً أسود وتُغطّي رأسها ووجهها بوشاح رقيق، مثبتة نظرها إلى الأمام لا تلتفت يمنة ولا يسرة. يا لحسّ الوداعة والأسى الذي يشعّ منها! إنها المغنية أسمهان. كانت المرة الأولى التي أراها فيها. في تلك الليلة كان الإحساس الذي لامس روحي «من نوع آخر»، كان شيئاً فتياً سريع العطب مسكيناً مفتشاً عن تعاطف صادق. وما أزال أحسّ «هذا الشيء» حتى اليوم. كان ذلك العام 1931. لم أعد قطّ عند ماري منصور ولم أسمع أسمهان تغنّي هناك مجدّداً. لكن لم أنسَ أبداً صوتها ولا اسمها».

نعم! لن ينسى التابعي أسمهان أبداً. وعندما تعارفا رسمياً بعد سنوات بواسطة عبد الوهاب، شغل حيّزاً مميّزاً في حياتها. بات الصديق المؤتمن على الأسرار والمستشار والمساعد ولا أحد يعرف إن كان أيضاً العشيق.

---

[1] أحد أبرز الصحافيين في مصر، لقّب بـ«أمبراطور الصحافة».



34

شائعات تُثير غضب فؤاد

راحت أسمهان تعمل إذاً في الإذاعات والسهرات الخاصة والملاهي. لم تعد تهدأ. كانت تُطلب إلى كل مكان... وفؤاد لا يفارقها قيد أنملة مرتعباً من إمكانية أن تنكشف هويتها الحقيقية، وهو ما حدث فعلاً إذ راح الناس يتحدّثون في الموضوع... أليست هي شقيقة فريد الأطرش؟ وكنيتها الأطرش أيضاً، أليس كذلك؟ نعم بالتأكيد ولكن، ربما اتّخذ فريد اسماً مستعاراً وليس الأطرش اسمه الحقيقي، هذا أمر معهود في الأوساط الفنية، أليس كذلك؟ أكيد أنك تمزح! فمن الجنون أن يختار موسيقيّ «الأطرش» اسماً فنياً له! ها ها ها! بالتأكيد، الحقّ معك...

ولم يلبث، أن شاع في القاهرة كلها أنّ أسمهان هي الأميرة أمال الأطرش. كما انتبه فريد إلى اكتمال نموها الجسديّ. هي تسترعي انتباه الرجال، ربما بوصفها اكتشافاً فنياً، إنما كامرأة أيضاً... وها قد عُرض عليها التمثيل في السينما. هنا، كانت معارضة فؤاد قاطعة لا هوادة فيها. فالأفلام المصرية تعرض في كل قاعات العالم العربي، ويكفي أن يراها أحد الدروز، درزي واحد (لا قدّر الله، هو لا يتجرأ حتى على تخيّل ذلك!) بجانب رجل على الشاشة حاسرة الرأس لكي يفتّش عنها الأرض قاطبة ويجدها ويغرز خنجراً في قلبها! وحتى هو، فؤاد، قد يُقتل لأنه وافق على السماح بهذا العار!

منيت أسمهان بخيبة أمل، لكنها منّت النفس بتوفّر فرص أخرى. وهذا تحديداً ما لم يشأ فؤاد أن يخاطر به. الزواج هو الحلّ الوحيد لوقف كل هذه المهزلة. وبما أنه من غير المقبول أن تتزوّج بغير درزي، قرّر زيارة الجبل. وبحسب معايير جبل الدروز، صارت أمال، على رغم صغرها، في سنّ الزواج. فاختير لها أحد الأنسباء، على أن يسافر إلى القاهرة، برفقة الأمير حسن، زعيم القبيلة ونسيب أمال أيضاً، لكي يطلب يدها للزواج، فبما يسبقهما فؤاد ليحضّر الأجواء.

عندما عاد فؤاد إلى القاهرة وجد المنزل مليئاً بالضيوف والموسيقيين والأصدقاء... فطردهم بكل فظاظة، وإزاء احتجاجات أمه وشقيقته صرخ فيهما: «لن يدخل رجل بعد الآن هذا المنزل، أفهمتما؟ أمال تعرفين جيّداً تماماً أن نساءنا، نساء الدروز، لا يبقين بصحبة الغرباء! لا يجالسنهم ولا يعملن على تسليتهم. هنّ لا يتصرّفن مثل ممثلات الأفلام! وتذكّري أن الدروز لا يقترنون إلّا بالدروز!». لم تستغرب عليا وأمال هذه الموعظة، إذ تعرفان تماماً طباع فؤاد ومبادئه الرجعية، لكن فاتهما ما كانت هذه الموعظة تخفيه. وعندما زارهم بعد أيام الأمير حسن الأطرش شخصياً، كانت المفاجأة كبيرة.



«نساء الدروز لا يجالسْنَ الغرباء.»





بات الناس جميعاً في القاهرة يعرفون أنّ أسمهان هي الأميرة أمال الأطرش.
ولاحظ فؤاد مرتعباً أنها تسترعي انتباه الرجال.

35

زواج درزيّ

عندما رأى حسن أمال فُتن بها وقرّر أن يتزوجها هو نفسه، وطلب يدها على الفور، فكاد أن يغمى على فؤاد وقد أُسقط كلّياً في يده.

وبعكس المتوقّع، لم تكن أمال من عارض هذا الزواج بل عليا وحتى فريد الذي رأى أن شقيقته مشغوفة بالموسيقى والغناء وأنها ستكون تعيسة في الجبل. أما دوافع عليا فكانت ماديّة أكثر، إذ إن أمال باتت الآن تؤمّن قسماً كبيراً من مداخيل المنزل، كما أن كبار الموسيقيين في محيطهم، مثل القصبجي ومدحت عاصم وداود حسني وغيرهم قد توقعوا لها مستقبلاً باهراً. وبالتالي فإن التخلّي عن مصدر الرزق الغني هذا سيشكل خسارة فادحة. ثم من سيرعى عليا إذا ما رحلت أمال؟ ففريد بات يكسب الآن مورد عيشه، لكنه رجل ينفق على هواه ويعطي والدته ما تبقى، فيما كانت عليا تتصرف كما تشاء بمداخيل أمال. هكذا قدمت أعذاراً شتّى لمعارضتها الزواج لكنها سلّمت بالأمر أخيراً تحت الضغط وخصوصاً بسبب الضمانة التي أعطاها إياها حسن بمنحها معاشاً محترماً.

فُتِنت أمال بحسن افتتاناً فاجأ الجميع، وأوّلهم هي نفسها. فقد كانت تظنّ أن دروز الجبل قوم متخلّفون أغبياء وإقطاعيون رجعيون متمسّكون بأزيائهم القديمة، فإذا بحسن لا يعتمر كوفية ولا يرتدي عباءة ولا يحمل سلاحاً على خصره، بل يلبس بزّات غربية، ويتجول حاسر الرأس وحوله فقط «مرافقون» مسلحون. كما أنّه بالتأكيد يتمتّع بجاذبية زادها تميّزاً في نظر أمال كونه متزوجاً من خمس نساء. وافقت الصبية سريعاً على الزواج به لكنها وضعت شرطين: أولاً أن تعيش في دمشق وليس في الجبل وأن تمضي الشتاء في القاهرة، وثانياً وعلى الأخصّ وفوق كل شيء، ألّا تضع الحجاب. فوافق حسن على كلّ ذلك.

أُقيمت مراسم الزفاف في الجبل، وحضرتها عليا، لكنها عادت إلى القاهرة بمجرد انتهاء العرس. وبذلك بدأت أسمهان حياتها الجديدة باسمها الحقيقي، الأميرة أمال الأطرش.



أمال وزوجها حسن في صورة الزفاف.

36

أمال في سوريا وشعورُ الكآبة

كان الفرنسيون يحتلّون قصر آل الأطرش في دمشق، فاستأجر حسن منزلاً لأمال، وكان يصحبها من وقت إلى آخر لإمضاء العطل في بيروت، بينما وزّع هو وقته بين دمشق والجبل. كانت الأجواء متوترة في سوريا وعلى عاتق حسن الكثير من المسؤوليات والقرارات التي عليه اتّخاذها في شأن عشيرته. وشيئاً فشيئاً اكتشفت أمال أهمية الدور الذي يلعبه زوجها ومخاوفه على المنطقة، فشعرت بالفخر به وزادتها هيبته انجذاباً إليه، ما حملها على التخلّي عن العيش في دمشق ومرافقته إلى الجبل، حتى أنها كانت مستعدة، إذا ما ظلّ الوضع مضطرباً في نهاية الخريف، أن تَعدِل عن إمضاء الشتاء في القاهرة!

كان مسكن العائلة القديم في قرية «عيرا»، ذاك البناء الحجري الأسود الراسخ كالقلعة على رأس تلّة، عرضة للرياح من الجهات الأربع. فأوعز حسن ببناء أربع غرف إضافية مريحة لأمال، وطلب أثاثها من دمشق وبيروت. تكيّفت أمال مع الوضع، واكتشفت هواية الصيد، وأتقنت فنّ الفروسية على الرغم من وعورة الأراضي هناك. إلّا أنّ الملل استولى عليها رغم محاولتها التغلّب عليه. فقرّر حسن الانتقال للإقامة في السويداء، وهي بلدة أكبر قليلاً وأقل عزلة. فبنى فيها لأمال فيلّا استغرق إنجازها سنتين...

راحت أمال تتردّد أكثر فأكثر إلى دمشق، وأحبّت كثيراً التجوّل في أسواقها، حيث أمكنها شراء جديد الأسطوانات لعبد الوهاب وأم كلثوم لتتبيّن الألحان الطموحة أكثر فأكثر التي وضعها القصبجي لها. إلّا أنّ دمشق ليست القاهرة، فهي ما زالت مدينة محافظة جداً، حتى السينما مثلاً محظورة فيها على النساء... لكنّ أمال تمكّنت أخيراً من دخولها ذات يوم وحضور عرض «وداد»، أول فيلم لأم كلثوم، باكورة إنتاجات «استوديوهات مصر».

آنذاك انتابها شوق جارف إلى القاهرة.





في دمشق أمكنها شراء آخر ما كان يصدر من أسطوانات عبد الوهاب وأم كلثوم..



حضرت يوماً فيلم «وداد»، فانتابها شوق جارف إلى القاهرة...

37

ليلة اكتشفت القاهرة «استوديوهات مصر»

تغيّرت أمور كثيرة في القاهرة منذ أن غادرتها أمال إلى سوريا، بدءاً بالملك. فقد توفّي الملك فؤاد وخلفه على العرش الأمير الشاب فاروق. كان في السادسة عشرة، وقد تابع تحصيله العلمي في سويسرا ثمّ في إنكلترا. سرعان ما تعزّزت الآمال بأن ينجح الملك الجديد، واسع الشعبية آنذاك، في تحرير البلاد من الهيمنة البريطانية. لكن بالرغم من توقيعه العام 1937 معاهدة إنكليزية مصرية كان من المفترض أن تحدّ من سلطة الإنكليز، لم يتغيّر شيء على الأرض. فاستمرّ الشعور الوطني المعادي للاستعمار قوياً في صفوف الشعب والنخبة على حدّ سواء. وفي ظلّ هذه الظروف شكّل تأسيس المصرفيّ طلعت حرب شركة «استوديوهات مصر» الشهيرة حدثاً قومياً ضخماً، وطنياً إلى أقصى الحدود. فقد طبّق طلعت حرب المبادئ نفسها التي اعتمدها في تأسيس «مصرف مصر» حيث لم يوظّف سوى المصريين وبرؤوس أموال مصرية فقط، لتكون «استوديوهات مصر» أول الاستوديوهات السينمائية المصرية حصراً. ولكي لا يضطرّ إلى الاستعانة بتقنيين ومخرجين أوروبيين، وهم وحدهم أصحاب المؤهلات الحقيقية في القاهرة حتى ذلك الوقت، أرسل قبل سنوات من افتتاح الاستوديوهات شباناً مصريين كي يتعلموا ويتخصّصوا في أوروبا على نفقته الخاصّة.

أخيراً دُشّنت الاستوديوهات رسمياً في 12 تشرين الأوّل/أكتوبر العام 1935. مع بداية حلول الظلام سلك المدعوون طريق الجيزة، وقد لاحت لهم الأهرامات من بعيد. واصلوا طريقهم عبر الأراضي المخضرّة إلى أن برزت لهم الاستوديوهات فجأة وسط هالة من الأضواء. بلغ الحماس أشدّه. وسط المشاهد الرائقة والنسيم العليل والسماء المكشوفة، راحوا يكتشفون أفضل التقنيات الحديثة والآلات الأكثر جدّة في عالم السينما، اختراع القرن الأكثر سحراً! عند المدخل، حظي المدعوّون باستقبال حار ثم اصطُحبوا في جولة على مختلف أقسام الاستوديوهات، من منصّات التمثيل إلى الديكورات ومشاغل الثياب وعنابر الآلات، والكاميرات والإضاءة وصالات المونتاج وتسجيل الأصوات... ثمّ كانت في انتظارهم مأدبة انتقلوا بعدها إلى صالة العرض، حيث شاهدوا أفلاماً قصيرة دعائية لشركات بنك مصر ورحلات طلعت حرب إلى مختلف البلاد العربية. وفي نهاية العرض، كانت مفاجأتهم الضخمة، إذ عرض عليهم فيلم يظهرون فيه عند وصولهم إلى الاستوديوهات واستقبالهم، وفي أثناء زيارتهم المكان! وقد فتن هذا الاستعراض الباهر والمذهل الحضور الذي بلغ خمسمئة شخص. كانت «استوديوهات مصر» جاهزة لصناعة السينما.









أصبح الأمير فاروق ملكاً، وأسّس طلعت حرب «استوديوهات مصر».





فجأة برزت لهم الاستوديوهات وسط هالة من الأضواء...



فيلم «وداد»، من إنتاج «استوديوهات مصر»، حقّق نجاحاً شعبياً باهراً
واستمرّ عرضه عدّة أسابيع في صالات سينما رويال وسينما ستوديو مصر.



سارع الجمهور لمشاهدة أم كلثوم في أوّل أدوارها.

38

الإذاعة الوطنية المصرية بين متنافسَيْن اثنين

مضت سنتان والجمهور العريض يستمع إلى أغاني أم كلثوم على أثير الإذاعة المصرية الوطنية. ففي عام 1934 كانت «الإذاعة المصرية» قد تأسست وطالت شريحة من المستمعين أوسع بكثير من الإذاعات الخاصة الصغيرة المتعددة التي وصلت إليهم حتّذاك. فقد غطّت موجاتها مجمل الأراضي المصرية من البحر الأبيض المتوسط إلى حدود السودان. ولم تكن أم كلثوم تحبّ الغناء من دون جمهور، فترددت أولاً في خوض هذه المغامرة الإذاعية. لكن مدحت عاصم أقنعها عندما لفتها إلى أن عبد الوهاب قد وقّع عقداً مع الإذاعة. عبد الوهاب لم يتردّد، فهو دوماً في طليعة المجدّدين، يواكب عصره ويتأقلم مع كلّ جديد. ولم تلبث أم كلثوم أن وقّعت عقداً كيلا تترك السبق لمنافسها المباشر. وقد اشترط كلاهما أن تُبثّ أغانيه مساء يوم الخميس، عشية يوم العطلة، الجمعة. فما كان من مدحت عاصم إلّا أن وزّع البثّ بالتساوي بين الإثنين ودفع لهما الأجر نفسه. سرعان ما اتخذت هذه البرامج طابعاً مؤسساتياً في الحياة الموسيقية المصرية، موفرةً فرص الشهرة للمغنين والملحنين والمؤلفين والفرق الموسيقية والعازفين المنفردين... فأجهزة الراديو، الموجودة في الأماكن العامة من المقاهي إلى محلات البقالة، تطال جمهوراً أكبر بكثير من جمهور الحفلات وحتى أكثر من سامعي الأسطوانات. كانت أم كلثوم هي من افتتحت الغناء في «الإذاعة المصرية» بناء على طلب الملك فؤاد. وعليه، كان صوتها هو أوّل صوت سمعته مصر بأكملها في وقت واحد.

لكنّ فكرة أن يستمع إليها مباشرةً الآلاف، بل عشرات الآلاف، أثناء غنائها في الاستوديو، لم تكفِ أم كلثوم. هي بحاجة إلى جمهور من لحم ودم يُذكي مشاعرها حتى «تسلطن». لا تتأثر ولا تنفعل ولا تسحر ولا تتجلّى إلّا إذا لمست الشغف والهيام في عيون مَن ينصتون إليها متفاعلين مع انفعالاتها. وفي الاستوديو ينكبّ التقنيون عادة على عملهم وراء الزجاج العازل... لكنّ أحمد رامي هنا. ذاك المتيّم الدائم، كان يبقى قبالتها، واقفاً وراءهم، وليس سوى عينيه لكي تنظر فيهما. كانت تركّز عليهما طوال الأغنية مستلهمة منهما دلائل الوله التي تحتاجها في الغناء، فيتمتّع هو بهذه اللحظة المباركة التي توجّه فيها معبودته كلمات العشق والغرام إليه، إليه وحده. كلمات من نَظْمه هو في أغلب الأحيان.







أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب في صورتين دعائيتين للإذاعة المصرية.



في المقاهي نطال أجهزة الراديو جمهوراً أكبر بكثير
من جمهور الحفلات أو الأسطوانات.



أم كلثوم هي التي افتتحت الغناء في «الإذاعة المصرية»،
وكان صوتها أوّل صوت سمعته مصر بأكملها في وقت واحد.

39

إطالة التطريب

حصلت أم كلثوم، في العام 1937، على الحقّ في بثّ بعض حفلاتها العامة مباشرة على الإذاعة، وذلك في الخميس الأوّل من كلّ شهر.

كان الجمهور جزءاً لا يتجزّأ من عرضها. عندما تُرفع الستارة تبدو جالسة على كرسي وسط فرقتها الموسيقية، مستقيمة القوام، يداها على ركبتيها وكفاها تدعكان محرمتها الحرير. وبعد مقدمة موسيقية من الفرقة، تنقطع لها أنفاس الجمهور، تقف، تتقدم على الخشبة وينطلق صوتها في امتدادات طويلة. وفجأة تنقطع هذه الرحلة المثيرة مع صوتها عند سلسلة من التنويعات الرائعة. فبفضل إتقانها «البحّة» و«الغُنَّة»، كان بإمكانها أن تكرّر العبارة نفسها إلى ما تشاء ملوّنة إياها بـ«زخاريف» متنوّعة في كلّ مرة. وهي تلك التنويعات التي بعثت النشوة في جمهورها وأضفت طابعاً أسطورياً على أداءاتها التي كانت فعلاً مشحونة ببعد شهوانيّ فتكاد تشبه أحياناً حشرجات امرأة لحظة بلوغها لذّة الجماع. هذا هو الطرب، تلك اللحظة المفارقة المرجوة من البراعة التقنية والانخطاف التام التي توصل إلى النشوة الموسيقية والمتعة الجمالية. حتى وإن كانت إطالة التطريب، هذه المرحلة السامية واللامعقولة من الإحساس الموسيقي، تعود إلى موهبتها، فهي لا يمكن أن تتحقّق وتبلغ ذروتها إلّا مع تجاوب المستمعين. وجمهور أم كلثوم المصري، حتى الأمّي منه، مثقّف موسيقياً. فتصدر منه الـ«آلاااااه» والهتافات وتعابير الرضى وتنهدات الاستمتاع أو طلبات الإعادة في اللحظة المناسبة. ما حقّق نجاح هذه الحفلات هو ذاك الانصهار بين المؤدية والمستمعين، وأم كلثوم أول من وعى ذلك، هي التي لم تكن تقرّر أي مقاطع تغنّي، وكانت ثلاثة عموماً، إلّا في الدقيقة الأخيرة بعد أن تستكشف الجمهور من الكواليس. وبما أن تنويعاتها على الجملة نفسها أصبحت تطول أكثر فأكثر، كان يحدث أن تدوم الأغنية الواحدة لأكثر من ساعة. وفي الوقت نفسه ضمنت لها مدة حفلاتها وقتاً مماثلاً من البث الإذاعي، أي ثلاث أو أربع ساعات من مساء الخميس الأوّل من كلّ شهر. إنها سهرة أم كلثوم، التي كانت تنعقد حول أجهزة الراديو في كلّ أنحاء مصر.

الشوارع تقفر والحياة تتوقف، ومن دون تمييز في الطبقات الاجتماعية، ويسارع الجميع، عامة الشعب، والمثقّفون والوجهاء إلى المنازل أو المقاهي لكي يثبتوا جلساتهم حول جهاز الراديو. ويطلع صوتها من أحشاء المدينة، يعلو، وسط نفثات الدخان الحلزونية، حاراً بحرارة صلاة. يتأرجح بين علو وانخفاض كحركة الموج على الصخور، مكرّراً كل عبارة، حاملاً على النشوة، قوياً ومتواصلاً، حتى الثمالة. إنه نوع من الإثارة الجماعية في عالم خاضع لهيمنة الرجال الذين يعبدون إلهة، يجثون جميعاً عند قدميها ولا ينال أي منهم حظوة منها. وعلى ذكر التعبُّد، كان النهار الذي يسبق الحفلة رهيباً على أم كلثوم، تُمضيه كله في قراءة القرآن استعداداً للمساء.

الراديو المصري







الشوارع تُقفر والحياة تتوقف ويطلع صوتها من أحشاء المدينة،
يعلو حاراً بحرارة الصلاة، باعثاً النشوة وصولاً إلى الثمالة...

40

وجه أم كلثوم

على مدى السنتين الماضيتين، عرف المجتمع المصري بمختلف طبقاته صوت أم كلثوم. ثمّ اكتشف وجهها بفضل «استوديوهات مصر». «وداد» صبية «أمَة» من القرن الثالث عشر، عربية صادقة محتشمة متواضعة أخلاقية وبطلة. وقد تناسب دور «الأمَة» المغنية هذا تماماً مع شخصية أم كلثوم التي عادت ولعبته في عدّة أفلام لها مكيّفة إياه مع مختلف مراحل تاريخ العرب. فبعد نجاح فيلم «وداد» أكملت مع فيلم «نشيد الأمل»، أوّل فيلم من إخراج أحمد بدرخان، أحد الشبان المصريين الذين أوفدهم طلعت حرب للتعلّم في أوروبا.

كان محمد عبد الوهاب، المندفع دوماً إلى خوض التجارب الجديدة، قد مثّل من جهته في فيلمين غنائيّين هو بالطبع من وضع موسيقاهما، «الوردة البيضاء» في العام 1933 و«دموع الحبّ» في العام 1935. وجاءت أغاني الأفلام صاعقةً كما أرادها في سياق الموسيقى العربية المحافظة في تلك الحقبة، وبمثابة نفس جديد حقيقي وتوليفة مكثّفة من الفتنة والإمتاع الجماليّ. لم يتورّع عن الاقتباس أكثر فأكثر عن الموسيقى الغربية أو الأميركية اللاتينية، وأدخل الغناء الثنائي الذي أدّاه مع شريكاته الحسناوات (وهو شكل لم يكُن مطروقاً في الغناء العربيّ)، وقصّر زمن الأغاني لكي تتساوق بشكل أفضل مع القصة، ولم يخشَ كتابة أغانٍ مقتضبة بعد أن ألّف روائع الموسيقى المعقّدة. حقّقت هذه الأفلام التي غالباً ما لعبها بخفّة ظلّ وارتياح، إضافة إلى روح الدعابة والكلام اللطيف الوقع، نجاحاً كبيراً مقروناً بحسّ دعائيّ جارف. فهو لم يتردّد مثلاً في بعض الأمسيات عن قطع عرض أحد أفلامه لحظة بدء إحدى الأغاني لكي يصعد بنفسه إلى الخشبة ويؤدّي الأغنية أمام الجمهور المأخوذ بهذه المفاجأة ثم يستأنف الفيلم من حيث توقّف. وهذه سابقة!

وكان من شأن نجاح فيلم «الوردة البيضاء» الكاسح أن دفع أم كلثوم إلى الانخراط في عالم السينما، هذا الفنّ المستحدث الذي لم تكن ترتاح له. ولمّا لم تعد تواجه منافسة نسائية، وجدت في عبد الوهاب منافساً ندّاً لها، تحتاجه لكي تتقدّم. فاندفعت في عالم السينما مغنية عبر الثغرة التي فتحتها لها من دون أن تعتمد طريقته نفسها، مكتفية بأسلوبها التقليدي كما يحب الجمهور أن يراها... ولم يكن نجاحها فيه أقلّ أهمية. واصل عبد الوهاب مع فيلم «يحيا الحب» وتابعت أم كلثوم مع فيلم «دنانير». لم يفز أيّ من المتنافسين على الآخر. تعادلا في الأهداف وبقيا الشخصيتين المفضّلتين عند الجمهور. لكن لم يلبث أن انتزع منهما مركز الصدارة في السينما مطرب آخر ليصبح النجم المفضّل عند الجمهور. إنّه فريد الأطرش.







لاءم دور «الأمة» المغنية أم كلثوم تماماً حتى أنها لعبته تكراراً في عدة أفلام.



أنيقة، متقنة، حديثة، ناعمة وظريفة..

ممنوع الحب

يوم سعيد



... هذا ما تميّزت به أفلام محمد عبد الوهاب.





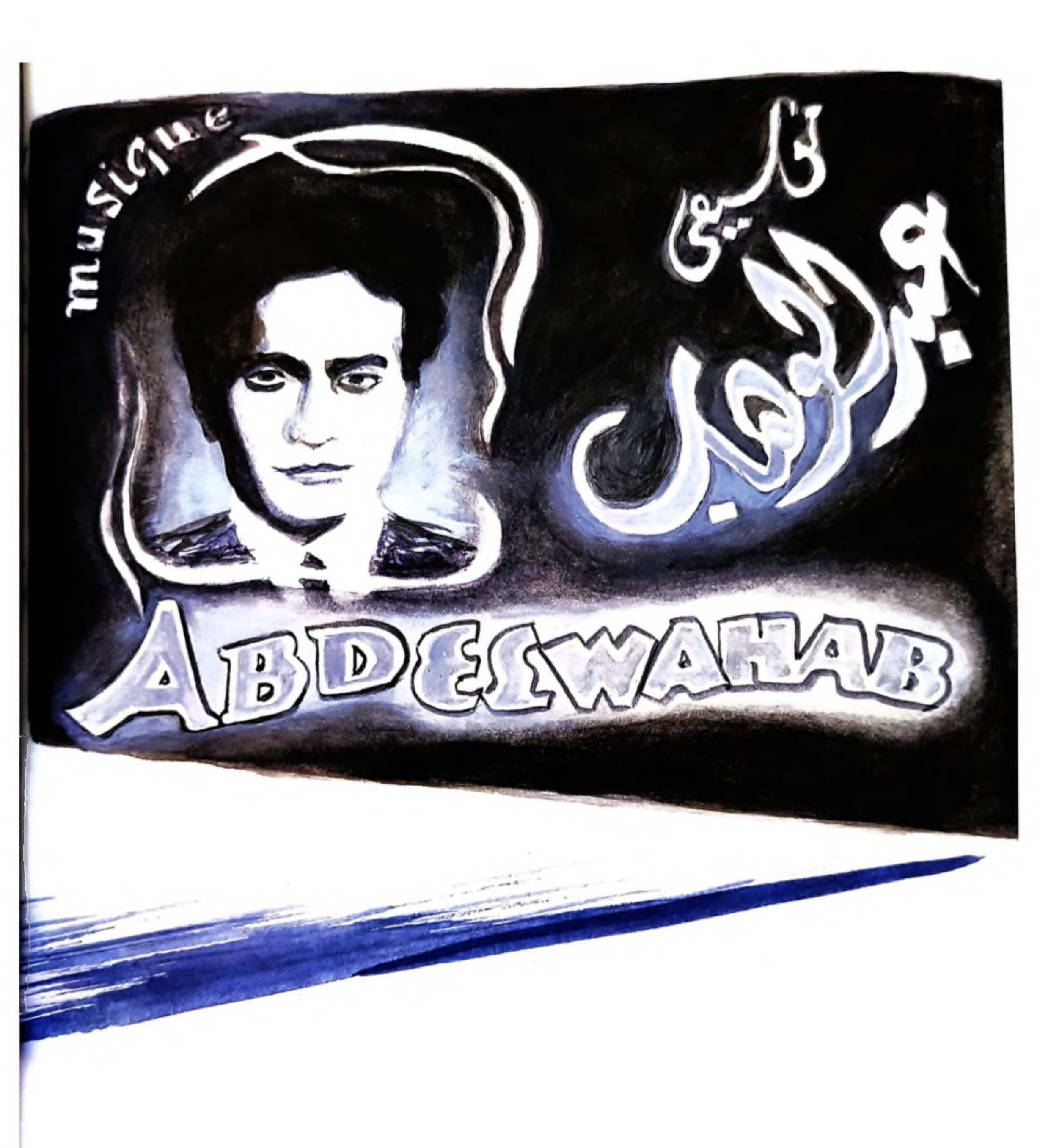


دموع الحب

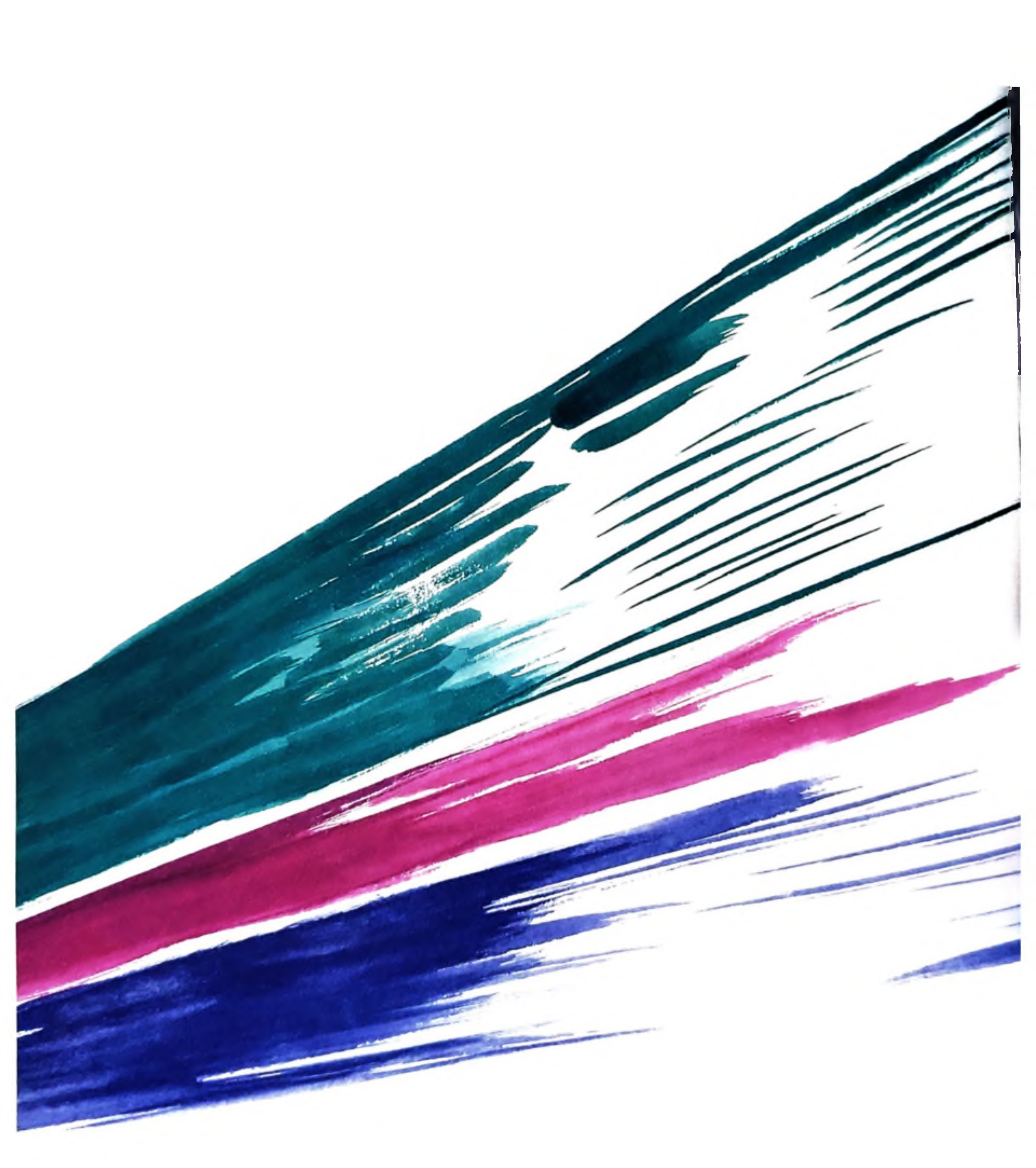
من القاهرة إلى بيروت لم تنجُ أي امرأة من سحره الآسر.



تقاطر الجمهور إلى الصالات لمشاهدة ثاني أفلام أم كلثوم، «نشيد الأمل».



كان عبد الوهاب كمنتج وملحن وممثل ومطرب
طاغي الحضور في شريط مقدمات أفلامه.



41

سمّتها كاميليا

بقي فريد حتى الآن مغنياً في الإذاعات الخاصة الصغيرة أو في الملاهي، وعازف عود منفرداً في الإذاعة المصرية، يحقق نجاحاً تلو الآخر. وقد بلغت أخباره الرائعة شقيقته أمال في سوريا.

إشتاقت إليه كثيراً، وإلى أمها والقاهرة وأصحابهم الموسيقيين. وأكثر فأكثر، لم تعد تتحمل الحياة في الجبل ولا في دمشق حيث تشعر بالاختناق. تمتلئ كآبة كلما سمعت أغنية لأم كلثوم من راديو يخشخش في سوق الحميدية. ويوم سمعت صوتها هي نفسها من فونوغراف أمام أحد الحوانيت اجتاحها الحنين، ولم تتمكن من مقاومة رغبتها في سؤال التاجر عن اسم المغنية، فأجابها: «أسمهان. يقال إنها من عندنا، لا أعرف إن كان ذلك صحيحاً. لكن للأسف، توقّفت عن الغناء. صوتها جميل كصوت أم كلثوم». فعلاً... للأسف! لم تبرأ من تلك المحادثة إلّا بعد أيام.

ثم حدث الأسوأ، إذ اكتشفت أنها حامل، فازدادت كآبة. لم تكن راغبة على الإطلاق في إنجاب طفل، ليس فوراً على الأقلّ! فهي تشعر أنّها صغيرة جدّاً وسريعة العطب. راحت تبحث عن طريقة للإجهاض، وفشلت في عدّة محاولات رعناء. ثمّ طلبت إلى حسن أن يسمح لها بالعودة إلى القاهرة لرؤية أمها، فلم يرفض طلبها وهو يراها تعيسة إلى هذا الحدّ. كانت فكرة واحدة تسيطر عليها، التخلّص من الجنين.

كانت لحظة اللقاء المنتظر عامرة بسعادة قصوى. وما بين الضحك والدموع عانقت عليا وفريد. تفادت التقاء الصحفيين كما وعدت حسن، وعندما سنحت لها الفرصة، ذهبت سرّاً لرؤية طبيب. رفض الدكتور تلبية طلبها وانتهى الأمر بولادة الطفلة في 14 تموز/يوليو. سمّتها كاميليا على اسم الممثلة غريتا غاربو في فيلم «رواية مارغريت غوتييه» الذي عُرض في الصالات في تلك السنة. أخيراً تحسّن وضعها في القاهرة مع طفلتها في جو عائلي حميم. ولم تعد لها أية رغبة في العودة إلى الجبل. ليس وقت سوريا الآن، ولا وقت حسن!



أبصرت الطفلة النور في 14 تموز/يوليو.

42

سهرة لا تُنسى في السويداء

لكنّ أسمهان اضطرّت بعد أسابيع إلى العودة إلى حسن بعد أن طالبها بالمجيء، وتركت كاميليا لعناية أمها.

راح حسن يُحيي السهرات إرضاء لأمال، فيتوافد المدعوون بلا انقطاع إلى احتفالات لا تُنسى بالنسبة إلى الكثير من الزوّار. وقد تسنّى لجدَّيّ، في إحدى زياراتهما إلى دمشق، أن ينزلا ضيفين في السويداء. ومع أن جدّتي متعودة على الاستقبالات الاجتماعية في بيروت، فقد فتنها هذا «المشهد السينمائي» الذي حضرته. في وسط صالون الفيلّا بار أميركي من خشب الماهوغاني تقدَّم عليه أصناف المشروبات، وسيدة المنزل حاسرة الوجه ترتدي فستاناً حريرياً أبيض بالغ الأناقة وفي شعرها زهرة قرمزية اللون، تتكلم الفرنسية بطلاقة، تدخّن وتضحك وتشرب مزيجاً من الشامبانيا والويسكي وسط ضباط فرنسيّين ببزّاتهم الرسمية. كان بين الحضور عالم آثار ألماني، وكاتب إيرلندي جاء لإجراء أبحاث عن اللايدي ستانهوب، وأمير روسي وعشيقه الشاب، وأميران شابّان من الأتراك الشركس قدما لشراء الجياد، وصاحب سفينة يوناني وصديقة من القدس وأحد نسباء ملك العراق ومهندسان بلجيكيان كانا في طريقهما إلى بغداد. لكن أكثر ما بهر جدتي في تلك الأمسية هو رؤيتها، في ذلك الصالون، ووسط هذا الحشد الكبير الجذلان، لشيوخ وأمراء وباشاوات من الدروز، بعماماتهم البيض ولحاهم المُرسَلة، ووجوههم التي ترتسم عليها سمات الإباء والجلال، مع علامات عدم الرضى على وجوه كبار السنّ منهم.

بعد أسابيع من هذه السهرة، عرفت جدّتي من صديقة لها في دمشق أنّ الأميرة عادت إلى القاهرة إلى غير رجعة.



كانت الأميرة أمال تدخّن وتضحك وتشرب مزيجاً من الشامبانيا والويسكي.

43

عودة إلى القاهرة، سهر الليالي، أكاذيب ورجعة إلى سوريا

كانت أسمهان قد التقت في دمشق الدكتور بيضا، صاحب شركة بيضافون، ويبدو أن هذا اللقاء زادها عزيمة. أرادت أن تعود إلى الغناء مهما كلّف الأمر. في غيابها, كانت صناعة الموسيقى وعالم السينما قد حققا تطوراً لافتاً مع نشوء الإذاعة الوطنية وقفزات السينما الغنائية المحلّقة. ما زالت أم كلثوم المطربة المفضلة لدى الجمهور، لكنّ مغنيات جديدات واعدات جداً دخلن السوق. وهؤلاء الوافدات لم يقلّدن أسلوب أم كلثوم في بداياتها بل اعتمدن المسار الحديث والرومنسي السائد يومها، على مشارف الأربعينات. شعرهنّ متموّج ويظهرن في أثواب متألقة وفساتين سهرة. وتشرّبت أسمهان كلّ ذلك بنهم. ففي سوريا، استمرّت تطّلع على آخر التسجيلات وتقتني أسطواناتها، لكن فاتها الأسلوب والطريقة، وبكلمة واحدة اللمسة، التي طبعت كل تلك المرحلة. وكما جدّدت خزانة ثيابها، غيّرت أسمهان أصدقاءها، فباتت تلتقي أناساً مسلّين لاهين وممتعين... من هؤلاء أمينة بارودي الجريئة التي ألهمت أسمهان بقدّها الضامر ونحواها وسُمرتها ولباقتها، وبقبعاتها وأثواب الفرو التي ترتديها. معاً، شكلتا الثنائي الأكثر جاذبية في مجالس ليالي القاهرة.

ذُهل فؤاد وهو يرى أمال تنغمس في هذه الحياة الجديدة، وقد بات سهر الليالي حتى الفجر والكذب دأبها اليومي. راح يلاحقها ويراقبها، حتى أنّه سجنها، لكن عبثاً. لقد نسيت كلياً أنها امرأة متزوجة! تتصرف مثل المراهقين المتمردين. والحقيقة أنه كان من حقها التمرّد، إذ ظلّ فؤاد هو من يقبض أجرها عندما تغني ولا يترك لها منه إلّا القليل. لا شيء تغيّر...

صارت تهرب وتنام في العراء على كثبان الرمل بالقرب من الأهرام، والله أعلم مع من! وعندما تعود تقع الشجارات ويدور الصفع. وفي إحدى الليالي، أنزلها فؤاد أمام أحد قصور مصر القديمة (هليوبوليس) حيث كان من المفترض أن تغنّي. وعندما عاد لاصطحابها في الساعة المحددة كانت كل الأضواء مطفأة. وأخبره كبير الخدم النوبي الذي فتح له البوابة أن الشابة التي حضرت في أول السهرة غادرت من الباب الخلفي بعد عشر دقائق من وصولها. ومن نافل القول أنه لم تكن سهرة في القصر ذاك المساء. فما كان من فؤاد إلّا أن كتب إلى حسن الذي قدم إلى القاهرة، وأرغم أمال على العودة معه إلى سوريا. إنتهت فترة الترفيه. وغرقت أمال في حالة من الكآبة العميقة.



معاً، شكلتا الثنائي الأكثر جاذبية في ليالي القاهرة،
والصورة أعلاه التقطت لهما بعد ظهر أحد الأيام على شرفة فندق ميناهاوس.

GROPPI

جروبي

Eden Palace







هال فؤاد أن يرى آمال تنغمس في هذه الحياة الجديدة.
وكلّما عادت من مشوار، كانت الشجارات تقع بينهما ويدور الصفع.

44

ملاهي بديعة

رحلت أسمهان لكنّ الأرض في القاهرة لم تتوقف عن الدوران، ولا توقفت عنه راقصات بديعة مصابني التي توصّلت عبر ابتكاراتها وتجديداتها إلى تغيير وجه الرقص الشرقي، محققةً بذلك ثورةً ونجاحاً لا لبس فيه. كان هذا النوع من الرقص يقوم على هزّ الخصر والجذع فقط فيما تبقى اليدان مسبلتين على طول الجسم والساقان جامدتين، ويمارَس ضمن مساحات ضيّقة في المنازل الخاصة أو المقاهي. أما على الخشبة الفسيحة في «صالة بديعة»، فكان من المفروض إيجاد شيء آخر، ولذلك جعلت بديعة كل راقصة عندها تدور حول نفسها وتحرك يديها في حركات متلوّية على مستوى الصدر ومتموّجة فوق الرأس. وأضافت إليها صوراً مقتبسة من رقص الباليه والفالس والتانغو. ونجحت تماماً في إدخال الوثبات الخفيفة والدوران السريع، والخطوات الزاحفة والرقص الدائريّ والدوران النابض من دون أن تشوّه الجانب الشرقي الأساسي في الرقصة المقرَّرة. وهي التي ابتكرت ثوب الرقص من قطعتين بشراشيب تذيّلها قِطَع نقدية، مستوحية إياه من ملابس جوقات البنات في الأفلام الهوليودية وفي ملاهي بيغال، وهو يكشف من الجسد أكثر مما كانت تكشفه الملابس التقليدية المعروفة حينذاك.

كانت «صالة بديعة» حلم كل فنان طامح إلى الظهور، ومن هؤلاء بيبا عز الدين، الراقصة اللبنانية الشابة التي بدأت عملها في بيروت ثم قدمت إلى القاهرة مُفلسة، واتصلت ببديعة التي أخذتها على عاتقها وجعلت منها واحدة من راقصاتها النجوم.

كانت عبقرية بديعة الكامنة في المزج بين العروض الموسيقية والمسرحية، وبين الفنانين الأوروبيين والفنانين العرب، سبّاقة في هذا المجال، واجتذبت الزبائن الغربيين كما النخبة المصرية. تكاثرت ملاهي بديعة نتيجة نجاحها. ففي العام 1928، افتتحت في الإسكندرية «ملهى صيفياً» على شاطئ البحر، سمّته «كازينو بديعة»، من دون أن تعني كلمة كازينو «صالة لعب»، بل ملهى مع حديقة أو شُرفة رديفة بعكس «الصالة» التي كانت ملهىً مغلقاً وحسب. وفي الحقيقة أن الكلمتين متقاطعتين بحسب بعض المعايير التي ظلّت غامضة. وفي مطلق الأحوال، لم يهتمّ الجمهور بدلالة الكلمات بل كان جلّ سعادته في الإسراع إلى هياكل الترفيه هذه. بعد الإسكندرية، استأجرت بديعة ملهى «فانتازيو» في الجيزة وحولته إلى كازينو صيفي جديد لها بعد أن جدّدته. وبات لها صالة صيفية دائمة، تعمل من شهر أيار/مايو إلى تشرين الأول/أكتوبر، الفترة التي تسلّم خلالها «صالتها» في شارع عماد الدين إلى ابن شقيقها أنطوان الذي تزوّج جوليات، ابنتها بالتبني. لم يراودها أي شكّ في أن ذلك سيُسبّب لها لاحقاً أسوأ المتاعب.


صالة بديعة
آخر موضة
كازينو وكباريه بديعة
فرقة بديعة مصابني
SALA BADIA

45

تحية كاريوكا

فرّت مراهقة في الثانية عشرة من عمرها من منزلها في الإسماعيلية هرباً من والدها وإخوتها الذين كانوا يقيّدونها لمنعها من الرقص، ومن خالتها زوجة والدها التي كانت تضربها، ومن ابنة خالتها التي كانت تعذّبها. إنها تحية محمد التي حفظت طوال حياتها الجميل لابن أخيها ذي السبع سنوات الذي فك السلاسل التي كانت تُقيّد ساقيها ويديها. باختصار، ركضت تلك الفتاة من دون أن تلتفت إلى الخلف مسافة كيلومترات قبل أن تقفز سراً إلى قطار غادر الإسماعيلية ووصل بها إلى القاهرة. هناك، عملت لبعض الوقت في «صالة» تملكها إحدى اللبنانيات في حيّ الأزبكية. وعندما قرّرت صاحبة الصالة أن تتقاعد وتعود إلى لبنان، «أهدت» قبل رحيلها تحية إلى بديعة مصابني بعدما علمت أنّ هذه الأخيرة استعلمت عن الراقصة الصبية قبل أشهر. وبعناية بديعة برزت الفنانة الأكثر أسطورية في الرقص الشرقي، وقد أطلق عليها اسم رقصة أجنبية كانت تؤديها بإتقان ولا ينى الجمهور يطالبها بها، وهي فرع من رقصة السامبا البرازيلية راجت بعد فيلم فريد أستير وجنجر روجرز، وتسمّى الكاريوكا. تشاطرت هاتان الراقصتان لقب أهمّ راقصة شرقية على الإطلاق: تحية كاريوكا الخارقة وسامية جمال الشهيرة التي كانت بديعة أيضاً مَن اكتشفتها لاحقاً.

أمّا تحية كاريوكا بظرفها وحسنها وشخصيتها النارية وبرقصها البطيء والحسّي الذي ميّزها عن منافساتها كثيرات الحراك غالباً، فقد أصبحت راقصة استثنائية. وعلى أثر دروس بديعة، راحت تحية تغري الجمهور بعروضها الراقصة التي جمعت فيها ما بين الرقص التقليدي والمؤثّرات الأجنبية ودوماً برشاقة مثلى. لم يقصّر معجبو تحية في امتداحها، واللغة العربية غنية بالتفخيم، فبلغت شهرتها درجة جعلتها تُدعى إلى الاحتفالات التي واكبت زفاف الملك فاروق، حيث رقصت بجانب أم كلثوم وهي تغني. وسرعان ما انهالت عليها الاتصالات من استوديوهات السينما. فمنذ فيلم عزيزة أمير «ليلى»، باتت كل الأفلام المصرية تشمل وصلة من الرقص الشرقي تُلحق بالحبكة بشكل ما. ومع أن تحية لم تتعاقد في بداياتها إلّا للظهور في هذه المشاهد الراقصة، إلّا أنها سرعان ما أصبحت إحدى أهمّ نجوم السينما المصرية بعد أن فرضت موهبتها الأكيدة في التمثيل.



أطلق عليها اسم رقصة أجنبية كانت تؤديها ببراعة، الكاريوكا.



في عرس الملك فاروق رقصت تحية كاريوكا وغنّت أم كلثوم.



46

حرب الملاهي

ظلت تحية كاريوكا، قبل شهرتها السينمائية، ترقص عند بديعة مصابني، قبل أن تواجه هذه الأخيرة متاعب جمّة. فإثر عودتها من إحدى فترات إقامتها في الإسكندرية، اكتشفت أن أنطوان الغارق في الديون قد باع «الصالة» في شارع عماد الدين لعشيقته بيبا! شكّلت هذه الخيانة المزدوجة من ابن شقيقها ومحميتها ضربةً قاسية لها. إذ لم تكتفِ بيبا بالاستيلاء على الملهى الذي يشهد أكبر إقبال في القاهرة، بل صرفت كل العاملين فيه، ومن ضمنهم تحية، وأوقفت حراساً شرسين على مدخل الصالة ليمنعوا بديعة من دخولها. حاولت بديعة، في حالة الإفلاس والانهيار هذه، أن تنتحر لكنها عادت وتغلبت على الأمر بقوة شخصيتها، مكرّرة على نفسها أن اجتيازها طريق دمشق بيروت حافية قبل خمس عشرة سنة كان أصعب من ذلك بكثير، وأنّ عليها أن تستعيد رباطة جأشها. فاستأجرت مسرح «برانتانيا» لمدة سنة لتجمع بعض الثروة، وفي السنة التالية فاجأت جمهور القاهرة بضربة موفّقة إذ عادت واستأجرت ملهى «الماجستيك» المميّز في شارع عماد الدين الملاصق لصالتها السابقة، فاحتدمت إذّاك حرب الملاهي. جدّدت كلياً ديكور هذه الصالة الواسعة، ووعدت في حملة دعائية في الصحافة أنها ستكون مذهلة. وقبل أسبوع من افتتاح «كازينو وكباريه بديعة» غيّرت بيبا على وجه السرعة اسم الصالة التي ما زال اسمها «صالة بديعة» وأطلقت عليها اسماً خاصاً بها هو «صالة بيبا». وقد عادت تحية كاريوكا التي كانت في جولة في دول المشرق من بيروت (**بالطائرة!**) لكي ترقص عند بديعة ليلة الافتتاح. حققت تلك السهرة الافتتاحية نجاحاً باهراً دام بعدها عشر سنوات. وقد عوّضت بديعة عن خسائرها، واجتذب «الكازينو» الخاص بها زبائن من الشخصيات والضباط بينما لم يكن يدخل عند بيبا، في الباب المجاور، سوى السكارى السوقيين والمشاغبين.





إحتدمت حرب الملاهي بين بديعة وبيبا عبر الإعلانات في الصحف.

47

«ليلى بنت الصحراء» ورقابة القصر

بعد سنة من زفاف الملك فاروق، جرى الاحتفال بزفاف آخر في قصر عابدين. إنه زواج ملكي جاءت نتائجه كارثية على فيلم «ليلى بنت الصحراء» الذي حصل على جائزة في مهرجان البندقية لكن السلطات المصرية منعت عرضه مدمرة بذلك المرأة التي أنتجته وأخرجته ومثّلته.

بهيجة حافظ هي ابنة باشا تعلّمت في مدرسة البنات في الإسكندرية ثمّ في باريس حيث درست الموسيقى. حين عادت إلى مصر، راحت تؤلف موسيقى الأفلام الصامتة وأنشأت صالوناً موسيقياً. وفي إحدى السهرات لفتت نظر محمد كريم الذي كان يفتّش عن ممثلة لفيلمه التالي، فعرض عليها دوراً وافقت على أدائه، إذ كانت مصابة بلوثة السينما. «لم تكن الاستوديوهات متوفرة بعد، وكنا نصور في ديكور مرتجل في الأماكن الخارجية، في مكان قريب من قرية إمبابة. وعندما كان محمد كريم يضع موسيقى مرافقة للتأثير على أداء الممثلين، كان كل الفلاحين الموظفين كممثلين مكمّلين يتركون مواقعهم ويبدأون بالرقص!»

إندفعت بهيجة في عالم السينما بكل جوارحها، فأنتجت وأخرجت ومثّلت وكتبت ونفّذت المونتاج بنفسها، وهو عمل استهواها على نحوٍ خاص. حقّق فيلماها «الضحايا» و«الاتهام» نجاحاً كبيراً. وكان مقدراً لفيلمها «ليلى بنت الصحراء» أن يحقّق نجاحاً باهراً. فقد استثمرت بهيجة حافظ كل ما تملك في هذا الفيلم الذي تطلّب عملاً جبّاراً وأعمال تصوير طويلة جداً وأزياء ملائمة لزمن الفيلم القديم. تجري أحداث الفيلم في القرن الخامس في الجزيرة العربية. وفيه ليلى، الشاعرة، التي يخطفها ملك الفرس ويعرض عليها الزواج لكنها ترفض عروض هذا الجلاد رفضاً قاطعاً... قوبل الفيلم بعد عرضه الأول بالثناء الكبير. لكن ها هو يحظّر بأمر من القصر. ولماذا؟ لأن الأميرة الحسناء فوزية، شقيقة الملك فاروق، كانت على وشك الزواج بمحمد رضا بهلوي نجل شاه إيران وولي العهد. ولأن قصة الفيلم تتناول النزاع بين العرب والفرس، رأى القصر أنّ إيران قد تستاء منه...

ولكن سرعان ما صُدمت الأميرة فوزية. فالحياة في طهران، وحتى في بلاط الشاه، مملّة وريفية بالقياس إلى بهرجة القاهرة. حتى إنهم لا يتكلمون الفرنسية هناك! هكذا انتابها الحنين بعد سنوات، فقصدت القاهرة لقضاء عطلة لم تعد منها قطّ، وتمّ على إثرها الطلاق. عندها فقط سُمح لفيلم «ليلى بنت الصحراء» أن يُعرَض في الصالات.

بهيجة حافظ
ليلى
بنت الصحراء
LAÏLA
FILLE DU DESERT


الأميرة فوزية
الأمير محمد شاه

48

مأساة في الـ«أوريانت بالاس»

كان مقام حسن المهمّ في الجبل يمنع أبناء عشيرته من لومه وتحميله تبعات سلوك الأميرة. ولم يكن أي درزي جاهلاً بطيش أسمهان في القاهرة وبمظهرها السيّئ بين الناس، لكنهم لاذوا بالصمت معتمدين على حسن كي يعاقب زوجته بنفسه ويعيدها إلى طريق الصواب.

حين أعيدت أمال إلى سوريا، غرقت في حالة من اليأس الشديد، وبدأت تقوم بتصرّفات خطيرة على حياتها. ففي إحدى نزهاتها على الجواد، وتحت أنظار مرافقيها المرتعبة، أرخت العنان لمطيتها بشكل جنوني على شفا هاوية كأنها تتعمد سقطة قاتلة. لكنها لم تسقط... وانهمك حسن أكثر فأكثر في انشغالات الحكم والوضع السياسي. ولمّا أقلقه وضع أمال، أرسلها لتقضي بضعة أيام في دمشق، في فندق الأوريانت بالاس، على أمل أن تتخلى عن أفكارها. وعندما عُثر عليها في منتصف الليل على الأرض، وسط الغرفة غائبة عن الوعي وشاحبة اللون وبيدها عبوة حبوب منومة فارغة، كانت على وشك أن تفارق الحياة... «أنقذتها العناية الإلهيّة!»، فقد نجت، لكن كان من الممكن أن تكرّر المحاولة في أي لحظة. هرع إليها حسن مذعوراً. ثم، وكأنما في الوقت المناسب، استلم برقية من القاهرة تبلغه أن عليا مريضة، فسمح لأمال أن تعود إليها لكي تعتني بأمها لبضعة أيام.

لم يخطر لحسن أنه عندما سيرى أسمهان من جديد، ستكون قد أصبحت بطلة فيلم «انتصار الشباب» المحتفى بها.







49

يوم التقيتُ أسمهان

بعد عودتها مجدداً إلى القاهرة تسارعت الأمور، وغرقت أسمهان في دوّامة من الأغاني والعشاق والفضائح والمآسي لم تتوقف حتى يوم مماتها بعد عدّة سنوات.

إنتشر خبر عودتها بسرعة، فأراد القصبجي أن يسجّل لها عدة أغانٍ. واقترح عبد الوهاب أن تشاركه في غناء ثنائي بمشهد من أوبريت مقتطفة من مسرحية «مجنون ليلى» لأحمد شوقي، سيُقدّم كوصلة في فيلمه التالي. ومَن يَقُل غناءً ثنائياً في مشهد سينمائي مع عبد الوهاب يعنِ بداية المجد! ولكنّ أسمهان اضطرت للأسف أن ترفُض تحت ضغوط العائلة. وفي حالة من القهر الشديد، اكتفت بتسجيل صوتها للممثلة الرئيسية من دون أن تظهر على الشاشة.

في تلك الفترة تقريباً، التقت محمد التابعي ولم تكن تعلم أنه سبق أن رآها تغني في صالة ماري منصور قبل سنوات. لفت نظرها في صالة الأوبرا. طويل القامة ممشوق القدّ، بالغ الأناقة، ولا يعتمر طربوشاً. استعلمت عنه فقيل لها إنه الصحافي الأكثر نفوذاً في القاهرة. أصدر مع روز جريدة «روز اليوسف» وهو مؤسس جريدتَي «آخر ساعة» و«المصري» ورئيس تحريرهما. وتكفي قصاصة ورق منه لتُسقط وزيراً أو تكرّس شاعراً. هو أيضاً رآها وسأل عمّن تكون تلك المرأة الشابة شديدة الجاذبية، إذ لم يتعرّف فيها إلى الصبية المحجّبة التي شاهدها على المسرح قبل سنوات. لكنّ الأمور توقفت عند ذلك الحد في تلك الأمسية. أما بعدها، فلم تعد تستأثر بها سوى فكرة واحدة، هي الالتقاء به.

تمّ اللقاء عند عبد الوهاب. كانت أسمهان تتمرن معه على أوبريت مجنون ليلى، حين أدخل النوبي الشاب التابعي إلى الصالون حيث انتظر قليلاً بعيداً عنهما. كانت تغنّي فأسره صوتها وحرّك وجدانه حتى الاضطراب. عندما انتهت الأغنية، عرّف عبد الوهاب أحدهما إلى الآخر. يروي التابعي ما حفظه من تلك الذكرى قائلاً: «مدّت أسمهان يدها وقالت «تشرّفنا» بوجه مقطب، ولم تلبث أن تحوّلت تماماً، فالمطربة التي كانت منذ دقائق تغني بروحها، وتعبّر عن أعمق الانفعالات من قلبها برقة فريدة وصوت بالغ التأثير، تحوّلت فجأة إلى سيدة من سيدات النوادي الليلية، أو على الأقل إلى الصورة التي تكوّنها عن سيدة النوادي الليلية. ثم سحبت يدها التي وضعت فيها خاتم ألماس كان في الحقيقة من الزجاج».



مدّت اسمهان يدها وقالت «تشرّفنا» بوجه مقطب،
وفي أحد أصابعها خاتم ألماس كان في الحقيقة من زجاج.

50

على رصيف مرفأ الإسكندرية

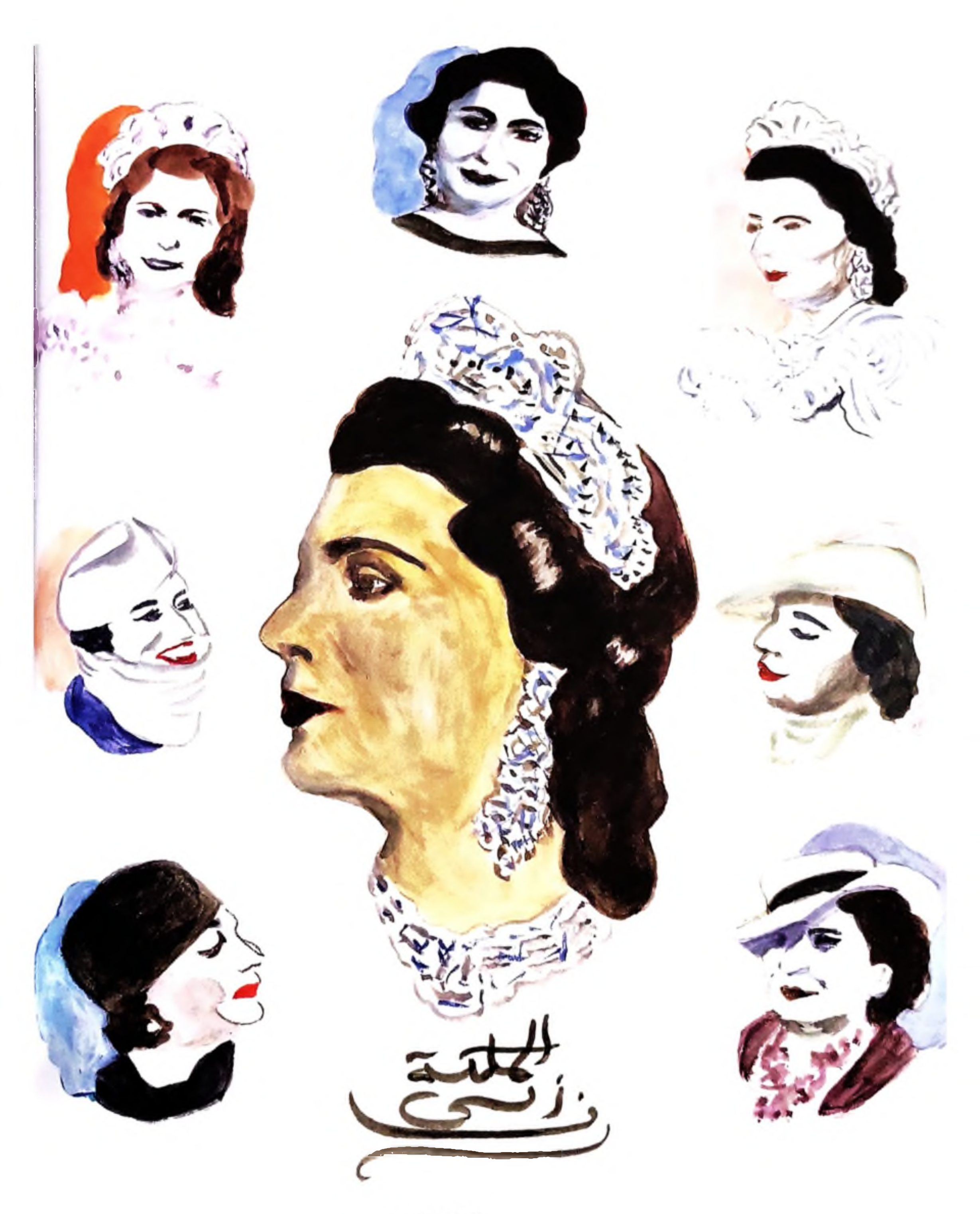
أصرّت أن يدعوها أمال وايس أسمهان. أمّا هو فقد انجذب إليها بشكل لا يقاوم، وخشيها في الوقت نفسه. فقد صدمته بعدم تحفّظها وبمجونها. أسرته بجاذبيتها وذكائها لكنه خاف، أن يكتوي بهذه المشاعر. وما بين الاستياء والانجذاب، راح يشاهد متألماً سلوكها الفاضح والمدمّر. فهي تُعاقر الخمر كالرجال وتدخّن وتنفق بلا حساب مبالغ خيالية وتسهر حتى الفجر.

أرعبته حقاً يوم حضرت إلى رصيف مرفأ الإسكندرية حاملة حقيبتها، ومعلنة استعدادها لأن تركب معه السفينة نفسها المبحرة إلى أوروبا. وقد بذل جهداً جباراً يومئذ ليثنيها عن قرارها. قال لها إنها مجنونة وإن هذا مستحيل. فماذا سيقول المسافرون الذين يعرفونه أو يعرفونها؟ هي متزوجة! ماذا عن سمعتها؟ وعائلتها؟ هي تستخفّ بالأعراف أما هو فلا. وأبحرت السفينة مبتعدة تاركة إياها على الرصيف ذليلة مهانة أيّما إهانة. هي التي كانت مستعدة للتغلب على رُهابها من البحر من أجل مغامرة رومانسية! يا للصفعة... ثم توالى العشّاق، فليس كلّ رجلٍ صعب المراس مثل التابعي!

لكنّ علاقتها بأحمد محمد حسنين هي التي سبّبت لها أسوأ المتاعب، ولفترة طويلة. لعلّ حسنين باشا، ذا الأصل التركي الشركسي، كان الرجل الأكثر نفوذاً في مصر بعد وفاة الملك فؤاد. درس الحقوق في أكسفورد ثمّ تفرّغ لاستكشاف السودان والصحراء الليبية، وهو أول رجل اجتاز هذه الصحراء وحقّق فيها اكتشافات أثرية بالغة الأهمية ومنها الواحات القصيّة الشهيرة. احتُفي به كمنقّب عن الآثار، كما تولّى وظيفة دبلوماسية في واشنطن ولندن قبل أن يستدعيه الملك فؤاد ويعيّنه مستشاراً شخصياً له، وكبير موظّفي البلاط ورئيساً للديوان الملكي. وكان، بالإضافة إلى أنّه مثقف بامتياز ومدني الطبع وغربي المظهر، بطلاً في المبارزة بالسيف وطيّاراً. وقد عيّنه الملك فؤاد قبيل وفاته وصياً على الأمير فاروق الفتيّ، والذي تابع حسنين تثقيفه حتى بعد اعتلائه العرش. لكنه، قبل كل ذلك، كان عشيق الملكة نازلي والدة الملك، فكان من شأن مغامرته مع أسمهان أن فجّرت ضدّها كراهية مؤذية من الملكة الغيورة.



أبحرت السفينة مبتعدة تاركةً إياها على الرصيف في منتهى الذلّ.



الملكة نازلي والدة الملك فاروق...



... وعشيقها أحمد محمد حسنين باشا، كبير حجّاب البلاط ورئيس الديوان الملكيّ.

51

ليس كل ما يأتي من دمشق وَرْداً

إنتشرت الأخبار سريعاً، وحذّرها أصدقاؤها. «أسمهان، عليك ان توقفي هذه المغامرة»، «أنتِ تدسّين رأسك في وكر دبابير»، «هذا أخطر مما تتصوّرين». نقلت إليها أمينة بارودي صورة عن نوبة غضب هستيرية للملكة نازلي شهدها نسيب لها يعمل في القصر. كانت الملكة تحتسي الشاي مع إحدى صديقاتها، وهي تتلذّذ بأكل قطعة حلوى من ورد الشام، فهمست لها صديقتها: «ليس كل ما يأتي من بلاد الشام ورداً». ولم تفهم الملكة ما وراء هذه الملاحظة الملغومة. لكنّ الصديقة، التي اضطرّت إلى توضيح ما تعني، فضحت العلاقة التي لم تعد خافية على أحد بين حسنين وأسمهان. رأت أمينة أنّ الملكة قادرة على أيّ شيء فتوسّلت إلى صديقتها لكي تضع حدّاً لمغامرتها. كما حذّرها من ذلك أيضاً التابعي الغيور والقلِق في آنٍ معاً.

في حياة الملك فؤاد، عاشت نازلي، زوجته الثانية التي تصغره بخمس وعشرين سنة، في شبه عزلة في قصر القبة. في بداية الزواج ظلت حبيسة الحرملك، إلى أن أنجبت الوريث الذكر للتاج، فاروق، فسُمح لها بأن تخرج من قسم الحريم وتتجوّل في سائر أقسام القصر. في ما بعد، اقتصر خروجها من القصر على زيارة معارض الزهور أو المشاركة في بعض الأعمال الخيرية وسط نساء فقط. أما شجاراتها مع الملك فغالباً ما كانت تنتهي بصفعات أبقتها في كل مرة أسابيعَ خائرة القوى في غرفتها، وحملتها على القيام بعدة محاولات انتحار. لكنّ ذلك لم يمنعها من منح الملك أربعة أولاد آخرين، أربع بنات، فايزة وفوزية وفايقة وفتحية، كلهنّ بحرف الفاء مثل فاروق، وذلك تيمناً باسم والدة الملك الراحلة فريال. هكذا، عندما توفّي الملك فؤاد، كانت نازلي شابة وجميلة، وشديدة التعطّش إلى الحرية. فروت غليلها من دون وازع بالكثير من المغامرات العاطفية والجسدية بعد اعتلاء فاروق العرش. ولطالما شوهِدَت في البارات والنوادي الليلية ومطاعم القاهرة تعيش بكل انشراح حياة ليلية دنيوية. لم يكن الملك فاروق يرفض لأمه الحبيبة طلباً. وكما اعتُبرت من أجمل النساء وأكثرهنّ أناقة في العالم، كانت أيضاً إحدى النساء اللواتي يمتلكن أفخم المجوهرات. وها هي تحظى بعشيق هو الأكثر هيبة ونفوذاً في مصر. لن تسمح أبداً بأن تقف في دربها مغنّية سورية صغيرة.



نقلت إليها أمينة بارودي صورة عن نوبة غضب هستيرية للملكة نازلي.

52

في سماء الشهرة

كلّ ذلك أمتع أسمهان وحمّسها، وكم هالّت للصدى الذي ولّده نجاحها الأخير! فقد أعطاها الموسيقار رياض السنباطي أغنية كتبها في الأصل لأم كلثوم التي بدأ يلحن لها منذ أشهر! «صوتها رائع» عبارة باتت على كل لسان. وكتبت الصحافة أن لأسمهان موهبة وصوتاً يفوقان ما عند سائر المطربات باستثناء أم كلثوم.

غنّت للقصبجي «يا طيور» وهي أغنية تتطلب تنغيمات صوتية معقدة كان الملحن قد كتبها لأم كلثوم التي لم تتمكن من غنائها! فلاقت نجاحاً باهراً حتى سرى همس بأن عرش أم كلثوم بات مهدّداً. دفع القصبجي أسمهان إلى التفوق على ذاتها إذ لحّن لها ثلاث أغنيات ارتقت بها إلى أعلى الدرجات. ومعها أطلق العنان لنزعته التحديثية فكتب لها ألحاناً كان ذوق أم كلثوم الكلاسيكي يمنعه من كتابتها لها. لكنّ حماسه لمحميّته الصبية كلّفه غالياً، وغالياً جداً. فلا أحد يخاطر بأن يُغضب أم كلثوم. وبالنسبة إلى القصبجي، شكّل فقدان رضى أم كلثوم مأساة حياته، إذ وجد نفسه، وهو أحد كبار ملحّني عصره، محروماً من التلحين بعد وفاة أسمهان، حتى لأم كلثوم نفسها.

ثمّ كتب لها مدحت عاصم أغنية «يا حبيبي تعال الحقني». إنّه المجد. ذروة التألّق، حتى قيل في النهاية إنها بمرونة صوتها وتحكّمها بالأنغام واتساع صوتها تتفوّق على أم كلثوم! ولم يفت أحداً أنها بطبيعة الحال أكثر فتوة وجمالاً منها.

وأخيراً جاء دور السينما! سوف تمثل هي وفريد ويُغنّيان في أحد الأفلام. كان التصوير وشيكاً. سوف يكتب فريد الأغاني. أما المُخرج فهو أحمد بدرخان الذي صوّر آخر فيلمين لأم كلثوم التي استولت عليها حالة من السخط الشديد عند إعلان الخبر لدرجة أن القاهرة كلها اهتزّت.



سرى همس بأنّ عرش أم كلثوم بات مهدّداً،
وهلّلت أسمهان للصدى الذي ولّده نجاحها الأخير.



أسمهان وفريد في إحدى سهرات القاهرة.



لكن لم يكن ثمة ما يدعو أم كلثوم للقلق. فهي صلبة ولأسمهان نقاط ضعفها. أسمهان ترتعب أمام الجمهور... ترفض الغناء في الحفلات العامة مكتفية بالراديو والأسطوانات والسهرات الخاصة. يخيفها الجمهور الهائج، لا تريده... ثمّ إن هناك تفصيلاً يقلب كلّ الموازين: لا يقتصر اهتمام أسمهان على الغناء والمجد، بل يشمل الحياة التي تلتهمها التهاماً.

وهناك أخيراً العائلة... والعائلة لم تعد ضمن اهتمامات أسمهان. حتى إنها لم تعد تريد أن تسمع بها. لقد قررت العيش وحدها.

أسمهان ومحمد التابعي وفريد الأطرش في ملهى «الطاووس الأزرق».



صورة لأسمهان وفريد مع منتجي الفيلم ومخرجه
أحمد بدرخان (في الصف الأعلى إلى اليسار) قبل بداية التصوير.



تمرين على إحدى أغاني فيلم «انتصار الشباب».

53

خمس دقائق في بهو «ميناهاوس»

ذاعت شهرة أسمهان لدرجة أنه لم يعد أحد في سوريا يجهل أنها الملكة الجديدة لليالي القاهرة.

بات الوضع في نظر حسن لا يحتمل ويتخطّى حدود التساهل. فقرّر أن يعيدها إلى دمشق بشكل نهائيّ. سافر إلى القاهرة ليكتشف أن أسمهان لم تعد تسكن مع عائلتها، بل قررت أن تقيم في فندق تاركة ابنتها لأمها. صبّ جام غضبه على فريد وحمّله جزءاً من المسؤولية عن تعلّق أخته بالموسيقى والسينما. «آل الأطرش عائلة شهداء ومناضلين! يعتزون بشرفهم وإبائهم! وليسوا عائلة مهرّجين همُّهم أحذيتهم اللمّاعة وتسريحات شعرهم! سامحك الله يا فريد على ما فعلت! قل لي الآن في أي فندق تُقيم». ثم قصد فندق ميناهاوس في الجيزة، فوجد أمال في الردهة تدخن وتضحك مع بعض الأصدقاء. ارتجفت عندما رأته وأطفأت سيجارتها مضطربة. ثم نهضت وذهبت لمقابلته. لم يدم اللقاء سوى لحظة وجيزة تحت أنظار رواد الفندق والموظفين المصدومين. وصادف يومها أن كان جدّي، الذي يزور القاهرة في رحلة عمل، واقفاً على شرفة فندق ميناهاوس. وحين شاهدهما، همّ بالنهوض والتوجّه نحوهما ليلقي التحية على حسن الأطرش لكنّ صديقه سليم، الأكثر تبصّراً منه، أمسكه عن ذلك قائلا له: «إنتظر. لا يبدو لي أنها لحظة مناسبة لذلك...». وقفت أسمهان في عين الشمس وأفهمت حسن أنها لن تعود إلى الجبل وأن حياتها هنا، في القاهرة، وسط الفنانين، وأنها خلقت للموسيقى والفنّ والإبداع. لن تتراجع عن تمثيل الفيلم، وعلى كلّ حال، فات الأوان. فقد بدأ التصوير. سألها حسن إن كانت تريد الطلاق فردّت منكسرة بالإيجاب. عندئذ أطلق العبارة المعهودة: «أنتِ طالق»، مانحاً إيّاها بذلك الحريّة التي أرادتها. ولم يلبث أن غادر الفندق كئيباً من دون أن يضيف كلمة، بينما عادت هي إلى أصدقائها وعيناها مغرورقتان بالدموع.



لم يدم اللقاء سوى لحظة وجيزة تحت أنظار رواد الفندق والموظفين المصدومين.

54

إنتصار الشباب

إنّ ما جعل عليا وفؤاد يسمحان لأسمهان بالظهور على الشاشة هو طمعهما بأكثر من نصف الأجر الذي وُعدا بالحصول عليه. كما كانا يعرفان أنّ أجر أسمهان في السهرات الخاصّة سيرتفع من 50 إلى 150 جنيهاً إذا مثّلت في أحد الأفلام! وبالإضافة إلى هذه الاعتبارات النفعية، ثمّة تفصيل حاسم: فقد أسقط طلاقُها من حسن المعَوِّق الفعلي للعمل في السينما. لن يندما على قرارهما. فالفيلم سوف يحقّق دخلاً طائلاً سيحصلان منه على حصة كبيرة.

وأخيراً تعرّف الجمهور على وجهي أسمهان وفريد الأطرش. حقّق فيلم «انتصار الشباب» نجاحاً باهراً.

أحبّ الجمهور كثيراً أغاني فريد التي غنّتها أسمهان، وقد تراوحت بين الطرب المصري الأصيل وخصائص الأوبريت الغربية جداً، مروراً بالمواويل السورية اللبنانية ليغطي الفيلم تشكيلة واسعة من الأنماط الموسيقية. وقد لعب الأخ والأخت فيه دورين قريبين من حياتهما. فبطلا الفيلم الشابان هما مهاجران قدما مثلهما من بلاد الشام. وكانا طامحين إلى الغناء، فاضطرا إلى الكفاح من أجل فرض نفسيهما في مجتمع معادٍ لهما. يكمن سحر الفيلم في أنه يطرح مسألة الشعور المتناقض بين الحب والكراهية التي يكنّها العالم العربي لعالم التمثيل. وقد استعيد هذا الموضوع لاحقاً في الكثير من الأعمال التمثيلية الموسيقية. في الفيلم مجموعة من العناصر التي تعكس الواقع، وهذا ما أمتع الجمهور. «وحيد» هو اسم الشخصية التي مثلها «فريد» (بما في الاسمين من تقارب في المعنى)، وقد حمل الاسم نفسه في عدة أفلام مثلها فيما بعد. أما شخصية بطلة الفيلم الشابة التي مثلتها أسمهان فاسمها «ناديا»، وهي مغنية في أحد النوادي الليلية «لا تجالس الزبائن»، بالضبط مثل أسمهان عندما كانت تغني عند ماري منصور.

في إحدى صالات السينما في دمشق أطلق شبان دروز النار على الشاشة لدى ظهور أسمهان.

نادیا وشقیقها وحید، شابان فقیران مهاجران من بلاد الشام یصلان إلی الإسکندریة.







في القاهرة، بفضل صوتيهما الجميلين وموهبتهما العظيمة ونزاهتهما...







... عرفا النجاح في عروض العمل والحبّ في المجتمع الرفيع.



سحرت أغاني فيلم «انتصار الشباب» القلوب في العالم العربيّ.



في إحدى صالات السينما في دمشق،
أطلق شبان دروز النار على الشاشة لدى ظهور أسمهان.

55

مذكّرة إبعاد!

كانت أسمهان، على الرغم من كل النجاح الذي حظيت به، متأثرة بطلاقها الحديث. لكنّ ذلك لم يمنعها من إقامة علاقة مع أحمد بدرخان منذ بداية تصوير فيلم «انتصار الشباب». كان بدرخان رجلاً ذكياً، وحساساً، وشريفاً، وجدّياً، وموهوباً. وقد دعمها وروّح عنها ودلّلها على منصّة التمثيل. وفي النهاية، طلبها للزواج، فوافقت. وراجت بعض الأحاديث الخبيثة عن أنها فعلت ذلك لتفلت من مذكّرة الإبعاد من مصر التي أصدرتها وزارة الداخلية بحقّها قبل فترة قصيرة!

تلك قصة جنونية أغرقت أسمهان في حالة من الإحباط الشديد. وعندما تلقّت استدعاء من الأمن العام، لم تشك في ما كان ينتظرها. فقد أبلغها الموظّف الذي استقبلها بقرار إبعادها من مصر. إبعاد في مهلة ثمانية أيام بحسب الإجراءات العادية، إبعاد في مهلة ثمانية أيام إلى سوريا التي هي من رعاياها. إبعاد في غضون ثمانية أيام صادر من أعلى السلطات. أدركت أسمهان فوراً لمَن تدين بهذا العطف. إنها الملكة نازلي طبعاً. تابع الموظّف بالازدراء نفسه أنها مواطنة سورية تحمل جواز سفر من الدولة المنتدبة، وأنّ الجواز الفرنسي من دون تأشيرة دخول لا يجيز لها البقاء على الأراضي المصرية. كان الحصول على الجنسية المصرية الطريقة الوحيدة لكي تتفادى طردها من مصر... حاولت أسمهان أن تدافع عن نفسها، فالسوريون لا يُحصون في القاهرة، من مثقّفين إلى فنانين ورجال أعمال ومقاولين وصناعيين، وهم لا يواجهون أي مشكلة في البقاء! هي أمضت كل طفولتها هنا، حتى أنهم في سوريا يأخذون عليها تحدثها باللهجة المصرية! لكن الموظّف الكبير لم يتأثر بهذا النوع من الحجج وأكّد لها متهكّماً أنّ هناك ثلاث وسائل للحصول على الجنسية المصرية، وقد فات الأوان على الولادة والتجنيس، فلم يبق لها إلّا الزواج. غادرت أسمهان مركز الأمن العام محطمة. سألت حسنين أن يساعدها لكنه لم يتحرك، فهو متمسك بالملكة التي سيتزوجها سرّاً بعد ذلك بعدة سنوات. بذل التابعي كل ما أمكنه محاولاً المستحيل لكن الأمر كان صادراً من أعلى السلطات.

لم تشأ أسمهان بتاتاً أن تغادر القاهرة! قبل ثلاثة أيام من إبعادها، عقدت قرانها على بدرخان عند شيخ من علماء الأزهر.


الامن العام
SURETE GENERALE



Egyptian Passport
٤٧
جواز سفر
PASSEPORT
HAUT COMMISSARIAT
DE LA
REPUBLIQUE FRANÇAISE
MANDATAIRE
EN SYRIE ET AU LIBAN

56

اختفاء أسمهان

عارض كل من عليا وفؤاد هذا الزواج. ليس فقط لأنهما سيخسران ما يحصلان عليه من دخل أسمهان المتزايد، بل لأن بدرخان متزوّج، وليس درزياً. أما فريد فهو يكنّ احتراماً كبيراً له، وكان على أتمّ تفاهم معه عند تصوير فيلمهما، فضلاً عن أنّ أعراف الدروز من آخر اهتماماته. ما من أحد كان ليجرؤ على التفكير في الاقتران بأسمهان الجامحة بعد أن طلّقها الأمير حسن. كما أنّ أهل بدرخان هالهم أن يتزوج ابنهم بهذه المطلّقة المشينة.

لم تعترف وزارة الداخلية بالزواج، فقد طلبت من أسمهان أن تبرز شهادة طلاق من زوجها السابق، وهو ما لم يتيسر لها لأن الزيجات والطلاقات عند الدروز لا تُثبَت في وثائق. لكنّ التابعي توصّل بتوصياته إلى تأجيل عملية الإبعاد. وأياً يكن، لم يدم زواج بدرخان وأسمهان أكثر من أربعين يوماً. ليس بسبب التعقيدات الإدارية المتفاقمة ولا بسبب الاعتراضات العائلية، بل بسبب حياة أسمهان المنحلّة التي سرعان ما نفر منها بدرخان. لقد تقبّل كل نزوات نجمة الفيلم لكنه لم يكن مستعداً للتسامح مع نزوات الزوجة، خصوصاً السهر حتى الفجر والمغازلات والكحول ولعب الميسر والإنفاق من دون حساب. أصبحت غيرته لا تطاق وفصول تشاجرهما أمام الناس أشدّ عنفاً. لم يتسنَّ له الوقت حتى لكي يطلّقها. كانت قد مزّقت عقد الزواج أساساً.

وحين راحت الصحافة تشوّه صورتها بسبب هذا الزواج المشؤوم، غرقت في حالة من الكآبة السوداوية. وأشاعت ألسنة السوء أنها استغلّت بدرخان وأن قرار طردها من مصر كان بسبب أخلاقها الساقطة وأنها تستحقّ ذلك. حاول التابعي أن يهدّئ زملاءه الصحفيين، لكنّه عزف عن رؤية أسمهان نهائياً. فهي الآن امرأة مطلقة وقد خشي أن يُظنّ، لو شوهدا معاً، أنه هو سبب الطلاق.

عادت أسمهان إلى منزل العائلة، حيث عاشت جحيماً. وظلّت تخرج من البيت كل ليلة على الرغم من تهديدات فؤاد وضربه إياها. كان يضربها بشكل عنيف لدرجة أنها اضطرت أحياناً إلى إلغاء بعض عروضها بسبب الكدمات الزرقاء في وجهها. وذات يوم، اختفت نهائياً. لم يعرف أحد أين ذهبت، ومن دون جدوى فتّشت عنها عائلتها التي خشيت الأسوأ.



سرعان ما نفر بدرخان من أسمهان بسبب حياتها المنحلّة.



ظلّت تخرج من البيت كل ليلة
على الرغم من تهديدات فؤاد وضربه إياها.





كان يضربها بشكل عنيف لدرجة أنها اضطرت أحياناً
إلى إلغاء بعض عروضها بسبب الكدمات الزرقاء في وجهها.

57

القاهرة، حزيران/يونيو العام 1941

هذا ما كان عليه الوضع السياسي والعسكري في الشرق الأدنى في ذلك العام: لقد خلّفت الحرب الأوروبية آثاراً مباشرة على دول المشرق. ظلّت مصر محمية إنكليزية وكذلك فلسطين. وخضع لبنان وسوريا للانتداب الفرنسي (في ظل حكومة فيشي). وتلقّت ليبيا، التي احتلها موسوليني، مساعدة ألمانيا عبر عدة ألوية مُدرَّعة من النخبة. إنه «فيلق إفريقيا» بقيادة رومل. وعلى الجبهة الأخرى سمح الجنرال دانتز، المفوّض الفرنسي السامي على سوريا ولبنان، للطائرات الألمانية المتمركزة في تركيا بعبور أجواء دول المشرق في طريقها إلى قصف البريطانيين في العراق. أمّا ما ألهب المشاعر فكان تقدم قوات المحور المرتقَب من ليبيا في اتجاه مصر بغية احتلال قناة السويس من جهة، وتقدم القوات الألمانية التي بلغت حلب، في طريقها إلى قناة السويس أيضاً، من جهة أخرى. وقع الإنكليز بين فكّي كماشة، وانقسم الشعب المصري بين المعسكرين. رأى البعض أن تقدم القوات الألمانية سيخلّصهم أخيراً من الاحتلال الإنكليزي، فيما صُدم آخرون باجتياحات هتلر في أوروبا، فمالوا إلى الحلفاء. كانت رؤية القوات الألمانية تدخل باريس صدمة قوية خصوصاً لمُحبّي فرنسا من أهل القاهرة. ولم يتردّد فريد وأسمهان في اتخاذ موقفهما، هما اللذان تربّيا عند الراهبات والرهبان الفرنسيين وتشبّعا بالثقافة الفرنسية.

عندما قدم الجنرال ديغول، قائد قوات فرنسا الحرّة، إلى القاهرة في نيسان/أبريل العام 1941، وتحدّث أمام ممثلي الصحافة، كانت أسمهان موجودة. فقد أقنعت التابعي بأن يسمح لها بحضور هذا المؤتمر الصحافي. أرادت أن ترى عن كثَب هذا الجنرال الذي زاده هيبة في نظرها كونه محكوماً بالإعدام. ويروى أنه عندما التحق به قبل أشهر الجنرال كاترو، الضابط ذو الخمس نجوم، كان هو من بادر إلى أداء التحية له، واضعاً نفسه بذلك فوراً تحت أمر هذا المحكوم بالإعدام مع أنه ليس سوى ضابط بنجمتين. بهرتها كل هذه العظمة. وعندما خرجت من المؤتمر تصوّرت بصليب «اللورين»، شعار فرنسا الحرّة، المعلّق على ثنية سترتها.

عجّت القاهرة بالبزّات العسكرية، من قوات تنتظر الأمر العسكري بالتحرك إلى أفواج في مأذونيات، وحاميات على أهبة الرحيل، وفرق وصلت حديثاً. أستراليون، وإنكليز، ونيوزلنديون، وجنود فرنسا الحرة، وهنود، ويونانيون. وفي انتظار المغادرة إلى الجبهة، ملأ الضباط والجنود الملاهي يشربون الكحول بلا حدود ويسكرون بالرقص الشرقي. كان ملهى بديعة مصابني الجديد، «كازينو الأوبرا»، قد فتح أبوابه في العام 1940. وكانت بديعة، بعد أن خفت الحركة في شارع عماد الدين مع وفود جماعات العسكر، قد قررت أن تفتح ملهى في مكان آخر. فحصلت على قرض من بنك مصر ونقلت عملها إلى ساحة الأوبرا!













كان «فيلق أفريقيا» بقيادة رومل قد دخل ليبيا.



تصوّرت بصليب «اللورين»، شعار فرنسا الحرّة، المعلّق على ثنية سترتها.

58

سامية جمال الأسطورية وعبقرية بديعة

كان هذا الملهى خارجاً عن المألوف، أشبه ببرج بابل. فيه مسرح دائري واسع ومطعم وعدة بارات. وعملت بديعة بموهبتها على تكييف عروضها مع الأذواق الأوروبية. رفّهت عن قوات الحلفاء حتى قيل إنها على لائحة هتلر الشخصية بأسماء الأشخاص الذين سيصفّيهم فور احتلاله القاهرة! واتهمها المتعاطفون مع الألمان بأنها عميلة إنكليزية، وبالتالي خائنة لمصر. كان الجميع يعرف أن ابن تشرشل ودوق غلوستر من رواد الملهى. فهناك، عند بديعة مصابني، رقصت تلك التي بهرت كل الرجال، الأسطورة سامية جمال.

هي زينب ابراهيم محفوظ. ولدت في صعيد مصر في كنفِ أسرة فقيرة ومتشدّدة إسلامياً. في صغرها، استغلتها خالتها زوجة والدها كخادمة ولم تكن تطعمها. عشقت الرقص فمنعها والدها عنه. لم يكن في بيتهم مرآة. لكنّ الصغيرة اكتشفت وسيلة لكي تصنع مرآة. فألصقت صحيفة ورق على الزجاج وراحت ترقص متأملة صورتها فيه. عندما اكتشف والدها ذلك، وكانت في الثامنة من عمرها، تلقّت أول صفعة في حياتها. ثمّ أُلحقت بمحترف خياطة في القاهرة لم تخرج منه إلّا في السادسة عشرة من عمرها بعد وفاة والدها. لم يعد يحدوها سوى هدف واحد هو الرقص. وظّفت بديعة مصابني الفتاة وأشرفت على إعدادها، حتى إنها دفعت عنها بدل دروس في رقص الباليه، وهي مَن أطلقت عليها اسم سامية جمال، الراقصة التي سرعان ما أصبحت الثانية في «كازينو بديعة» بعد تحية كاريوكا المنشغلة أكثر فأكثر بالسينما. وكان للراقصتَين أساليب مختلفة تبرعان فيها، ففيما كان بإمكان تحية أن ترقص ضمن مساحة متر مربع مع اقتصاد مؤثّر في الحركات، كانت ساميا تذرع الخشبة كلها وهي تدور حول نفسها في فيض من التموّجات والخطوات والقفزات المتقنة. أبعدهما هذان الأسلوبان المتناقضان جداً عن التنافس، فنشأت بينهما صداقة متينة.

تمّ التعاقد مع سامية لكي ترقص في مشهد من فيلم كان يصوّر في العام 1940. وعلى منصة التصوير، التقت الرجل الذي قلب حياتها. إنه فريد الأطرش نجم فيلم «انتصار الشباب». كانت تلك بداية قصة حب. لكنّ الأوانَ أوانُ الحرب...



لطافتها الطفولية وجمالها الآسر... ورقصها.



قيل إنّ اسم بديعة وارد على لائحة هتلر الشخصية بالأشخاص الذين سيصفّيهم فور احتلاله القاهرة. فقد رفّهت عن قوات الحلفاء.



هناك رقصت تلك التي خلبت ألباب الرجال، سامية جمال الشهيرة.

59

مهمّة سرّية

كان محمد التابعي وحده يعرف مكان وجود أسمهان. أبلغته به قبل اختفائها لكي يكون هناك شخص واحد على الأقل يعرفه في حال وقع لها سوء. وجعلته يُقسم على مصحف صغير تحتفظ به في حقيبتها بألّا يبوح بذلك لأيٍّ كان. لقد كلّفها الإنكليز بمهمة سرية تحضيراً لاجتياح سوريا على يد القوات الإنكليزية وقوات فرنسا الحرة. كان الجنرال دانتز قائد القوات الفرنسية الفيشية في سوريا يستعدّ للسماح بعبور الألمان في طريقهم إلى السويس. وكان على الحلفاء أن يتصرّفوا بسرعة لنقل القوات الإنكليزية المتمركزة في فلسطين والأردن إلى الشمال. يقع جبل الدروز في جنوب سوريا، وتحتاج قوات الحلفاء أن تجتازه لكي تستولي على دمشق وتتخلّص من فيشي في المنطقة. وقد عرض الإنكليز على الدروز إذا ما دعموهم وسهّلوا عبورهم أن يساعدوهم على نيل استقلال سوريا من حلفائهم الفرنسيين. تلك كانت الرسالة التي على أسمهان أن توصلها إلى عشائر الدروز. كان عليها أن تحصل على تعاون هذه العشائر مقابل الوعد بالاستقلال. إنعقدت اللقاءات السرية الأولى بين أسمهان والإنكليز في «الروف غاردن» في فندق الكونتيننتال، وفي بار سان جيمس. وكانوا بدأوا قبل أسابيع بتدريبها سراً على خرائط في هيئة الأركان. وإذا بها تتعامل مع كبار ممثلي الأمبراطورية البريطانية في القاهرة، الجنرال «إيفت» قائد القوات الخاصة و«كلايتون» نفسه، رئيس جهاز المخابرات السرية البريطانية في الشرق الأوسط. كانت أول ردة فعل لمحمّد التابعي أن انفجر ضاحكاً غير مصدّق ما يجري وقال لها: «إيه ده؟، أنت؟ إنت نفسك، أسمهان؟ هاهاها!» لكنّ أسمهان دخلت في تفاصيل محدّدة وتحليلات استراتيجية بالغة الدقة، ومعارف شديدة التطور في شؤون القذائف، إلى درجة أنه لم يتأخر في أخذها على محمل الجد. وعبثاً حاول أن يثنيها عن الخوض في هذه القضية. قالت له إن واجبها يقضي بأن تناضل ضدّ هتلر وأن تساعد بلادها على نيل الاستقلال. عارضها التابعي قائلاً: «استقلال؟ منذ متى يمكن الوثوق بالإنكليز في هذا الشأن؟ ألم يعِدوا الملك فيصل قبل عشرين سنة بالأمر نفسه؟». ردّت أسمهان مستاءة: «الآن هم قطعوا الوعد لي، وأنا أصدّقهم».



جعلته يقسم على مصحف صغير تحتفظ به في حقيبتها.



درّبوها سرّاً وعلى مدى أسابيع على خرائط في هيئة الأركان.



كان على الحلفاء الذين وقعوا بين طرفَي كماشة أن يتصرّفوا بسرعة
لنقل القوات الإنكليزية المتمركزة في فلسطين والأردن إلى دمشق وبيروت.

60

المجازِفة

قبل أن تغادر أسمهان القاهرة، كتبت وثيقة سلّمت بموجبها كل ممتلكاتها إلى التابعي لكي تحميها من عائلتها ومن المُرابين. وقعتها أمينة بارودي كشاهدة من دون أن تطّلع على أي شيء من مشاريع صديقتها. أمضت أسمهان ليلتها الأخيرة قبل مغادرتها في إحدى سهرات القاهرة. في تلك الأمسية تعرّفت إلى ماري قلادة وارتبطت معها بعلاقة صداقة، وهي التي شاركتها مصيرها المشؤوم بعد سنوات.

غداة تلك الليلة انطلقت نحو القدس. وأثار الهدوء الذي انسحبت به واختفت ضجة كبيرة. فأطلقت الصحافة العنان لمخيلتها وصبّت عليها أسوأ أنواع الشكوك والمزاعم الجارحة. فلماذا تختفي نجمة في قمة مجدها، هكذا، بين ليلة وضحاها؟ ولم تنقص الصحافيين المخيلة لكي يجدوا الإجابات الصادمة والمُهينة... أما فؤاد فقد أغرقه اختفاء شقيقته في حالة من اليأس العميق. فهو لا يستطيع إلّا أن يربطه بالطريقة التي كان يعنّفها بها منذ سنوات. أخرجه ما كتبته الصحافة عن طوره. فقصد غير مرة مكاتب التحرير يتعارك مع العاملين فيها.

عندما وصلت أسمهان إلى القدس، نزلت في فندق الملك داود الذي كان إذّاك مقرّ القيادة العليا للجيش البريطاني. بدا من حالة الفوران السائدة فيه أن هناك عملية عسكرية واسعة النطاق على وشك الحدوث. التقت هناك الكومودور «باس»، وراجعت معه الخطة المقرّرة قبل أن تغادر. ثم بلغت الحدود السورية على ظهر حصان عبر التلال الأردنية، وعندما وصلت إلى الجبل أبلغت رسالة الإنكليز إلى الدروز، وإلى كلّ زعماء آل الأطرش وعلى الأخصّ حسن الذي كان حاكم المنطقة. دافعت عن وجهة نظر الإنكليز، وحاولت إقناع هؤلاء الرجال المنغلقين الأفظاظ والعدائيين. أبدى بعض أفراد العائلة استعداداً فورياً لمساعدة الحلفاء ومنهم حسن، فيما طالب آخرون بضمانات. هكذا، أصدر كاترو[1] بياناً رسمياً طلب فيه إلى السوريين واللبنانيين مساعدة الحلفاء ووعدهم فيه، باسم فرنسا الحرة، بمنحهم الاستقلال. ألقت الطائرات البريطانية نصّ هذا البيان في مناشير فوق بيروت. لم تمكث أسمهان طويلاً في الجبل، وانتقلت لتقيم في فندق أورينت بالاس في دمشق، حيث وجدت نفسها مهدّدة من الفرنسيين الفيشيّين فاضطرت إلى الفرار متنكّرة بزيّ بدويّ وقد غيّرت سحنتها بدهان الأحذية. حاولت العودة إلى فلسطين وهي تحمل تسهيل مرور من الجنرال إيفت نفسه الذي هام بحبها. ما كان عليها إلّا الوصول إلى القوات الإنكليزية لتنجو بنفسها، بعد أن تجتاز فصائل كثيرة تجوب المنطقة، وكادت غير مرة أن تقع بيدها. لكنّ أوراق إيفت أفادتها كثيراً حال وصولها إلى المنطقة الصغيرة الواقعة تحت السيطرة البريطانية على الحدود. طلب منها الإنكليز أن تبقى في فندق الملك داود حيث بإمكانهم أن يؤمّنوا لها الحماية اللازمة.

---

[1] عيّنه ديغول قائداً أعلى لقوات فرنسا الحرة في المشرق.



أسمهان في السهرة الأخيرة التي أمضتها
في القاهرة قبل مغادرتها إلى فلسطين.



في العاشر من حزيران/يونيو بدأ الهجوم عبر العراق والأردن وفلسطين. في غضون أسابيع، حقّق المهاجمون تقدماً في الشمال. وفي القاهرة، ألقى ديغول خطاباً في ذكرى النداء الشهير الذي وجّهه في 18 حزيران/يونيو الشهير من السنة السابقة إلى الفرنسيين. فاطمأنت أسمهان إلى كون الأمور تسير على ما يرام.

في 21 حزيران/يونيو دخلت قوات الحلفاء دمشق. لكن أنظار العالم كله توجّهت إلى مكان آخر، فقد اجتاح هتلر روسيا. لكن هذا لم يمنع أسمهان من أن تغني في ليالي القدس الحمراء، محاطة بالضباط البريطانيين، وتحديداً أحدهم: المايجور جنرال جاك إيفت.



في الأعلى: أسمهان تعرض على الدروز مخطَّط الحلفاء.
في الأسفل: إعلان الجنرال كاترو.



في دمشق أفلتت من ملاحقة الفيشيّين متنكرة بزيّ بدوي.
وبعد تعرّضها لعدة حوادث عادت إلى فلسطين.



PALESTINE HOTELS L[TD]

King David Hotel





غنّت في ليالي القدس الحمراء وسط الضباط البريطانيين.

61

نصر وزواج جديد وفنادق كبرى

في القاهرة، علمت أسرة أسمهان وأصدقاؤها أنها ما زالت على قيد الحياة عبر مقال في الجريدة مخصّص لانتصار الحلفاء في سوريا. وفي المقال نفسه، اكتشفوا دورها خلال الحرب. وأخيراً علموا أنها تزوجت مجدّداً من حسن الأطرش. وكان هذا الخبر، من بين الأخبار الثلاثة، الأكثر بعداً عن التصديق. وقد نُشرت صورة حسن وأسمهان بوجهين مشرقين يتجولان في شوارع دمشق بمواكبة فرسان دروز وشركس، قبضاتهم على سيوفهم، وصورة أخرى مع ديغول يذيّلها تصريح للأميرة أمال الأطرش: «تخلّيت عن مهنتي في الغناء والسينما لأكرّس نفسي لوطني وزوجي». محمد التابعي كان أكثر المصدومين. فقد رآها في زيارته الأخيرة إلى القدس، رآها بأم عينه مع إيفت في فندق الملك داود. أمّا فؤاد فلم ينشرح صراحة كثيراً للخبر حتى وإن كان هذا ما تمناه دوماً. هل هذا ممكن؟ فالاقتران مجدّداً بزوج سابق محظور كلياً عند الدروز! إلّا أنّ حسن، بسلطته الاستثنائية في طائفته، تمكّن من فرض هذا الانتهاك. وكان، بعد طلاقه من أمال، قد تزوج من امرأة درزية أخرى، وها هو يطلقها لتجديد زواجه من أمال. لم يجرؤ أحد عند الدروز على التعليق على الأمر. بات حسن الآن يعرف تماماً نزوات أمال وتعلّقها بعالم الفن وعدم مسايرتها المجتمعات التقليدية وإسرافها في إنفاق المال، ورضي بذلك. ثمّ إنه عُيّن مؤخراً وزيراً وأقام في بيروت، معتبراً أن الحياة هناك ستلائم أمال أكثر منها في الجبل... فهناك المنزل الجميل في حيّ مار نقولا، وهناك فندق سان جورج عندما ترغب الأميرة في التمدّد على كراسي البحر، والبار في أوتيل النورماندي لشرب «البلودي ماري»، وفندق الأورينت بالاس في دمشق عندما يضطر الزوجان إلى العودة إلى سوريا. وفي الصيف عندما تشتدّ الحرارة في بيروت ودمشق هناك فندق صوفر الكبير في الجبل اللبناني. لا بدّ من أن تسير الأمور على ما يرام...

لكن لا، لم تسر الأمور على ما يرام...



حسن وأمال في استعراض في شوارع دمشق وراء ديغول وكاترو.





الجنرال ديغول في زيارته جبل الدروز.



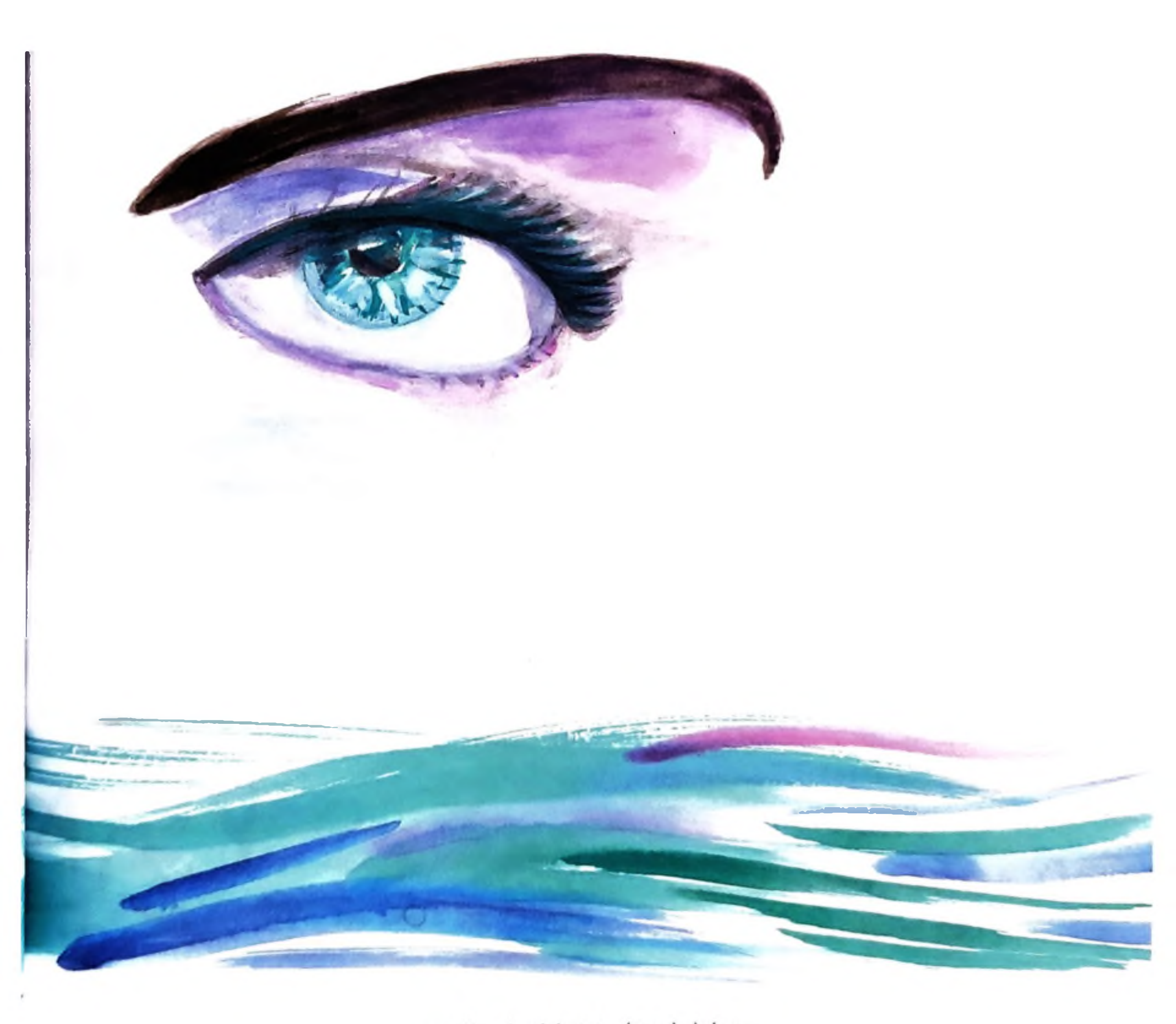
ديغول والأميرة.
حلّ ضيفاً على الغداء في فيلّاها في السويداء.



إشتُهرت أسمهان بإسرافها في الإنفاق كما بجمالها، حتى إن إدوارد سبيرز[1] نفسه تحدّث عنها في مذكّراته: «من المهمات الأولى التي قمت بها، والتي استمرت بشكل متقطّع على مدى أربع سنوات من تولّيَ الوزارة، هي التعامل مع الأميرة الأطرش. أول مرة التقيت الأميرة كانت في الحفل الكبير الذي أقيم عندما تزوجت مجدّداً من الأمير. بدا ذلك طبيعياً جداً على الرغم من علمنا أن تجديد الزواج عند الدروز غير جائز. ومع أنها كانت متألقة تلك الليلة بزيها الغربي، علمت أنها تبدو أجمل، وأجمل بكثير، بزيّها العربي الذي يخفي ساقيها القصيرتين. لكن أيّا كان لباسُها، كانت وستبقى إحدى أجمل النساء اللواتي رأيتهنّ في حياتي. عيناها واسعتان خضراوان بلون البحر الذي عليك عبوره في الطريق إلى الجنة. وقد علمت أنها ذات صوت رائع يسحر السامعين كلما غنّت الأغاني التراثية العربية. كانت تُوقع بالضباط الإنكليز بدقة وسرعة سلاح رشاش. كما لكم أن تتوقعوا، كانت تحتاج إلى المال الذي بعثرته كما تبعثر الغيمة زخات المطر».

[1] كان آنذاك رئيس البعثة البريطانية في المشرق، وممثل الحكومة البريطانية عند ديغول.


REGENT HOTEL
AVENUE WEYGAND
KIT KAT
ALCAZAR HOTEL
الكازار
GRAND HOTEL CASINO
SOFAR
PARI
ZIA
NA



«عيناها واسعتان خضراوان بلون البحر...



... الذي عليك عبوره في الطريق إلى الجنة».

62

استقبال قصر الصنوبر

إحتفالاً بالنصر، أقيم استقبال في قصر الصنوبر[1] في بيروت بحضور الجنرال ديغول. كان جدّي من المدعوين. ومما رواه: «كان الحرّ شديداً، حرارة عزّ الصيف في بيروت... ساد المكان جوّ من الخصومات. فبعد الحرب بين دول المحور والحلفاء، حلّت في الصالونات الفخمة تسوية حسابات قاسية بين الفرنسيين والإنكليز. لكن مهلاً، كانت تسوية حسابات بالكلام فقط، مورست في جوّ من المودة ووسط كؤوس الشامبانيا... وبالفرنسية! نعم، كان الجنرال سبيرز حاضراً. أقسم لك أنه يتكلّم لغة موليير كأي فرنساوي! حتّى ليُقال إنه ولد في باريس وأمضى فيها شبابه. ويروى أن ديغول غادر فرنسا بطائرته إلى لندن بعد الهدنة... في الكواليس، ووسط قوالب الحلوى، كان هؤلاء السادة، بين قطعة «بيتيفور» وأخرى، يتفاوضون على ما بعد النصر. ويمكنني أن أجزم أنهم ما كانوا متفاهمين كما بدا! لم أفهم شيئاً تقريباً مما يتداولونه (لم يكن جدي يتكلم الفرنسية). لكني ملمّ بشؤون التفاوض والسياسة. كان من الواضح أن واحدهم كان يتمنى أن يختنق الآخر بنواة حبة الزيتون التي يأكلها... وكانت الأميرة هناك، وقد لفتت الأنظار كلها. لكن في ذلك المساء، خطف منها أحدهم النجومية، فالجنرال ديغول له تأثيره! وأساساً يعجبني هذا الرجل (لا بدّ من أنّ جدّي، ذا الطبع السلطوي، الصلب والغضوب، قد وجد توأم روحه في هذا الجنرال الذي لا يشبه غيره). وكان حسن الأطرش مثلي لا يفهم كلمة مما يُقال، لكن الأميرة أمال كانت تتنقل بين الاثنين، كاترو وسبيرس، بكل سهولة... وكان هناك انطباع بأن عندها هي أيضاً أموراً يجب التفاهم عليها. في ذلك المساء، صدّقت في سرّي الشائعات التي سرت في المدينة، بأنها ربما كانت جاسوسة فعلاً».

وأكّدت جدتي، التي حضرت أيضاً هذا الاحتفال، أنها لمحت في جزدان الأميرة، فيما كانت تسحب منه محرمة، مسدّساً.

[1] مقرّ المفوّض السامي الفرنسي في زمن الانتداب ولاحقاً سفراء فرنسا بعد استقلال لبنان.



تتنقّل بين كاترو وسبيرس بكلّ سهولة...

63

هل من خيانة؟

بلغ تأثير أمال السياسي وقوتها الدبلوماسية في سوريا ولبنان الذروة تماماً بعد النصر وبعد تجديد زواجها. وما إن استقر الوضع في دول المشرق بالنسبة إلى الحلفاء حتى استؤنف التنافس بين الفرنسيين والإنكليز. لم تعرف أمال كيف تحدّد موقفها، لا في هذا المعسكر ولا في ذاك. عندما لم يعد الإنكليز يدفعون، توجهت بطلب المال من الفرنسيين الذين رفضوا. وقد لخص سبيرز الوضع بالشكل التالي: «طلبت المزيد من المال من كاترو ومني، وبعد أن تشاورنا، رفض كلانا طلبها». في تلك المرحلة، اتُّهمت أمال بأنها أصبحت عميلة مزدوجة.

لم يفِ كاترو بوعده بالاستقلال. كان كثيرٌ من الوطنيين مقربين من قوات المحور، لاقتناعهم بأنّ الشرق الأدنى سيتخلص عبرها من القوات الاستعمارية. وتحوّل الكثير من الزعماء العرب إلى تركيا لكي يستطلعوا ما يمكن أن يقدّمه فون بابن، السفير الألماني في أنقرة. وقد مالت أمال، على ما يبدو، إلى هذا الحلّ، خصوصاً وأنّ الأنباء الواردة من القاهرة أرعبتها. فالإنكليز على الجبهة الغربية يُمنون بالهزائم، ورومل يواصل تقدمه الحثيث، ويقال إنه بات على بعد يوم واحد من الإسكندرية التي تتعرض للقصف يومياً. فكرت في فريد وأمها والحياة التي خلّفتها وراءها في القاهرة.

أما المتاعب التي واجهت أسمهان في محيط الحدود التركية وأسبابها، فقد ظلت غامضة. يقال إنها انتقلت بالسيارة إلى طرابلس ومنها سافرت إلى حلب بالقطار. وما بين حلب وأنقرة، حيث كان من المفترض أن تلتقي فون بابن، أوقف الإنكليز القطار تحديداً قبل الحدود التركية، وأُنزلت منه أمال ثم أعيدت، في حالة من الغضب وتحت رقابة مشددة، إلى بيروت حيث وُضعت تحت الرقابة في منزلها الخاص. يعتقد البعض أنّ أمال، التي منيت بخيبة أمل من الحلفاء الذين نكثوا بوعدهم بالاستقلال الذي قطعوه لها شخصياً، أرادت، نكاية بهم، التحوُّل إلى الألمان. فيما رأى كثيرون آخرون أن حافزها كان طمعها بالكسب وأنها كانت مستعدة لبيع الألمان ما تعرفه. أياً يكن، فإنّ إقامتها في منزلها تحت الرقابة لم تدم طويلاً. وسرعان ما استعادت حرية التنقل، من فندق إلى آخر، في مسلك فوضوي أفضى بها في النهاية إلى نهايتها المأساوية. لم تعد تلتقي حسن تقريباً، وهناك انطباع بأنها صارت تحرص على ألا تكون موجودة في أية مدينة يكون فيها. وقد أمضت بضعة أشهر صاخبة في القدس قبل عودتها الأخيرة إلى القاهرة.



عندما توقف الإنكليز عن الدفع توجّهت بطلب المال من الفرنسيين الذين رفضوا.



أمال وحسن الأطرش يرحبان بالجنرال كاترو في حفل استقبال في دارتهما في بيروت.



بعد النصر وزواجها مجدّداً، بلغت سلطة أسمهان أوجها.



المتاعب التي واجهتها في محيط الحدود التركية
وأسبابها ظلت غامضة.



لم تدم إقامتها الجبرية طويلاً،
واستأنفت تنقلاتها بين فندق وآخر وصولاً إلى نهايتها المأساوية.

64

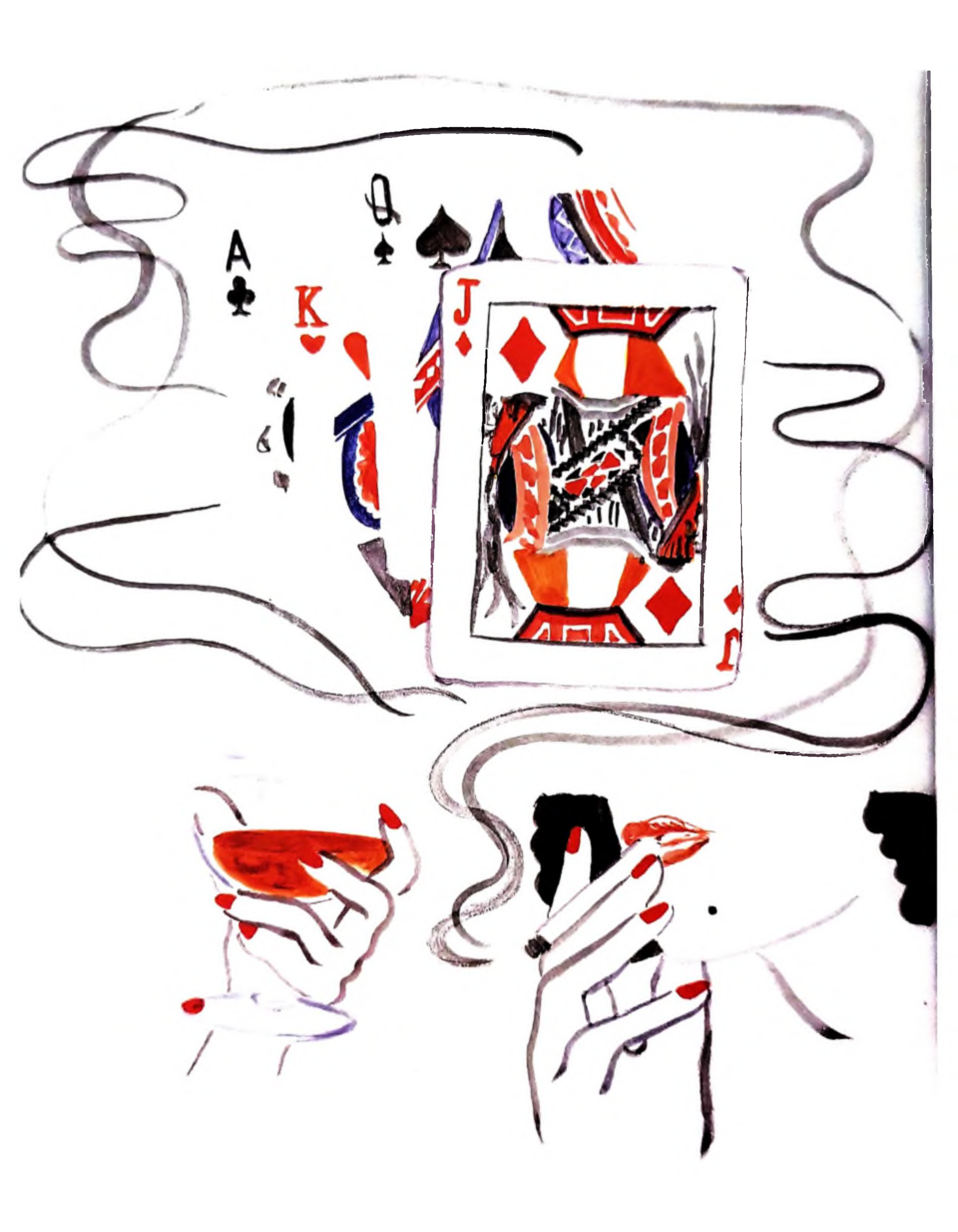
هروب إلى الأمام
الإقامة الأخيرة في فندق الملك داود

فُتحت أبواب الجحيم. بدأ كلّ شيء بحادثة دبلوماسية. فقد أصرّت أمال على الإقامة في الجناح الملكي في فندق الملك داود. وعندما أُعلن بعد بضعة أيام عن زيارة الملكة نازلي، طلبت منها إدارة الفندق بلطف إخلاء الجناح، لكنّ أمال الساعية إلى الانتقام رفضت تغيير الغرفة صائحة بأن القدس ليست مصر، وأنه ليس لنازلي أيّة سلطة هنا. فطُلب منها أن تسدّد حسابها فوراً إن أرادت الاحتفاظ بالجناح، وكانت فاتورتها باهظة. فقد شربت كثيراً في البار وأفرطت في الأكل في المطعم وفي اللعب على طاولات الميسر. وكان حسن قد توقّف عن إرسال المعاش إليها، فكلّفت وسيطاً يترجّاه نيابة عنها أن يدفع مرة أخرى، لكنه رفض.

كان حسن يستشيط غضباً من الأخبار التي تصله عن تصرفات أمال الشائنة منذ إقامتها في القدس. يبدو أنها أصبحت خارجة تماماً عن السيطرة. وكانت صديقتها أمينة بارودي، أفضل شريكة لها في اللهو، قد مرّت بالمدينة. وانتشرت أخبار لا تصدّق في أرجاء الشرق الأوسط عن الاحتفالات التي كانت أمال تقيمها في فندق الملك داود، حيث الإسراف في شرب الكحول واختتام السهرات بحفلات عربدة وفجور. حتى أنّ البعض زعموا أنّ الأميرة ترقص عارية مع ضباط بريطانيين. كان هذا أكبر من قدرة الدروز على التحمّل، فقرّر بعضهم قتلها وأبلغوا نيتهم هذه إلى سبيرز الذي كتب في مذكّراته: «كتب لي الدروز لإعلامي بأنهم سمعوا عن أمور تحصل هي عار ليس فقط على آل الأطرش بل على الدروز عموماً. وطلبوا منّي إبلاغ المفوّض السامي بأن شرفهم قد تلطّخ وأنهم سيرسلون إلى القدس من يقتلها».

غرقت أمال فعلاً في حالة اكتئاب شديد. لم تعد تجرؤ على الخروج من الفندق وهي ترى الدروز في كلّ أنحاء المدينة. خطف حسن كاميليا بالقوة وأخذها معه إلى الجبل. وعبثاً حاول التابعي، خلال زيارة له إلى القدس، إعادة صديقته إلى جادّة الصواب. فإذا ما قال لها إنه من المبكر جداً البدء في شرب الكحول عند الساعة الحادية عشرة صباحاً، أغلقت ستائر الغرفة، وأضاءت الكهرباء لتصبّ لنفسها كأساً من الويسكي. حاولت للمرة الثالثة وضع حدّ لحياتها، لكنّ إحدى عاملات التنظيف في الفندق وجدتها مرميّةً بلا حراك فتمّ استدعاء طبيب أسعفها.

أُبلغ حسن بالخبر فحضر إلى القدس. جلس على طرف السرير حيث رقدت أمال شاحبة ليبلغها، مكسور الخاطر، قراره بتطليقها للمرة الثانية.





انتشرت أخبار لا تصدّق في أرجاء الشرق الأوسط عن الحفلات...



... التي كانت أمال تقيمها في فندق الملك داود حيث تختتم السهرات بالعربدة والفجور.







كان الدروز يتراؤون لها في كلّ شوارع القدس.



غرقت في حالة من اليأس الشديد.





حاولت الانتحار للمرّة الثالثة.
عثرت عليها إحدى العاملات في الفندق مرميّة بلا حراك.

65

أسمهان تتزوج للمرة الرابعة

بعد أسبوع استعادت أسمهان عافيتها، وعندما نزلت إلى مكتب الاستقبال في الفندق اكتشفت للمرّة الألف كم أنّ حسن إنسان كبير النفس، فقد سدّد كامل حساب الفندق قبل مغادرته.

خبرٌ آخر سارّ كان بانتظارها. فقد تلقت عرضاً رائعاً للعودة إلى السينما، وبأجر ضخم! وقد حضر حسين سعيد، مدير استوديوهات مصر، إلى القدس لتوقيع العقد. وبما أنّ أسمهان لا تزال غير مرغوب بها في مصر، فقد أملت أن يتمكن من تأمين تأشيرة دخول لها. لكنه لم يوفق في ذلك. فالإدارة المصرية ما زالت ترفض السماع باسمها.

إنتاب أسمهان القلق، ففيما مكثت منتظرة في القدس أنفقت قسماً كبيراً من أجرها. وشاءت الصدف أن يمرّ فريد في تلك الفترة بالقدس في طريقه إلى حلب حيث سيحيي عدة حفلات. كانت معه تحية كاريوكا التي سترقص في السهرات نفسها يرافقها زوجها في حينه، ساحر النساء أحمد سالم. ما الذي حصل عملياً؟ كما في كلّ محطّة لافتة من حياة أسمهان، شاعت روايات كثيرة. لكننا نكتفي هنا بسرد الوقائع المتماسكة. فقد اقترح أحمد سالم على أسمهان الزواج من مصري، منه مثلاً، لتحصل على أوراقها. هكذا، طلّق كاريوكا، واستدعى شيخاً، وعقد قرانه على أسمهان. وسالم، كما عُرفَ عنه، شخصية مشبوهة ومهيبة في آنٍ معاً. ومن جملة ما يُحكى عنه أنه كان زوج أمينة بارودي قبل زواجه من كاريوكا. وهو أول من أطلق عبارة «هنا القاهرة» عند افتتاح الإذاعة المصرية. ثمّ تولّى إدارة استوديوهات مصر. ويُقال إنّه أول مصري عبر الأطلسي بالطائرة. لم تكفِ هذه الألقاب المجيدة كلها للتخفيف من غضب الدروز. فقد أغضبهم وساءهم هذا الزواج الجديد السريع والمشين. تجاوزت الأمور حدّها ولم يعد بإمكانهم مسامحتها. كما أصيب التابعي أيضاً بالخيبة، فهو يحترز من أشخاص مثل سالم. «ما الذي تفعلينه يا أمال؟ إلى أين أنت ماضية؟»، كل ما كان يهمّ أسمهان هو العودة إلى القاهرة لتصوير فيلمها. طبعاً لم تعترف وزارة الداخلية المصرية بالزواج، فطلاق أسمهان وحسن غير مسجّل في الدوائر الرسمية. كادت أسمهان تصاب بالجنون. ها هي تعيش مجدداً ما عاشته قبل سنوات عند زواجها من بدرخان. إنفجرت صارخة: «لكن الطلاق عند الدروز لا يُسجّل! لا وثائق ولا أوراق. يجب أن يعرف الموظّفون المصريون ذلك!» وقد عمّ بلاد المشرق كلها خبر هذا الطلاق الثاني من حسن وشغل الصحف طويلاً من دمشق إلى القاهرة. «أنظروا في جريدة الأهرام! هو مذكور بالبونت العريض! ماذا تحتاجون أكثر من ذلك؟» لكن بالنسبة إلى الإدارة المصرية، لا يمكن الجريدة، في أي حال من الأحوال، أن تحلّ مكان الوثيقة الرسمية.



فتحت البرقية فإذا فيها عرض مغرٍ للعودة إلى التمثيل السينمائي!



لقاء الشقيقين، فريد وأمال، في بهو فندق الملك داود.
لحظة سعادة عارمة.



كان فريد برفقة تحية كاريوكا وأحمد سالم،
زوجها في حينه، وساحر النساء.

66

صعود نجم ليلى مراد الصاعق

على أسمهان أن تعود إلى القاهرة. من الضروري أن تعود. يراودها إحساس، وهو في محلّه، بأن الحياة تجري هناك من دونها، من تصوير المزيد من الأفلام إلى ظهور نجمات جديدات يصوّرن الأفلام بلا هوادة، الواحد تلو الآخر. من هؤلاء تحديداً نجمة تُلهب ابتسامتها الشاشة وتحقّق النجاحات المتلاحقة. إنها ليلى مراد التي قدّمها عبد الوهاب في فيلمه «يحيا الحب». تلك النجمة الشابة كانت في طريقها إلى أن تصبح أهمّ نجمة في السينما العربية. ولكم أغاظت أسمهان ابتسامتُها الأميركية الدائمة والمشرقة.

ليلى مراد هي ابنة زكي مراد، أحد أشهر المغنّين في أواخر القرن التاسع عشر، ومن أوائل الذين قاموا بتسجيلات صوتية قبل الحرب الأولى. ذات يوم، فاجأ زكي الجميع وقرّر القيام بجولة طويلة امتدّت سنوات وصولاً إلى أميركا نفسها. غاب أربع سنوات، تاركاً عائلته في القاهرة، ولما رجع كان قد أنفق الثروة التي جمعها. وبعودته لاحظ أن الأذواق تغيّرت، إذ برز مغنٍّ شاب غيّر المشهد الموسيقي بأكمله. إنه محمد عبد الوهاب. هكذا بات زكي مراد بلا عمل. كانت الضربة قاسية، فامتهنت زوجته الخياطة لكي تعيل أسرتها. لكنّ ليلى الصغيرة تتمتّع بصوت جميل. فقد تشبّعت بالموسيقى طوال مرحلة طفولتها، وغنّت في حفلة رسمية للمرة الأولى وهي في الثانية عشرة من عمرها. راح والدها يمرّنها عاملاً على صقل صوتها، ثمّ أسمعه لصديقه داوود حسني. هل تذكرونه؟ إنه «مكتشف» أسمهان... بُهر الموسيقي الكبير بصوت الشابة وأخذها عند عبد الوهاب، الذي جذبه جَرْس صوتها الحديث فعرض عليها التمثيل إلى جانبه في فيلمه التالي. وكان هذا، بالنسبة إلى مغنية يافعة مثلها، بمثابة جواز السفر إلى الشهرة.

في العقد التالي، جاء نجاح ليلى مراد مدوياً حتى تجاوزت به كلّ منافساتها. صارت النجمة التي تتقاضى أرفع الأجور والمطلوبة أكثر من غيرها ومعبودة الجماهير في السينما العربية. وكلّ ذلك في بداية أربعينات القرن الماضي، يوم لم يكن أحد بعد يتعرَّض لأصولها اليهودية...



التمثيل مع عبد الوهاب هو بمثابة جواز مرور إلى الشهرة
بالنسبة إلى المغنية الشابة.

67

العودة الأخيرة إلى القاهرة

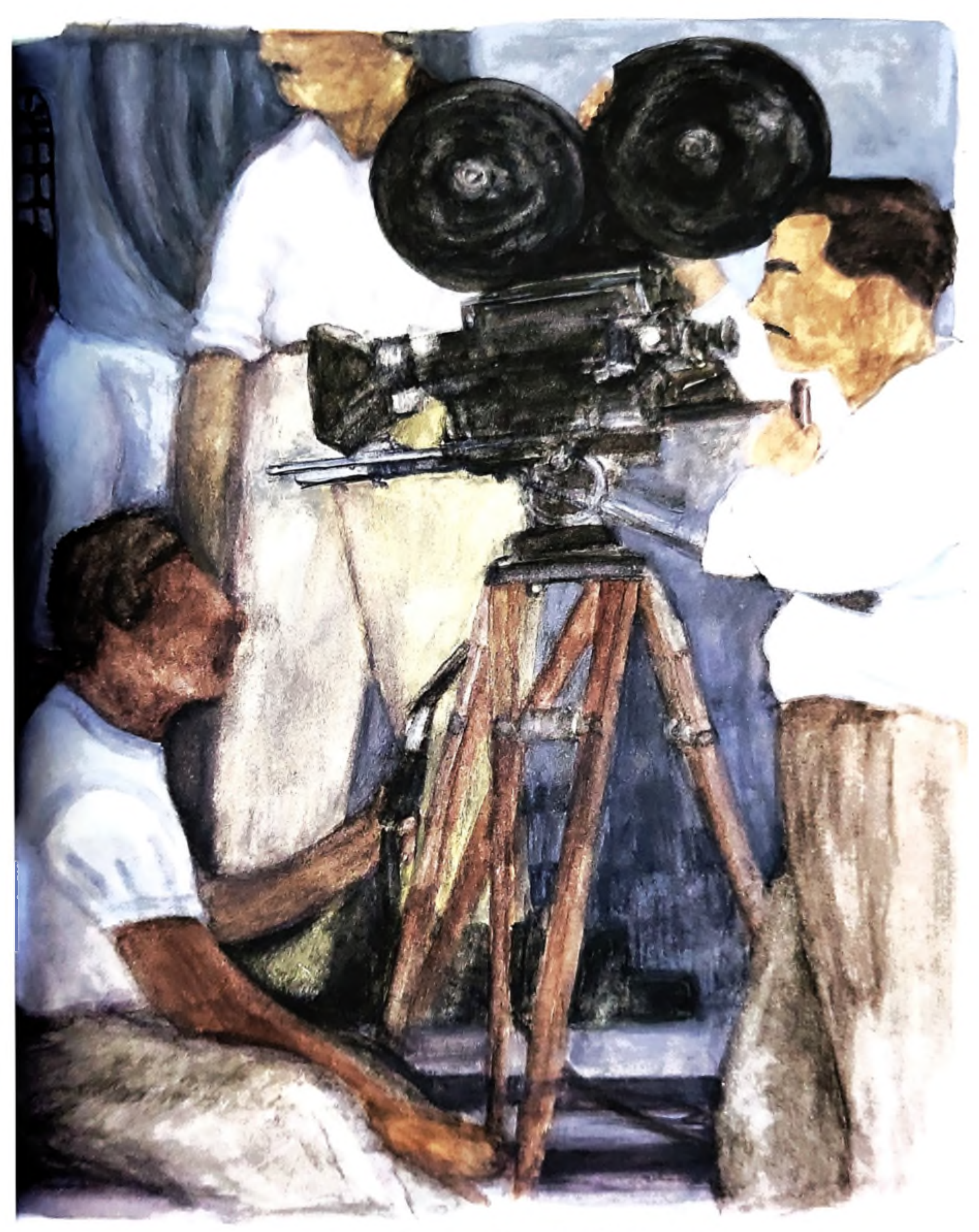
أخيراً وبعد أسابيع، حصلت أسمهان على تأشيرة الدخول التي طال انتظارها، وذلك بفضل تدخّل الإنكليز. وبذلك انفتح الفصل الأخير من قصتها المشؤومة.

أقامت بعد عودتها إلى القاهرة عند أحمد سالم في الجيزة. وقد يتهيّأ للمرء أنها ستستكين بعد تعبها من الفضائح والغلو ومآسي السنوات الأخيرة، وبعد فرحها بعودتها إلى الغناء والسينما والوسط الفنّي الذي تحبه. لكن لا! ففي هذا المنزل حدثت فضيحتها الأشدّ دوياً. لقد أوغلت كثيراً في درب المأساة... حتّى الأقاصي. وليس عند الأقاصي سوى الموت، ولو أنّ المشهد لم ينته بعد.

تلاحقت الأحداث الأخيرة بسرعة كبيرة. بدأ تصوير مشاهد فيلم «غرام وانتقام». كان فريد هو من لحّن معظم أغانيه، كما لحّن رياض السنباطي والقصبجي بعضها، في حين كتب أحمد رامي وبيرم التونسي كلماتها. ماذا عساها تتمنّى أكثر من ذلك؟ فقد شكّلت هذه أشهر وأجمل أغانيها. أدّت في هذا الفيلم دور سهير سلطان، نجمة من نجوم الغناء. وقد رسّخ هذا الدور، على غرار دور ناديا الذي لعبته في فيلم «انتصار الشباب»، صورتها في الأذهان كوجه حديث في مصر المعاصرة، بالتعارض مع أم كلثوم التي غالباً ما جسّدت دور الأمَة الشابة في أفلام موسيقية تاريخية. وقد أخرج الفيلم ومثّله يوسف وهبي الشهير، من دون أن يدري بعد أنه يصوّر أكبر إنجاز له، فيلم العمر!



أسمهان وفريد يتمرّنان على «ليالي الأنس في فيينا»،
الأغنية الشهيرة التي ألفها فريد لفيلم «غرام وانتقام».



على منصة فيلم «غرام وانتقام» لحظات قبل تصوير...



... أغنية «إيمتى حا تعرف» الرائعة من تلحين القصبجي.

68

الفضيحة الأخيرة

سعت أسمهان وزوجها الجديد أحمد سالم بخطى حثيثة إلى الكارثة. وكانت الصحافة تنقل أصداء شجاراتهما في العلن ونوبات الغيرة التي تنتاب أحمد، وتصرّفات أسمهان الطائشة. كحول وسهر ومزاجان بركانيّان... في تلك الليلة أيضاً، لم تعد أسمهان إلى البيت بعد انتهاء نهار التصوير. الاستوديوهات مقفلة منذ ساعات. خرج أحمد عن طوره وهو ينتظرها. وعند عودتها أخيراً، في ساعة متأخّرة، بدأت تسوية الحسابات. هدّدها فازدرته، وصبّت لنفسها كأساً من الويسكي. دفعها فشتمته، ضربها فسبّته. علا صياحهما وتضاربا. إلتباسات كثيرة تُحيط بما حدث فعلاً بعد ذلك. لكن المؤكد هو أنّ أحمد نُقل إلى المستشفى في حالة غيبوبة بعد إصابته بطلقات نارية. كما أصيب شرطي تدخّل على الأرجح في العراك. طُرحت أكثر الافتراضات بعداً عن المنطق وأُلقيت المزاعم الأكثر جموحاً، لكنّ الغموض التام ظلّ سيد الموقف. فهل صحيح أنّ أحمد هدّد أسمهان بمسدّسه؟ هل هدّد فعلاً بالانتحار؟ هل كانت أسمهان أيضاً تحمل مسدّساً؟ هل استنفر الشرطي بعد أن سمع صوت الشجار؟ هل نادته ماري قلادة التي كانت هناك لسبب مجهول؟ هل ذهبت أسمهان فعلاً إلى منزل تحية كاريوكا بين بداية الشجار وحادثة المسدس؟ ولماذا؟ هل اتّصلت كاريوكا فعلاً بأحمد قبل عودة أسمهان؟ من الذي أطلق النار؟ وعلى من؟ يبدو أن لا إجابات شافية عن كل ذلك. إنما الشيء الأكيد هو أن أسمهان وقعت هذه المرة في مأزق شديد. فالفضيحة خارجة عن المألوف وقد أثارت نقمة الناس. يا له من كابوس! شعرت أسمهان بالاختناق، وبأنه قُضي عليها. ولم يتسنَّ لها الوقت لتتعافى من صدمتها، فبعد أيام لقيت حتفها.



طُرحت افتراضات هي أبعد ما يكون عن المنطق.



وبازدراء صبّت لنفسها كأساً من الويسكي...



دفعها فشتمته، ضربها فسبّته.



انطلقت الرصاصة. لكن مَن أطلقها؟



دفعها فشتمته، ضربها فسبّته.

69

عيد ميلاد كاميليا / على طريق رأس البرّ

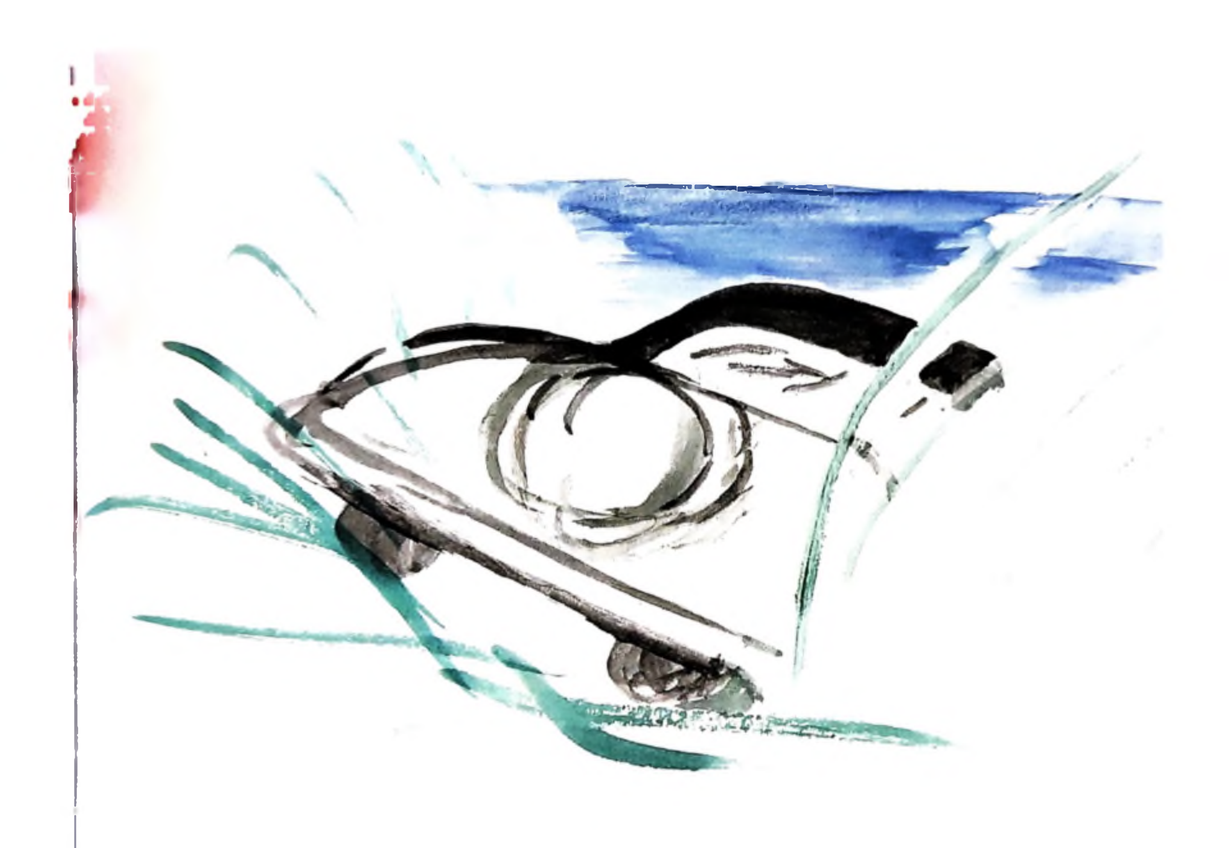
إنه الرابع عشر من تموز، عيد ميلاد كاميليا. كم تشتاق أسمهان لابنتها، خصوصاً في تلك اللحظات الصعبة! توقّف العمل على تصوير فيلم «غرام وانتقام» لبضعة أيام من أجل بناء ديكور مشهد النهاية الغنائية السعيدة. قرّرت أسمهان الاستفادة من ذلك للذهاب إلى رأس البرّ طلباً لبعض الراحة... فمن الصعب جدّاً استئناف التصوير بعد الأحداث الأخيرة. وما زال أحمد في المستشفى لكنّ الخطر زال عنه.

رافقتها ماري قلادة، وركبتا السيارة التي قادها سائق جديد، إذ كان سائق أسمهان، الذي استخدمته استوديوهات مصر، مريضاً. كانت أسمهان مكتئبة في الطريق الذي تعرفه عن ظهر قلب. تفكّر في ابنتها... لا بدّ من أنهم يحضّرون للعيد في السويداء. قالب الحلوى والهدايا... هنا، النيل وروافده، والقوارب، وأوراق البردي... راحت تدندن أول أغنية سجّلتها للفيلم، «ليالي الأنس في فيينا». لا تفارق هذه الأغنية بالها. إنها جميلة جداً، إنجاز فعلي. ألّفها فريد وكتب كلماتها أحمد رامي. إبتسمت مفكّرة: مسكين أحمد! ومسكين القصبجي! ليكن الله بعونهما! علمت أمس أنّ أم كلثوم عاجزة عن استيعاب الصدمة... المشهد المعتاد يمرّ أمام عينيها لكنها لا تراه... قصب، ونخيل وموز... «ليالي الأنس في فيينا، نسيمها من هوا الجنّة...». إنه لحن فاتن. فريد الحبيب! كم هو موهوب... يسيرون بمحاذاة قناة ريّ... كاميليا تُطفئ الآن الشموع في السويداء... بالتأكيد ترتدي فستاناً جميلاً... «ليالي الأنس... متّع شبابك في فيينا...» يقطعون كعكة العيد...

فجأة، انعطف السائق إلى اليمين، خرج عن الطريق، فتح بابه وقفز من السيارة. سقطت السيارة في القناة، غرقت في الماء، ثم اختفت. ولم يُعثر قطّ على السائق.



المشهد المعتاد يمرّ أمام عينيها لكنّها لا تراه.



خرجت السيارة عن مسارها وغرقت في القناة...



... فيما الصوت يردّد: «على الماء ولدت وفي الماء تهلكين!».

70

استعادة مستفاضة

من قتل أسمهان؟ فرضيّات كثيرة طرحت، وبينها حتى الأبعد عن المنطق. كانت الصدمة قوية لدرجة أن الشائعات الشعبية طالت حتى أم كلثوم، متّهمةً إياها بالتخلّص من منافستها الوحيدة! وطالت الشبهة الدروز بسبب مسائل الشرف التي نعرفها، وكذلك الإنكليز والفرنسيين والألمان لأسباب تتعلق بمصالح دولهم. واشتُبه بأحمد سالم من باب الثأر والغيرة. وقيل إنه الملك فاروق الذي طالما رفضت أسمهان محاولاته للتقرّب منها، كما اتُّهِمَت الملكة نازلي، وحسنين باشا والمايجور إيفت... حتى فؤاد وحسن لم يسلما من التهمة... وظلّ الغموض يلفّ القضية.

حال موت أسمهان دون إنجاز تصوير فيلم «غرام وانتقام». فعمد يوسف وهبي إلى تغيير السيناريو، فبدل النهاية السعيدة المفترضة والمشهد الموسيقي الكبير الختامي، وأنهى الفيلم بموت البطلة في حادث سيارة. كما غيّر مدخل الفيلم ليبدأ بمشهد مُستحدث أضفى عليه بعداً مأساوياً. في مستشفى للأمراض العقلية، يروي بطل الفيلم يوسف وهبي، المصاب بالجنون، قصته لمحلّلين نفسيين مهتمّين بحالته. ثم تُعرَض أحداث الفيلم كما أُعدّ وصُوّر أساساً، في استعادة مستفيضة لأحداث ماضية، من التقائه بسهير سلطان، النجمة، إلى هيامه بها حتى تحقيق الشهرة مروراً بالموسيقى والجريمة والمحاكمة والخيانات والثأر، وصولاً إلى وفاة سهير... وفي الفيلم الكثير من المشاهد أو التلميحات إلى حياة أسمهان الحقيقية. ففي زيارة إلى سوريا، تقيم بطلة الفيلم في فندق أوريانت بالاس في دمشق حيث نزلت أسمهان كما هو معروف مرّات كثيرة. كان ملحنو أغاني الفيلم هم أنفسهم في الحقيقة، السنباطي والقصبجي... وتكثر التلميحات وصولاً إلى طريقة موتها: حادث سيارة على طريق رأس البرّ.

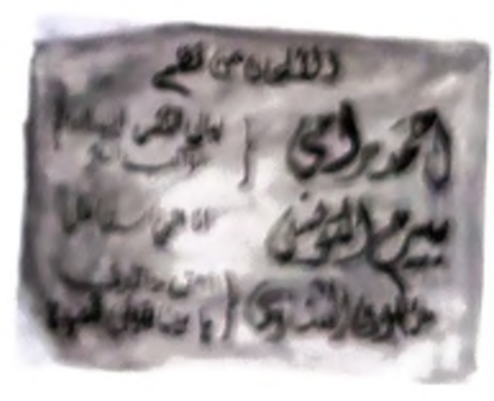
حقّق الفيلم نجاحاً كبيراً، وفي ليلة العرض الأول، الذي حضره الملك فاروق نفسه، تلا المشاهدون الفاتحة وقوفاً وقد استداروا إلى المقصورة المليئة بالزهور حيث كان من المفترض أن تجلس أسمهان. غداة ذلك تقاطر الجمهور إلى الصالات لمشاهدة هذه القصة التي تتطابق في الكثير من وجوهها مع الحقيقة، وليرى للمرة الأخيرة «فقيدة الفنّ أسمهان» كما ذُكِر في الملصق الإعلاني وفي مقدمة الفيلم. جاء لسماع ذلك الصوت الجارح الذي يُدمع العيون.



أقبل الجمهور على الصالات ليشاهد
هذه القصة المتطابقة مع الحقيقة.


مخلدة الفن
اسمهان


فريد الأطرش
رياض السنباطي
محمد القصبجي


أحمد رامي
بيرم التونسي





جسّدت في الفيلم شخصية نجمة غناء تدعى سهير سلطان.



انا اللى أستاهل





واغتنى هذا السيناريو المأساوي إلى أقصى حدّ...

امتى هاتعرف

ليالي الأنس

... بأغاني فريد والقصبجي والسنباطي الخالدة.



ينتهي الفيلم في مصح للأمراض العقلية حيث أدخل البطل
الذي أصيب بالجنون بعد وفاة النجمة.





صورة لسهير سلطان في حمى القرآن كما ظهرت في أحد مشاهد الفيلم،
وهي الصورة التي برزت لاحقاً على كل أسطوانات أسمهان بعد وفاتها.

جثمان سهير سلطان محمولاً في كفن إلى منزلها
بعد الحادث المفجع على طريق رأس البرّ.


سکوت
SILENCE

71

السينما المصرية

هو يغنّي وهي ترقص، وكلّ ما تبقّى متمّمات ثانوية. فمع دخول السينما الناطقة أرض النيل طغت فيها الأفلام الغنائية. عُرِضت الأفلام المصرية في كلّ أنحاء العالم العربي، من الشرق الأدنى إلى المغرب. باتت الموسيقى والرقص والأغاني أفضل قاسم مشترك يوحّد بين تلك المناطق التي لا تتكلّم اللهجات نفسها بالضرورة. حقّقت الأفلام الغنائية نجاحاً منقطع النظير، وبلغ الرقص الشرقي أوج ازدهاره. غزت تلك المشاهد الشهوانية الصالات وكانت أكثر إباحية بكثير ممّا كان يُصوّر حينئذٍ في هوليود. وما من حاجة إلى فهم اللهجة المصرية (الأكثر جاذبية وظرفاً في العالم العربي) للتمتّع برؤية سرّة تحية كاريوكا أو صوت عبد الوهاب. كانت سيناريوهات بسيطة لا أهمية كبيرة لها. الأهمية، كلّ الأهمية، للمغنّي الذي يحبه المشاهد ويذهب إلى السينما ليراه على الشاشة. عبر السينما وسّع المغنّون جمهورهم وزادت شعبيتهم. ومما يرويه يوسف شاهين أنه «لم يكن يُصوّر أي فيلم ما لم يتضمن رقصة وأغنية على الأقلّ»، وأي مخرج يحاول الخروج عن تلك القاعدة لا يتوصّل إلى التصوير، إذ ما إن يعرض على المنتج سيناريو معين، حتى يُسأل: «أين الرقصة؟» فيجيب:

- أي رقصة؟
- يجب أن يكون هناك رقصة وأغنية.
- هذا ليس فيلماً موسيقياً. من سيغنّي؟
- الممثلة الرئيسية، فاتن حمامة.
- لكن فاتن حمامة لا تغنّي!
- ندبلجها.

نعم! المهمّ الأغنية والرقصة لإرضاء الجميع. وبات الهدف الأساسي لأرباب الصالات هو أن يحصلوا على الفيلم التالي لهذا المغني أو ذاك، الذي يسطع نجمه على الراديو. أصبح فريد الأطرش، منذ نهاية الأربعينات على رأس المغنّين المطلوبين، وبقي كذلك لفترة طويلة.

تألم فريد كثيراً لوفاة أسمهان، كانت الصدمة مروّعة... أخته الصغيرة، توأم روحه... كانت قرابة الرابعة صباحاً عندما أُبلغ بالخبر، وكان كعادته كلّ ليلة، في إحدى صالات الميسر، فانهار، إذ شعر بضيق في صدره، وسط أوراق اللعب و«الفيش» وأعقاب السجائر والأكواب ومكعبات الثلج. ومذّاك راح يقامر أكثر، ويشرب أكثر، ويدخن أكثر... ويغنّي وحيداً... وغدا مُطرِبَ الوحدة!



بعد فيلم «ليلى»، أصبح كل فيلم مصريّ، موسيقيّاً كان أم لا،
يشتمل على مشهد راقص واحد على الأقلّ.



فيها من الإثارة أكثر بكثير مما كان يصوَّر في هوليود.





أصبح فريد الأطرش النجم الأهم في الأفلام الموسيقية.
في الصورة أعلاه، مع تحية كاريوكا.



كان يمضي لياليه على طاولات الميسر.



صورة له مع صورتين لأسمهان، صغيرة وشابّة.
افتقدها كثيراً.

72

نَزْل الأهرام

بدأت قصة الغرام بين فريد الأطرش وسامية جمال مع تصوير فيلم «إنتصار الشباب» الذي أدّت فيه وصلة رقص. لم تكن سامية قد تركت العمل آنذاك عند بديعة مصابني، وكانت ترقص في نزل الأهرام الشهير أمام نظرات الملك فاروق الشبقة.

يقع نزل الأهرام على طريق أهرام الجيزة، وهو عبارة عن فيلا قديمة حوّلها ألبير سوسا، المصري من أصل لبناني، إلى نزل. وكان السيد سوسا صاحب شركة للحديد المشغول يصنّع به ثريّات تُركّب عليها بلّورات من الباكارا المستورد من فرنسا. وكان هذا الطراز مقدّراً جداً في أوساط البورجوازية الكبيرة. وقد زيّن بها ألبير سوسا بعض صالونات القصور الملكية وأشرف على صيانتها. كما عُهد إلى شقيقه إدمون الذي كان بطل العالم في لعبة البليار، الاهتمام بطاولات البليار في القصر الملكي، فسنحت له فرصة مقابلة الملك، ومشاركته بعض جولات اللعب. وعلى أثر تناوله وجبة طعام سيئة في مطعم على طريق الأهرام، عاهد النفس على بناء نزل ينعم فيه الزوار بطعام لذيذ وضيافة حسنة، فأنشأ «نزل الأهرام». كان واسعاً ومزداناً بديكور على الطراز النورمانديّ القديم، تتدلّى على مساحة سقفه ثريات مؤسّسة سوسا، فشهد إقبالاً كبيراً منذ افتتاحه. وقد جرى التعاقد مع أوركسترا للعزف فيه ونظمت في أرجائه العروض الجذّابة، ثمّ الحفلات الرسمية. تحوّل النزل مسرحاً كبيراً يقدّم فيه أشهر النجوم عروضهم. وراح الملك فاروق يتردّد على المكان حيث حُجزت له طاولة بشكل دائم، وخصّص القصر شرطيين من الحرس الملكي يلازمان قاعة الاستقبال، كلّ ليلة، التصرّف في حال حضر الملك بشكل مفاجئ. كان فريد أيضاً من روّاد المكان.

ذاعت شهرة فريد كلاعب ليلي وسخيّ. وحين أُغرم بسامية جمال راهن على كل ما يملك. فحتى ذلك الحين كانت تلعب أدواراً ثانوية في مشاهد راقصة. فإذا به يخاطر بإنتاج فيلم «حبيب العمر» موظّفاً فيه كلّ مدّخراته امنحها دور البطولة إلى جانبه. وكسب الرهان. فقد بَهرت سامية جمال الجمهور بابتسامتها المشرقة ومظهرها الثائر والحديث. وحقّق الفيلم نجاحاً شعبياً ضخماً، ومعه نشأ ثنائيّ الأحلام.

كان التلفزيون الرسميّ في لبنان يعرض أحياناً، في سبعينات القرن الماضي، خلال فترة بعد الظهر، أفلاماً مصرية قديمة. ومن أروع ذكرياتي وأحلى لحظات نهاراتي في زمن الحرب ذاك، مشاهد رقص سامية جمال. كنت أستمتع برؤيتها وسماع اللهجة المصرية عندما يتسنّى لنا مشاهدة التلفزيون بين فترتين من انقطاع الكهرباء. حتى أخي الصغير، الذي كان يفضل مشاهدة مباريات كرة القدم على القناة الثانية، كانت عيناه تلتمعان عند مشاهدتها.



سامية ترقص أمام نظرات الملك فاروق الشبقة.



أسّس فريد شركته الخاصة للإنتاج السينمائي «أفلام فريد الأطرش»
لكي يعطي سامية دوراً إلى جانبه.



وهكذا رأى الثنائي الأسطوري النور...



«حبيب العمر» أوّل فيلم ظهرا فيه معاً...



... كشف للناس فتنة سامية وجمالها وموهبتها.


حبيب العمر



73

ثنائي الأحلام

واظب فريد وسامية على الغناء والرقص معاً وقدما للسينما المصرية عروضاً رائعة اكتسحت، بصوت فريد الدافئ ورشاقة سامية الساحرة، قلوب العالم العربي كله. وما همّ ما يدور بين مشهدين غنائيين!

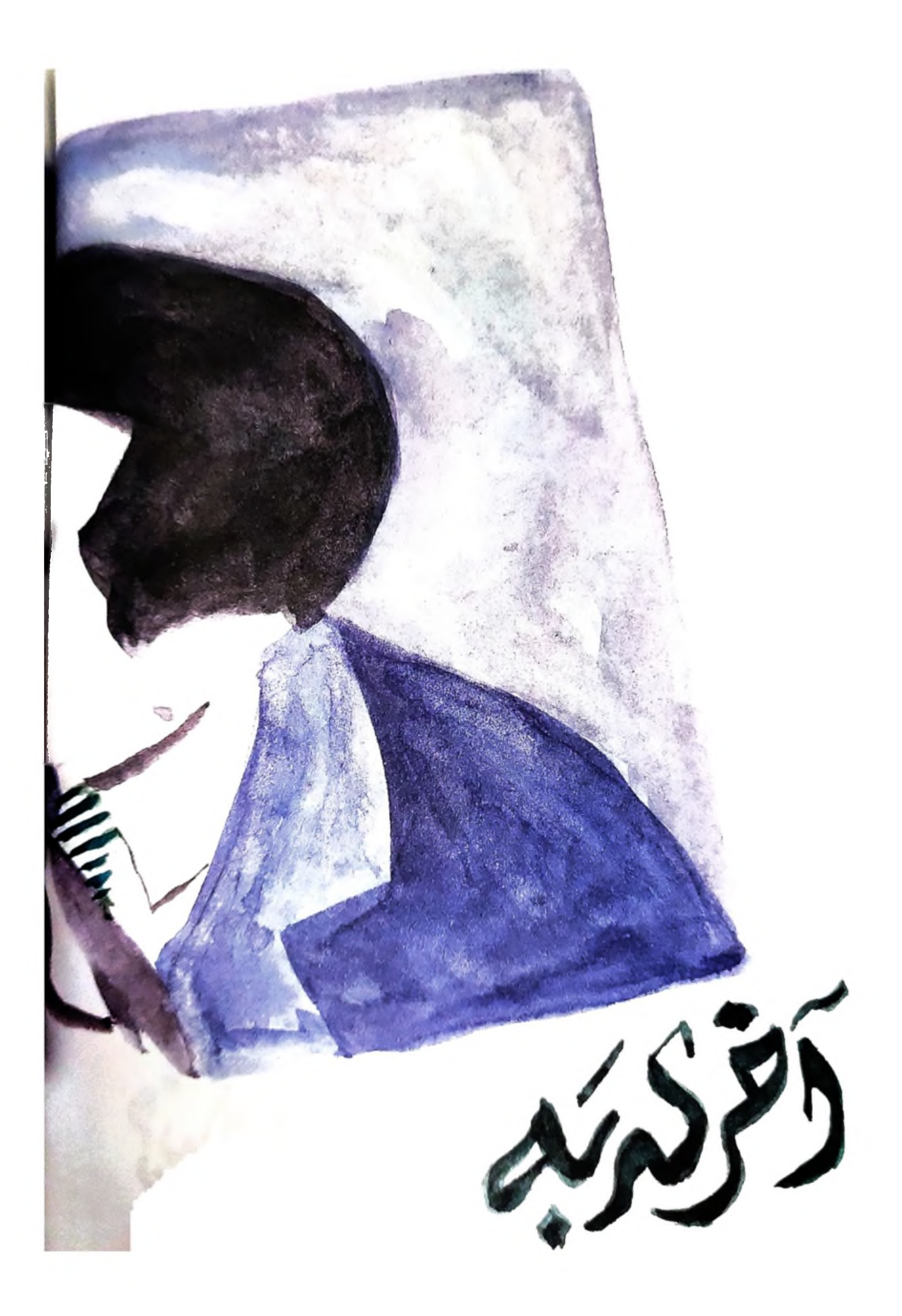
لم تقدّم السينما المصرية الغناء والرقص وحسب، بل انطوت أيضاً على احتفاء بالذات لا حدود له، وعلى إطراءات مبطّنة وتلميح مرهف وفكِه إلى الحياة الحقيقية. في حوارات أفلامه، خضع اسم فريد وشهرته للكثير من اللعب على الكلمات. إذ فتح اسم الشهرة «الأطرش»، بما يعنيه، المجال أمام كثير من الردود الطريفة أو الفكاهية في الحوارات. في فيلم «حبيب العمر» مثلاً، يردّ على سامية التي تصرّح له بحبّها: «أنا أطرش، أطرش، أطرش!». وفي فيلم آخر، حين لا يقوم بأي ردّة فعل في مشهد شجار بينهما، تصرخ بوجهه: «هو انتا أطرش؟»... وفي أفلامه أيضاً، بعد وفاة أسمهان، نجد الكثير من الإشارات «الرقيقة» إلى أخته، إضافة إلى تلميحات إلى شخصيات مشهورة أخرى في الوسط الموسيقي، أمثال السنباطي والقصبجي. تميّز فريد أيضاً بالظهور باكياً أحياناً على الشاشة، وهو أمر غير مألوف عند الرجال في تلك الفترة. فهل شوهد من قبل ممثل غربي في الأفلام الغنائية (أو غير الغنائية) يذرف الدموع؟

على الرغم من تراكم الأدوار والخبرة، ظلّ فريد ممثلاً رديئاً، لكن هذا لم يؤثر قط على نجاحه. فمستوى أداءاته الغنائية ونوعية الأغاني التي كتبها كانت كافية لتجعله حبيب الجمهور الذي صار يسمّي أفلامه باسمه: «رايحين نشوف آخر فيلم لفريد»، «إي متى حينزل فيلم فريد الجديد؟» وعلى الرغم من استياء المخرجين، تمكّن من فرض أغانٍ طويلة، طويلة جداً، تُزعزع إيقاع الفيلم وتُحرج مَن لا يغنّي من الممثلين معه، مثل فاتن حمامة التي أحسّت بالارتباك في فيلم «لحن الخلود» إذ كان عليها أن تقف طويلاً بجانبه كالصنم فيما هو يؤدي أغنية تدوم عشر دقائق. وصار كبار مخرجي الأربعينات والخمسينات، كأحمد بدرخان وهنري بركات ويوسف شاهين الشاب، يبنون أفلامهم على أساس أغانيه.

وإذ أصبحت سامية جمال الراقصة المفضلة عند الملك، الذي بدا أنّ لا شغل له سوى ارتياد قاعات العروض الموسيقية، سُمّيت، العام 1947، الراقصة الوطنية الأولى، وهو لقب ابتكره الملك فاروق خصيصاً لها.


فريد الأطرش


سامية جمال


آخر كربه



74

العملاقان يعتزلان السينما

بات فريد الأطرش وسامية جمال ثنائي السينما المصرية الأكثر حظوة، وحولهما تشاطر الكثير من النجوم حبّ جمهور يزداد اتّساعاً. وبلغت الأفلام الغنائية أوج ازدهارها. ومع ذلك اختار أهمّ مُطربَين في القاهرة، أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب، هذه اللحظة، للتوقف عن العمل في مجال السينما. ففي قمة عطائهما وشهرتهما، قرّرا معاً رغم تنافسهما، أن يضعا حدّاً لمسيرتهما السينمائية على الرغم من النجاحات الشعبية العظيمة التي حقّقتها أفلامهما. أراد عبد الوهاب أن يتفرّغ كلياً للتلحين، وبعد الأغاني الخفيفة التي ألّفها للسينما عاد إلى الموسيقى المركّبة والألحان الرفيعة. أما أم كلثوم فحصرت أعمالها بالحفلات الموسيقية، ويعود ذلك من جهة إلى الأذى الذي تُلحقه أضواء التصوير بعينيها الحسّاستين، ومن جهة أخرى إلى إدراكها أنها بالتمثيل لن تبلغ أبداً المجد الذي تتمتّع به كمغنية. وما دام منافسها عبد الوهاب قد تخلّى عن السينما، فلماذا تستمرّ هي؟

ومع ذلك، حقّق آخر فيلمين لها، «سلامة» و«فاطمة»، نجاحات كبيرة، وقد كتب ولحّن أغانيهما بيرم التونسي وزكريا أحمد اللذان ألّفا أيضاً، كتابةً وتلحيناً، أغاني حفلاتها الأخيرة، التي طغى عليها الشعور القومي العربي والمصري إزاء خيبة الأمل من الإنكليز والملك. كان هذا الأسلوب الجديد، فكرياً وموسيقياً، أقرب إلى اهتمامات غالبية الشعب المصري من أشعار رامي الرومانسية أو ألحان القصبجي التجريبية والتحديثية. نجح القصبجي في التوفيق بين ميول أم كلثوم المحافظة وطموحاته التطويرية في الموسيقى. ودفعه النجاح الكبير الذي حقّقه فيلم «نشيد الأمل» إلى الذهاب أبعد في فيلم «عايدة» الذي لم ينَل القدر ذاته من النجاح. وبذلك بدأت تزول حظوته عندها لصالح زكريا أحمد الذي لم يدم تعامله معها طويلاً، هي المتشدّدة جداً في مجال العمل والمعروف عنها تقتيرها في الدفع للمتعاملين معها. فقد اعتبر زكريا أحمد أنه يتقاضى أجراً متدنياً جداً بالقياس إلى أهمّيته واعتبر أن حقوق البيع عند شركة «كايروفون» لا توزّع بشكل عادل. واستتبع ذلك دعاوى قضائية. لكن فوق ذلك كلّه، رأى أن أم كلثوم استبدادية ومتطلّبة جداً ووافقه الرأي بيرم التونسي، وهي فكرة يوافق عليها الكثيرون. فهي فعلاً كذلك وخصوصاً مع أقرب المقرّبين إليها والأكثر إخلاصاً لها. أساساً، كانت قد منعت قبل مدة طويلة أحمد رامي من التعاون مع عبد الوهاب، مع أنه كتب له أغاني رائعة قبل أن يتعرف عليها. كما أنها لم تكن تسدّد له إلّا بشكل متقطع بدل القصائد التي تغنيها وبسعر زهيد جداً. ناهيك عن محمد القصبجي...



عبد الوهاب وأم كلثوم معاً في صورة دعائية للإذاعة المصرية.



إعتزل العمل السينمائي لأنه أراد أن يكرّس نفسه كليّاً للتأليف.
وكرجل أعمال محنّك...



... أنشأ شركة إنتاج خاصّة به وكتب الأغاني الخفيفة للأفلام التي أنتجها.



تدور أحداث آخر فيلم مثّلته أم كلثوم، «فاطمة»، في الزمن المعاصر.
حقّق الفيلم نجاحاً شعبيّاً ضخماً، لكنّ هذا لم يمنعها من اعتزال السينما نهائيّاً.


FIN



75

محمد القصبجي والمصير الظالم والغامض

ماذا جرى لمحمّد القصبجي؟ وما حقيقة المأساة التي حلّت به؟ يبقى هذا من أشدّ الأسرار التباساً في تاريخ الموسيقى العربية المعاصرة. وهو أكثر من سرّ خفيّ، إنه مأساة. ظلّ القصبجي على مدى خمس عشرة سنة الملحّن الحصري تقريباً لأم كلثوم، وهو من بلور الأسلوب الذي صقل شخصيتها الفنية ورفعها إلى ما بلغته من مكانة لا تضاهى. علّمها العزف على العود والغناء، وجعلها تنفتح على حساسية الموسيقى العربية العظمى وعلى أسرارها. قاد فرقتها الموسيقية بعد أن حفّزها على إنشائها... وتوّجت ابتكاراته التحديثية لكوكب الشرق بنجاح جليّ، مع أنها لا تتماشى مع ذوق أم كلثوم ذات النزعة المحافظة. سارت الأمور بينهما على أفضل مما يجري في أجمل الأحلام. فما الذي حدث إذاً؟ بعد الجرأة البالغة التي طبعت ألحانه في أوبرا «عايدة»، صدر الحكم بحقّ القصبجي. لكن هل هذا هو السبب الحقيقي؟ هل يعقل ذلك؟ اختارت أم كلثوم مُلحّناً آخر هو زكريا أحمد، لترفض بعد ذلك رفضاً مطلقاً كل أغنية عرضها عليها القصبجي. إحتقرته وعنّفته علناً. قست عليه لدرجة تستدعي الشك بأن سبباً آخر غير اختلاف وجهة نظريهما الموسيقية يكمن خلف سلوكها. حتى إنها عزلته من قيادة فرقتها الموسيقية وسلمتها إلى عازف القانون فيها، محمد عبده صالح. لهذه المعاملة بالغة القسوة تفسير تناقلته جميع الألسن: كوكب الشرق لم تتحمل تجرّؤه على التلحين لصوت آخر غير صوتها، صوت رائع وأنثوي وكامل، صوت مؤثّر وساحر، صوت أسمهان. هذا ما يدفع ثمنه الآن. لقد كتب لأسمهان أغاني حقّقت نجاحاً مدوياً، وهي من أجمل الأغاني التي لحّنها على الإطلاق، خصوصاً وأنها مختلفة جداً عن أغاني أم كلثوم! أغانٍ كانت لترفض أداءها، فاختار صوتاً آخر غير صوتها ليمضي قدماً بمشروعه التحديثي! وربما هذا هو أكثر ما ساء أم كلثوم. لكنّ أسمهان ماتت. قد يكون هذا أسوأ، فلو بقيت حية لما تمكنت من مجاراتها. أم كلثوم، لا أحد يجاريك. وليس لأحد أن يؤذيك، خصوصاً هذا الرجل الذي وضع عبقريته كلّها في خدمتك ونذر حياته لمجدك. في النهاية، منحته «فرصة أخيرة» ليؤلف لها ثلاث أغنيات لفيلمها الأخير «فاطمة»، فكانت أسوأ ما لحّنه على الإطلاق. لقد نضب معين عبقريته. ونهائياً. بعدها لم يضع القصبجي أي لحن لأم كلثوم ولا لأي مطرب آخر. لم يبقَ له إلّا أن يقضي عشرين سنة عازف عود في فرقتها الموسيقية، ليضيع كنقطة في بحر يزداد اتساعاً. وإذا بهذا الرجل، الذي طالما عدّه زملاؤه أحد عباقرة عصره، يُصبح مجرد عازف على آلة!

سأله مرة أحد الصحافيين كيف يمكنه تقبّل هذا الإذلال، فأجابه: «يا محمود، ده أنا أكبر أمنية في حياتي إني أموت وأنا بعزف وراها».



ظلّ عازفاً وراءها منذ حفلتها الأولى...





















76

القرار لأم كلثوم

في منتصف الأربعينات، بلغت أم كلثوم قمة مجدها. حتى أن القصر الملكي في بغداد منحها وساماً لا يسمح القانون بمنحه لامرأة، لكن القانون عُدّل لهذه الغاية. وصارت الفيلّا التي ابتنتها على ضفة النيل في حيّ الزمالك، وهي الرمز الصارخ لنجاحها، مقصد كلّ الشخصيات المعروفة في القاهرة، من أدباء وصحافيين وموسيقيّين، ناهيك عن الوزراء ووجهاء البلاط. وقد وطّدت نفوذها بطريقة لافتة في عالم الموسيقى، خصوصاً في الإذاعة المصرية. فبعد أن دخلت لجنة اختيار الأصوات التي تضمّ أهمّ المؤلفين الموسيقيين في تلك الحقبة، لم تلبث أن رأستها. ومن هذا المنصب المميّز، عملت على تأمين مصالحها الخاصة، وفرضت القرارات التي ارتأتها والناس الذين تحبّهم. هكذا، استحصلت من إدارة الإذاعة على قرار بإنشاء الاستوديو 35 المزوّد بأحدث أجهزة التسجيل في مصر، والذي جُهّز كلياً بحسب المواصفات التي أملتها. ولم يعد غيرها يُسمع على أثير الإذاعة، فعلت بعض الأصوات احتجاجاً على حضورها الطاغي. لم يشكّك أحد في تفوقها الذي لا جدال فيه، لكنّ البعض أراد تقليص نفوذها، والحدّ من سلطة قرارها. فحين كانت اللجنة تتردّد في اختيار مغنٍّ أو أغنية، كان الحسم يأتي دوماً على لسان أم كلثوم. وهذا ما تذمّرت منه سعاد محمد، المغنية اللبنانية الشابة ذات الموهبة الكبيرة، إذ صرّحت: «إن وزارة الإعلام كلها في خدمتها!».

ممّا لا شكّ فيه أنّ مديري البرامج قدموا لها أكثر مما قدموه لأي شخص آخر. لكنّ الحقيقة أيضاً هي أنه إذا كان هناك من استوديو بهذه الجودة في الإذاعة فذلك بفضلها. وقد استفاد منه آخرون...

لم تقف سلطتها عند هذا الحدّ، بل أرادت السيطرة في مجالات أخرى، وبأسوأ الأساليب. ترشّحت لرئاسة اتّحاد الموسيقيين بعد أن أمرت القصبجي، المرشّح أيضاً، بالانسحاب. ولَكَمْ ذُهل من شهدوا على ذلك الإذلال البالغ الذي تعاملت به مع الموسيقار الذي تدين له بالكثير. وما زاد من ذهولهم هو خضوع المرشد السابق التام لإرادته. فازت في الانتخابات رغماً عن المعارضة الشرسة التي واجهها بها بعض الأعضاء الذين لا يمكنهم تصوّر امرأة في هذا المنصب. أثبتت هذه المعركة الأخيرة لكلّ من ظلّ يشكّ في الأمر، شخصيتها القوية وحزمها في فرض آرائها وإدارة الأعمال بالطريقة التي تُرضيها. وكان من شأن مزاحها اللاذع، وبديهتها الجارحة، وسرعة غضبها، وأحكامها القاطعة أن دفعت مَن حولها، لا سيما أقرب الناس إليها، إلى لزوم جانب الحذر الدائم معها.



أم كلثوم على غلاف إحدى المجلات،
وهي تضع الوسام الذي منحها إياه الملك فاروق.



صورة لأم كلثوم على مدخل الفيلّا التي ابتنتها في حيّ الزمالك.



مرّت بها كلّ الشخصيات الكبيرة في القاهرة.



في الاستوديو مع رياض السنباطي.



التعليمات الأخيرة للموسيقيين قبل لحظةٍ من رفع الستارة.

77

فنجان قهوة مع السلطانة

في تلك المرحلة من مسيرتها، لم يكن عندها بالطبع ما تخشاه من العودة الصاخبة لتلك التي كان الجميع قد نسيها، منيرة المهدية، سلطانة الطرب. فمنذ العام 1927 الشهير، عام منيت أوبريت «كليوباترا» بالفشل الذريع، ابتعدت منيرة عن المسرح وعالم الموسيقى. ولكن، في العام 1948، استأجرت «كازينو بديعة» تحضيراً لـ«عودتها الكبيرة». وها هي السلطانة مجدّداً على المسرح! إنه لحدث رائع! وعدها مادحوها بزحف الحشود لحضورها وبالنجاح الأكيد. ونبّهوها من غضب أم كلثوم ومن احتمال أن تسعى حكماً لإلغاء الحفلة. لكنّ شيئاً من هذا لم يحصل، لا بل إنّ أم كلثوم حضرت الحفلة دعماً لمنافستها السابقة. وكانت الصفعة! فقد هالها ما شاهدته ولم تستطع تحمله. في الصالة، راح السكيرون والماجنون يطلقون الصيحات المُنْكرة ويتجشأون ويقهقهون عالياً ويكسرون الأواني بينما منيرة تتلو آيات قرآنية بصوت بالٍ مرتبك... تأثرت أم كلثوم كثيراً لما آل إليه مصير تلك المرأة، كان الله بعونها، بعد أن كانت معبودة الجماهير في القاهرة. دمعت عيناها لهذا السقوط الفظيع الذي جعلها تدرك فجأة هشاشة المجد الذي تعيشه.

بعد فترة، قامت بزيارة منافستها السابقة في عوامتها تعبيراً لها عن تعاطفها. قدّمت لها منيرة القهوة، لكن قبل أن تعطي الفنجان لأم كلثوم، وبطريقة احتفالية ارتشفت قليلاً منه وقالت لها مبتسمة: «إطمئني، لا سمّ في الفنجان. هذا لأنّ المدينة كلها تعتقد أن عندي من الأسباب ما يدفعني إلى قتلك...». لم تفقد السلطانة خفّة ظلّها المشهورة.



78

كوكب الشرق

تجسّد أم كلثوم نموذجاً شرقياً راسخاً في التقاليد ومنفتحاً على التجديد في آنٍ معاً. لا هي رجعية ولا منقادة بشكل أعمى للغرب. وقد اكتسبت هذه الكيمياء السحرية بحكم عنفوانها وسلطتها واتّخاذها وحدها القرارات التي صقلت شخصيتها. تجلّى نفوذها المطلق أثناء الإعداد للأغنية. كانت تختار بنفسها النصّ والملحّن، وتجري التصحيحات التي تريدها في الكلمات والموسيقى. تختار الأبيات وتعيد ترتيب الجمل وتستبدل الكلمات... وأحياناً لا تُبقي إلّا اثني عشر بيتاً تغنيها من قصيدة تتألف من اثنين وسبعين بيتاً، تنتقيها بحسب رغبتها. في العام 1946، فاجأت الجميع عندما قرّرت بمفردها، وبالرغم من معارضة المقرّبين منها، أن تضمّ إلى سجلّها سلسلة من قصائد أحمد شوقي، أمير الشعراء، الذي توفي قبل خمسة عشرة سنة. وأكثر ما أثار الاستغراب في قرارها هو أن القاهرة جمعاء تعرف طبيعة العلاقة الاستثنائية التي ربطت شوقي بمنافسها الأكبر، محمد عبد الوهاب! فكيف سيتعامل هذا الأخير مع هذه الصدمة؟

لم يكن هذا همُّها، وقد عهدت إلى السنباطي بتلحين هذه القصائد. حصدت ألحانه الكلاسيكية الحديثة نجاحاً ضخماً. وبمعزل عن اللحن بحدّ ذاته، جدّد السنباطي في تشكيلة الأوركسترا واختيار الآلات. أضاف ثماني كمنجات وعدداً من الفيولونسيل والنايات والكونترباص، ووسط كل ذلك تاه عود القصبجي أكثر فأكثر. حظيت الفرقة الجديدة باستحسان كبير، وولّدت قصائد أحمد شوقي صدى غير متوقّع في أوساط الجمهور. ففي زمن الشعور القومي المتنامي، والاستياء من الوجود البريطاني وتعسّف الملك فاروق، بدت حفلاتها أشبه بمظاهرات سياسية، وتحوّلت بعض الأبيات إلى شعارات كالبيت القائل:

وما نيل المطالب بالتمنّي ولكن تؤخذ الدنيا غِلابا

راح الناس، حتى الأمّيون منهم، يردّدون في الشوارع والحدائق والمقاهي، هذا الشعر العظيم. وبدا للكثيرين منهم أن أم كلثوم صاحبة رسالة، رسالة تثقيف الشعوب العربية، حتى باتت تجسّد مصر من خلال تعلّقها بالقيم الوطنية واهتمامها بالفقراء والفلاحين، وسمعتها التي لم تُثلم، واختيار ألحانها ونصوص أغانيها، وصوتها الأصيل.

لم تكن هذه آخر مفاجآتها لجمهورها والمقرّبين منها. إذ لم يكد الجميع يستوعبون خيارها الجديد، حتى ألقت عليهم بمفاجأة جديدة مدوّية. كان أحمد رامي قد أنجز ترجمة رباعيات عمر الخيّام، فقرّرت غناءها. وإذا بالفم الذي تمرّس بتجويد القرآن، يصدح بهذه الأبيات التي تتغنّى بالنشوة والملذّات... ولم يكن لأحمد رامي إلّا التمتّع بهذه الجرأة الهائلة التي كان هو مُلهمها.


كوكب الشرق
أم كلثوم





النشوة والملذّات من فم تمرّس بتجويد القرآن...



... ولم يكن لأحمد رامي إلّا التمتّع بهذه الجرأة الهائلة التي كان هو مُلهمها.
رباعيات الخيام منقولة إلى اللغة العربية.

79
تجدّد حرب فلسطين

ثمّ جاءت الصدمة. حدث ما لم يخطر ببال ولم يكن في الحسبان. ففي فلسطين، أعلن الصهاينة رسمياً، على لسان دافيد بن غوريون، إنشاء دولة يهودية، ولم تلبث مصر أن خاضت الحرب منذ اليوم التالي، إلى جانب العراق والأردن وسوريا ولبنان.

تعرّضت الجيوش العربية، بفعل انقسامها على نفسها وقلّة تدريبها وأسلحتها البالية أو الناقصة، لهزيمة نكراء، في ما عُرف بـ«النكبة». هُجّر الفلسطينيون من أرضهم، وعاد الجنود المصريون في حالة من الذلّ والاشمئزاز. عُزيت النكبة إلى النظام الملكي الفاسد ولطّخت قضية الأسلحة الفاسدة القصر. وحدهم عناصر إحدى الفرق عادوا عودة الأبطال، بعد أن قاوموا طوال ثلاثة أشهر الحصار الذي تعرّضوا له في الفلّوجة، رافضين الاستسلام. فما كان من أم كلثوم، تعبيراً عن دعمها لهم، إلّا أن دعتهم إلى احتفال عندها في الفيلا أحيته على شرفهم. بضغط من الإنكليز، طلب منها وزير الدفاع العدول عن هذه الفكرة، فجاء ردّها حازماً: «لقد أطلقت الدعوة. فإن أردتم المجيء فأهلاً وسهلاً بكم. وإن لم تحضروا فهذا خياركم. أما الآخرون فقد دعوتهم لأعبّر لهم، بصفتي مواطنة مصرية، عن امتناني لهم على نضالهم وتضحياتهم في سيناء وفلسطين».

كان عدد من أبطال الفلّوجة منتمين سرّاً إلى مجموعة من الضباط المستائين، تأسست عام 1945، هي حركة الضباط الأحرار. وكان أحدهم نقيباً شاباً يُدعى جمال عبد الناصر. وفي هذا الاستقبال كان يُفترض أن يتم اللقاء الأول بين أم كلثوم وعبد الناصر، لكنّ الشاب الذي جُرح في الجبهة كان في المستشفى.

أثارت حرب فلسطين سخط هذا الضابط الشاب الذي كتب: «كنا نلاحظ انعداماً تاماً في التنسيق بين الجيوش العربية. فلا قيادة عليا تُدير المعارك، كما تبيّن لنا عدة مرات أن أسلحتنا لم تكن صالحة للاستعمال. وفي خضمّ المعارك، تلقّت فرق الهندسة في الجيش أمراً بالمباشرة ببناء «شاليه» استجمام للملك فاروق في غزّة! وفيما نحن نقاتل في فلسطين، كان السياسيون يتاجرون بتجهيزات الجيش ويكدّسون الثروات».



أم كلثوم في صورة مع **أ**بطال الفلوجة في فيلّاها.



رأى عبد الناصر مع بعض الضباط الآخرين في إذعان الملك للإنكليز نوعاً من التذلّل، ومما قاله لاحقاً: «بذلت كلّ جهودي لتشكيل خلية أشخاص يشعرون مثلي بالاستياء من الأحداث الجارية في مصر، أشخاص يتحلّون بما يكفي من الشجاعة والتصميم لإنجاز التغيير اللازم». كان الملك فاروق قد منح عبد الناصر وسام الحرب لاستبساله على الجبهة. لكنّ هذا لن يمنع من أن يصبح الملك الهدف الأوّل للضباط الأحرار بعد عودتهم من فلسطين.

الملك فاروق يمنح العقيد الشاب عبد الناصر وسام الحرب.





كان بعض المدعوّين في تلك الأمسية يشكلون جزءاً من مجموعة ضباط
ستُعرف بـ«حركة الضباط الأحرار».



بعد عودة الضباط الأحرار من حرب فلسطين بات الملك فاروق هدفاً رئيسياً لهم.

80

ليلى مراد وأنور وجدي يتزوّجان ثلاث مرّات

في أواخر الأربعينات، كانت ليلى مراد في أوج شهرتها. فمنذ أن غنّت إلى جانب عبد الوهاب راحت تمثّل الفيلم تلو الآخر، وحقق معظم أفلامها نجاحات كبيرة، حتى باتت النجمة الأكثر شعبية في العالم العربي. وكان الجميع يعرف أنها يهودية. وما كان قيام دولة إسرائيل والحرب في فلسطين ونكبة فلسطين، ليغيّر شيئاً في عشق الجمهور لنجمته المحبوبة. كان اليهود المصريون يلعبون دوراً ريادياً في الاقتصاد والثقافة والفن والتجارة في بلدهم، واتّخذت مصر موقفاً مترفقاً بجاليتها اليهودية التي كانت معادية للصهيونية بشكل عام. وقد اتخذت جمعية الشبيبة اليهودية المصرية منذ تأسيسها العام 1935 شعاراً لها «مصر أمتنا والعربية لغتنا». لكن منذ إنشاء دولة إسرائيل العام 1948، أصبح الموضوع حسّاساً بعض الشيء لكن بدون تغيير كبير. أسفت ليلى على التوترات الناتجة من هذا الوضع المرعب لكنها لم تشعر أنها معنية به فعلاً، إذ لم تجد أي رابط بينها وبين هؤلاء الوحوش القادمين من أوروبا الشرقية، الذين يعيثون فساداً في فلسطين.

لعبت ليلى الكثير من الأدوار باسم... «ليلى» فكانت «ليلى بنت الأغنياء»، و«ليلى بنت الريف» و«ليلى بنت المدارس»... وقد أخرج فيلم «ليلى بنت الفقراء» أنور وجدي الذي مثّل إلى جانبها فيه. تزوجها في الفيلم، ثمّ... عند انتهاء التصوير. كانت تلك بداية سلسلة من الأفلام التي مثّلاها معاً وشكّلت أفضل أفلام ليلى مراد. لكنها كانت للأسف بداية حياة زوجية مضطربة جداً إذ تزوجا وتطلّقا خلالها ثلاث مرات. فقد تمكّن وجدي، شديد الطموح، بفضل جرأته وطاقته وذكائه، من الارتقاء سريعاً في السينما المصرية. إرتقى من مسؤول عن لوازم التصوير، ليُصبح أحد الوجوه البارزة التي لا يمكن تجاهلها. وما زواجه من ليلى مراد النجمة إلّا تتويجٌ لكلّ هذا الدأب. إلى جانب صحته الضعيفة ومزاجيته وعدائه تجاه المتعاونين معه، اشتهر وجدي بغضبه ونوباته الهستيرية، وكانت زوجته أولى ضحاياه. إذ كان معها غضوباً وغيوراً وجشعاً وعنيفاً. أراد أن يكون وحده المخرج والممثل إلى جانبها، كما أدار عقودها وأرباحها الضخمة. وممّا زاد الطين بلّة أنه كان يخونها...

كان ذلك كابوساً... لكنه لا يُقارن بما ستعيشه ليلى بعد بضعة سنوات.



ليلى مراد انور وجدى

ليلى مراد وأنور وجدي في أحد الأفلام التي مثّلاها معاً.



أفلامهما حققت نجاحاً جماهيرياً كبيراً: «ليلى بنت الفقراء»، «أنا قلبي دليلي»، «حبيب الروح»، «غزل البنات».



زواجه من ليلى مراد، أهمّ نجمة في السينما العربية، جاء تتويجاً لمسيرته اللامعة.



Victoire de la jeunesse

إنتصار الشباب





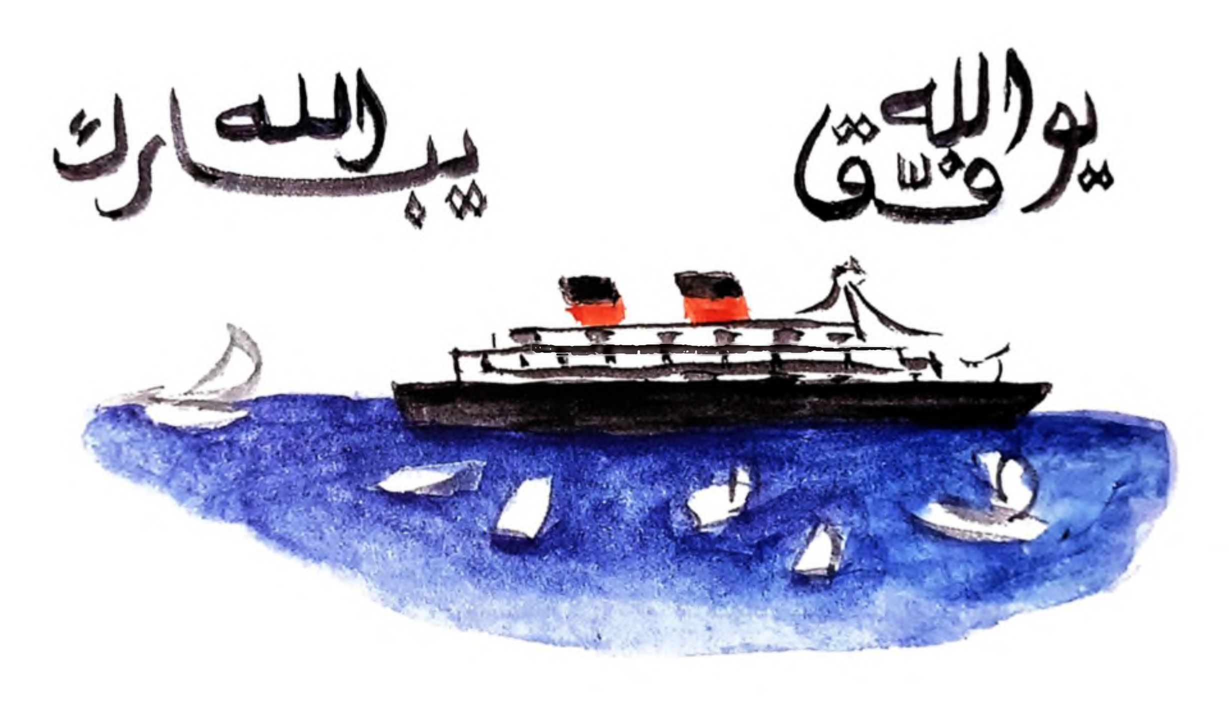


كان قد لعب دور خطيب أسمهان في الفيلمين الوحيدين اللذين مثلتهما،
ودور زوج أم كلثوم في فيلمها الأخير. وهل أفضل من ذلك؟

81

كاد المرض...

منذ سنوات وأم كلثوم تعاني المرض. خصّصت الصحف زاوية خاصة ثابتة لأخبار وضعها الصحّي. صحيح أنّها عانت من عينيها والكبد والنوبات العابرة... لكن أن تُصاب بورم في عنقها، قد يعني سرطاناً في الحنجرة بحسب تشخيص طبيبين مختصّين استقدمهما القصر من الخارج، فهذا أمر آخر. في الحنجرة! يا له من مكان حساس! تلقّت الصحف مذكرة طبية للنشر تفادياً للتخمينات المجانية. عندما تقرّر إخضاعها لعملية جراحية في أميركا، أصيبت مصر بصدمة قوية واحتشد الناس أمام منزلها، فأقامت الشرطة الحواجز حول الفيلا. زادت إصدارات الصحف وعمّ القلق أرجاء البلاد. أما من في محيطها، مثل رامي والقصبجي وغيرهما فقد هالهم الأمر وصعقهم القلق، فيما دمّر الذعر أم كلثوم. الذعر من الموت أو من فقدان صوتها، والأمران سيان. وجاء اليوم الحاسم. أجريت لها العملية في مستشفى البحرية في الولايات المتحدة حيث، كما يُقال، لا يستقبلون أشخاصاً من خارج الجيش الأميركي إلّا بإذن من رئيس الولايات المتحدة. وراح أحد الشيوخ يتلو الآيات القرآنية على الإذاعة ويدعو كلّ مصري للصلاة من أجلها. عاشت البلاد كلها على توقيت واشنطن. حتى في بيروت، عاش الناس لحظات القلق تلك. يذكر جدّي أنه في ذلك اليوم أرسل عدّة برقيات إلى أصدقائه المصريين ليؤكد لهم تأثره وتعاطفه. «ليكن الله بعونها»، «أطال الله عمرها»، «لا حول ولا قوة إلّا بالله». وصوت المراسل المبعوث خصيصاً إلى أميركا لتغطية الحدث لا يكاد يُسمع عبر جهاز الراديو المخشخش. لقد بدأت العملية قبل قليل. عند منتصف الليل، كان المصريون لا يزالون متحلّقين حول أجهزة الراديو حابسي الأنفاس. كان الورم خبيثاً، لكنّ العملية نجحت، فتنفسوا الصعداء. عندما عادت خرجت المراكب من مرفأ الإسكندرية لاستقبال الباخرة التي تعيدها إلى البلد. وفي القاهرة، استقبلتها مواكب السيارات وسيمفونيات المزامير والزغاريد والأرزّ والزهور وهتافات الفرح التي صدحت بها الجماهير المتأثرة المحتشدة على طول الطريق التي سلكتها سيارتها.



خرجت المراكب من مرفأ الإسكندرية لاستقبال الباخرة التي تعيدها إلى الوطن.

82

سعاد محمد

ثمة شابة وصلت حديثاً إلى القاهرة قادمة من بيروت. سعاد محمد. كثيرون سمعوا باسمها، والجميع لم يرتوِ من الاستماع إلى صوتها. إنه صوت استثنائي وموهبة لا لبس فيها وقدرات صوتية لافتة ونادرة. صوت قيل إنه، باستثناء صوت أم كلثوم، أجمل أصوات القرن! قيل أيضاً إنه قد يهدد حتى عرش أم كلثوم! إشتهرت هذه الصبية في بيروت حيث كانت تؤدّي في مسرح الريكس أغاني... أم كلثوم تحديداً، حتى إنّ بعضهم فضّل طريقتها في أداء تلك الأغاني... وكما حصل مع غيرها من المغنيات قبلها، صبّ كبار ملحني القاهرة اهتمامهم عليها فراحوا يعطونها الدروس ويمرّنون صوتها ويعلمونها ويثقفونها... من هؤلاء زكريا أحمد، والسنباطي... لقد وقعوا على كنز... يجب تدريب هذه الصغيرة وإدارة صوتها وصقل شخصيتها وتوفير الفرص لها كي لا تضلّ الطريق...

ولكن، للأسف، هذا ما حصل تحديداً. وستوجَّه أصابع الاتهام إلى أم كلثوم، بأنها هي التي قضت على مسيرة سعاد محمد... فمن دون رغبة أم كلثوم لا يمكن لأيِّ مغنٍّ شاب أن يغني عبر الإذاعة، وإن لم تُرد، لا يمكن لأي ملحن أو شاعر أن يؤلف له أغنية... لا شك في أن أم كلثوم حاربت سعاد محمد في معركة غير متكافئة. لكن غالباً ما يكون الإنسان هو عدوّ نفسه الأوّل، علماً أن سعاد بدأت بداية جيدة. فعندما وصلت إلى القاهرة، مثلت في «فتاة من فلسطين»، الفيلم الأول عن أحداث فلسطين. ولم يكن عماها مع أيٍّ كان، فعزيزة أمير الشهيرة هي المنتجة ومحمود ذو الفقار هو المخرج، والأغاني للسنباطي وبيرم التونسي... كان يُفترض أن يسير كلّ شيء نحو الأفضل. إلّا أن الأمور لم تسر كما يجب، ولم تبلغ سعاد المكانة التي تستحقها في سماء الشهرة. يعود ذلك بشكل أساسيّ إلى مزاج سعاد نفسها وشخصيتها. فبعكس أسمهان التي قضت على نفسها في سهر الليالي والكحول والعشاق والفضائح، كانت سعاد محمد مصابة بمرض يبدو أنه لم يصب أية مغنية أخرى بهذا المستوى. فهي، بطبعها الهادئ والودود، كانت تميل أكثر نحو الاستكانة في منزلها والاهتمام به وبتربية أولادها. أنجبت عشرة منهم، ستة من زواجها الأول الذي تمّ وهي في الخامسة عشرة من عمرها، وأربعة من زواجها الثاني. وأقلّ ما يمكن قوله هو أنها لم تعرف كيف تغتنم الفرص... يكفي اليوم سماع إحدى أغانيها لإدراك حجم هذه الخسارة الفادحة...



كان يُفترض أن يسير كلّ شيء نحو الأفضل. إلّا أنّ الرياح لم تجرِ كما تشتهي السفن.

83

نور الهدى

كثيرات هنّ اللواتي حاولن أن يحللن محلّ أسمهان بعد وفاتها. وقد أتين في معظم الأحيان من سوريا ولبنان، لكنهن فشلن حتى في التحول إلى صورة باهتة عنها. لا أحد يمكنه أن يضاهي أسمهان. لكنّ شابتين لبنانيتين تمكنتا، ومنذ منتصف الأربعينات، من فرض مكانتهما بسرعة في عالم السينما المصرية الغنائية المتألقة، هما نور الهدى وصباح.

ولدت ألكسندرا بدرأن في بيروت في عائلة مسيحية. لم تكن تحلم في العاشرة من عمرها إلّا بعبد الوهاب وقد أولعت بنجم القاهرة. ولكم خدشتها أشواك الورد وهي تتسلل عبره إلى آخر الحديقة للاستماع إلى أغنية «يا جارة الوادي» على فونوغراف الجيران. في المدرسة، كانت تغني بشكل رائع لدرجة أنهم اقترحوا عليها إقامة حفلة عامة. ولخشية والدتها من أن يمنعها والدها من ذلك، انتظرت ذهابه إلى طرابلس لتصريف بعض أعماله لتبلغه الخبر بالهاتف. إلّا أن الوالد عاد فوراً إلى بيروت لشدة غضبه ووصل في الوقت المناسب لينزل ابنته عن المسرح وهو يجرّها من شعرها. ومذّاك لم يعد يذهب إلى طرابلس إلّا برفقة ألكسندرا، يسجنها هناك في غرفة الفندق ويفرض عليها قراءة بعض الكتب أثناء إنجازه أعماله. وللتأكد من أنها قرأت ما طلب منها قراءته، كان يطلب منها عند عودته أن تحكي له القصص التي قرأتها. والحقيقة أن ألكسندرا لم تكن تقرأ طوال تلك الساعات، بل كانت تغني. ثم تروي لوالدها عند عودته قصصاً من نسج خيالها لا يفقه منها شيئاً. وجرت الأمور على هذا المنوال لبعض الوقت. لكنّ أعمال الوالد تدهورت، فلم يعد يثير الكثير من المشاكل إذا ما غنّت ألكسندرا أمام الناس، طبعاً، شرط أن يرافقها دائماً. حققت الصبية نجاحاً متزايداً، والحقّ يقال إنها كانت ذهبية الصوت رائعة الجمال.

كان يوسف وهبي مارّاً بحلب عندما حضر صدفة عرضاً تغنّي فيه. إنبهر بصوتها وطلب مقابلتها عند نهاية العرض، مع والدها طبعاً. فتنته هذه الصبية وعرض عليها القدوم للعمل في القاهرة. لم يوافق والدها إلّا بعد أن اشترط مرافقتها، وهذا ما كان. ثم رأى وهبي أن تعطى اسماً آخر. فطلب منها أن تسحب من قبعة ورقة من عدة أوراق مطوية تحمل أسماء مستعارة. فخرجت بيدها ورقة باسم «نور الهدى» الرائع. دفعها الفضول إلى معرفة ما كانت الخيارات الأخرى، ففتحت بعض قصاصات الورق الأخرى في القبعة ووجدت إحداها تحمل اسم «صباح».



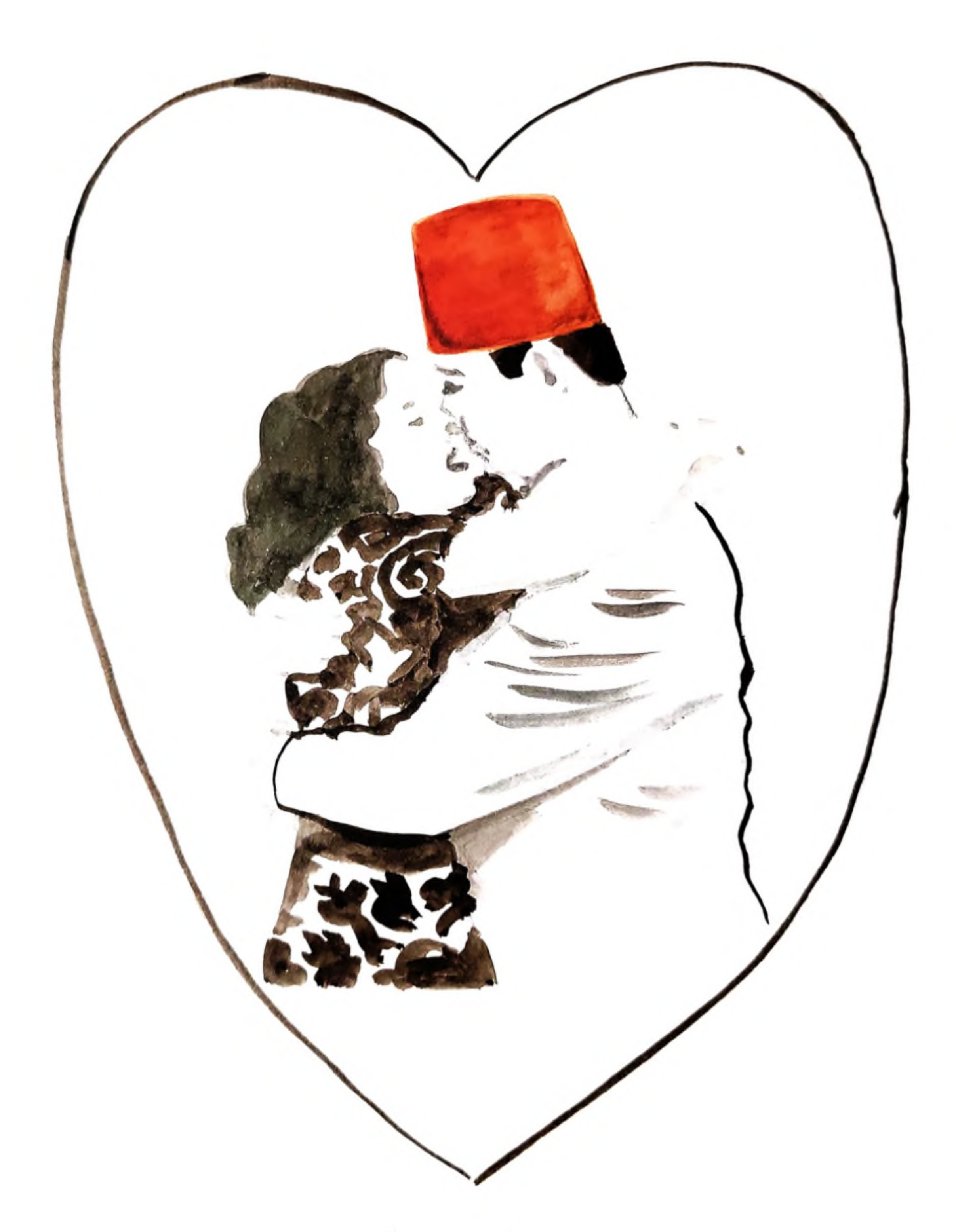
... خرجت بيدها ورقة باسم «نور الهدى» الرائع.

84

قبلة على ثغر عبد الوهاب

بعد أن وقعت نور الهدى عقداً لمدة خمس سنوات، لعبت في فيلم «جوهرة» دورها الأول الذي جعل منها إحدى أهم نجوم السينما المصرية على مدى عشر سنوات تقريباً. كما لقّبت بالصوت الذهبي وسجّلت الكثير من الأسطوانات ومثّلت أفلاماً مع كبار ممثلي ومخرجي تلك الحقبة. كثير من الأفلام وكثير من الأسطوانات وكثير من شركاء التمثيل. إنما ليس الكثير من الأزواج ولا العشاق. ظلّت ذات سمعة مثالية ونموذجاً للفضيلة، ترفض حتى تقبيل شركائها في التمثيل أو ارتداء ملابس مثيرة. أرادت، بحسب ما اعترفت بنفسها، أن تموت عذراء كما وُلدت.

في الواقع، لازمها والدها كظلّها طيلة عشر سنوات. كان موجوداً دائماً في أماكن التصوير في كلّ أفلامها. حتى إنه تدخّل في كتابة السيناريوهات وحال دوماً دون اقتراب زملائها الممثلين منها، لا هم ولا أي رجل إطلاقاً. كان من أولئك المؤمنين بأنّ شرف الفتاة مثل عود ثقاب، لا يُشعل سوى مرة واحدة. لكنه أخطأ التقدير بالنسبة إلى نور الهدى، التي لم تشتعل ولا حتى مرة واحدة. فالعصفورة ذات الصوت الذهبي ظلّت سجينة القفص نهائياً، لتعود إلى لبنان في مطلع الخمسينات برفقة والدها. لم يعد لديها ما تفعله في القاهرة، بعد أن حقّقت أغلى أمانيها، وهي أن تمثّل إلى جانب الرجل الوحيد الذي أولعت بغرامه، محمد عبد الوهاب، في آخر فيلم له «لست ملاكاً»، وهو الرجل الوحيد الذي سمحت له بتقبيلها على شفتيها، في المشهد الأخير من هذا الفيلم.



وهل أجمل منه حلماً؟

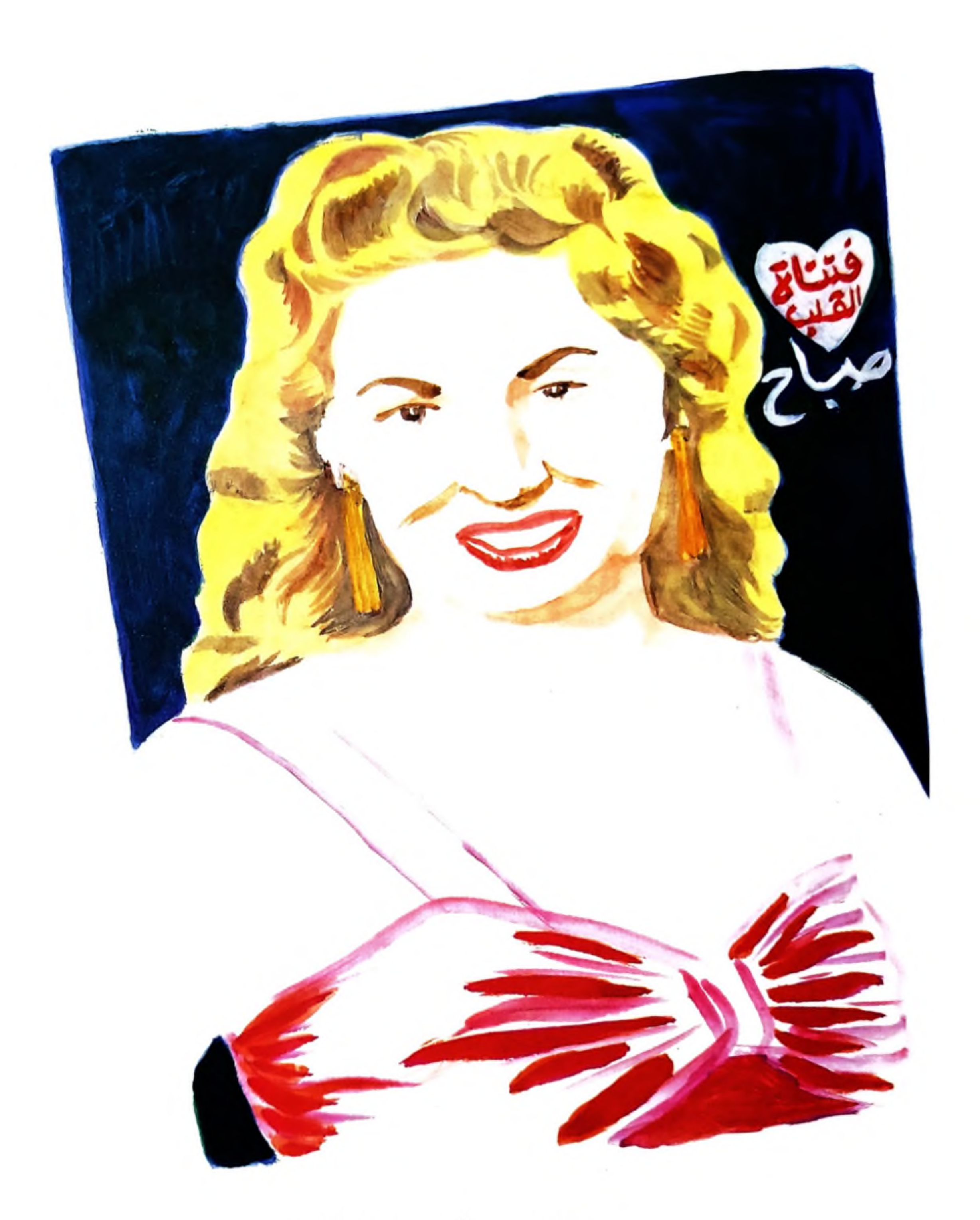
85

صباح

صباح كانت أقل شراسة، كما اتضح من سلوكها طوال مسيرتها الفنية. فقبل أن يصل عدد زيجاتها إلى الثماني أو العشر، وقبل أن تبلغ عمليات التجميل التي أجرتها العشرين أو الثلاثين أو حتى الأربعين، وقبل أن تصل إلى مرحلة تصفيفات الشعر الصادمة، وإلى قمّة الابتذال، كانت صباح صبية جميلة، باسمة، لطيفة، كريمة، سويّة وبسيطة، قدمت من جبل لبنان، لتصبح معبودة الجماهير.

ولدت جانيت فغالي في قرية وادي شحرور اللبنانية المسيحية، ولذلك أُطلق عليها لاحقاً لقب «الشحرورة». كانت طويلة القامة، ممتلئة الجسم، بيضاء البشرة، ذات شعر كستنائي جميل وأسنان ناصعة البياض، وابتسامة مشرقة، وعينين متألقتين ونظرة جريئة. كانت تبدو كإحدى الممثلات الأميركيات، جانيت ماكدونالد مثلاً. نعم، هي بالفعل تشبه جداً جانيت ماكدونالد، مع تطابق الاسمين بشكل غريب. لكن التشابه بينهما ليس محصوراً بذلك وحسب، فجانيت فغالي تتمتع أيضاً بصوت مميّز... وفي العام 1944 استقدمت آسيا داغر، التي كانت بحاجة إلى لبنانية مغمورة تتقن الغناء لتمثل في أحد إنتاجاتها، جانيت إلى القاهرة بعد ثلاثة أشهر تحديداً من وصول نور الهدى. و«صباح» هو الاسم الفني الذي اختير لها.

كان لبنان نال استقلاله حديثاً بفضل انتفاضة بشارة الخوري ورياض الصلح ضد الفرنسيين، واللذين تحولا، بعد عودتهما من قلعة راشيا حيث اعتقلا، إلى بطلَي مناهضة الاستعمار في كلّ العالم العربي، وجعلا لبنان، بفضل الميثاق الوطني الشهير الذي وضعاه، في مكانة رفيعة لم تُخفِ صباح فخرها بها عند وصولها إلى القاهرة.



صورة دعائية لصباح في أواخر أربعينات القرن الماضي.

86

من طبيعة فريد الأطرش نفسها

لم تمضِ بضعة أشهر على وصول صباح حتّى مثلت إلى جانب فريد الأطرش نفسه! فبعد أن توقف عبد الوهاب عن العمل في مجال السينما، أصبح حلم كل طامحة إلى النجومية أن تشترك في التمثيل مع فريد الأطرش. إنها بطاقة دخولها عالم الشهرة. فإلى جانب كونه نجم القاهرة الكبير ومثال الأغنية والممثل الشهير والملحن الكبير والمنتج النافذ، أحاطت بفريد، في نظر صباح الفتية، هالة مميزة نظراً لأصوله اللبنانية. ففي وديان جبل لبنان التي قدمت منها كانت له معزّة خاصة في أوساط الجمهور الذي رفعه إلى مرتبة أعلى من عبد الوهاب وأم كلثوم في سلّم العظمة. أصلاً فريد يتقن غناء الليالي أيّما إتقان... صوته العذب ينبع من أعماق قلبه معبّراً عن الحزن أو الفرح بصدق وحرارة ورقّة مطلقة، وكلها صفات من طبيعة فريد نفسها. كان هو نفسه شديد التأثر بغنائه فيبدو مقنعاً جداً في التعبير عن مشاعره من خلال خامة صوته وحسب. وهذا ما لا ينطبق على أدائه كممثل، الذي لم يتحسّن مع الوقت. وقد أدرك فريد ذلك تماماً. فإذا ما ظهر في السيناريو مشهد معقّد، لم يكن يتردّد في طلب إلغائه من المخرج: «ده مشهد محتاج ممثل، وأنا مش ممثل». في الحقيقة، كان هو من يتحكم بتصوير الأفلام وعلى المخرجين المتعاقدين معه احترام بعض القواعد ليتمكنوا من التصوير معه. من تلك القواعد مثلاً تصويره من الأمام وهو يغني وتسليط الضوء على وجهه طوال الأغنية. وإن أخطأ المخرج ومال بالكاميرا قليلاً لتصوير الديكور أو شخصيات أخرى أثناء أداء فريد أغنيته، كان ينتبه إلى ذلك غاضباً: «مش فاهم أنا، بتصوّر ليه القزازة وأنا هنا. هي القزازة اللي بتغنّي؟».

سمعت يوماً يوسف شاهين يروي أنه بعد انتهائه من مونتاج فيلم من بطولة فريد، دعا إلى جلسة لعرضه في الاستوديو فور عودة الفيلم من دائرة الرقابة. في ذلك الوقت، كان من المعتمد في هذه الدائرة ولسبب أجهله، أن يزنوا الأفلام ويسجلوا الوزن على البكرة. ولاحظ فريد الذي حضر في الاستوديو لمشاهدة العرض، الوزن الذي سجّله موظف الرقابة: 1.850 كيلوغرام. فتعجّب قائلاً: «إيه ده! لا لا لا أنا ما اصوّرش أبداً أفلام أقلّ من 2 كيلو! حاعمل علطول أغنية إضافية». ويتابع شاهين قائلاً: «هذا ما فعله بالرغم من اعتراضي، لكن أؤكّد لكم أن هذه الأغنية كانت تحفة فنية.»



فريد يقرأ مقالاً كُتب عنه في إحدى المجلات السينمائية.



فريد الأطرش في مقهى الفيشاوي محاطاً بجمع من الأصحاب: سامية جمال وشاديا إلى يمينه، لولا صدقي وكمال الشناوي إلى يساره وتحية كاريوكا وآخرين في الواجهة.



العيش وسط جماعة هو وسيلته الوحيدة للتخلّص من القلق...



كان مقنعاً جداً في التعبير عن أحاسيسه عبر صوته فقط.



لم تمضِ أشهر على وصولها حتى مثلت إلى جانب فريد الأطرش نفسه.

87

أصداء بيروت

وقّعت صباح، عند وصولها إلى القاهرة، عقوداً لتصوير ثلاثة أفلام، لكن في نهاية العام 1951 كانت قد صوّرت أكثر من عشرين فيلماً من بطولتها هي، إلى جانب شركاء كانوا من الأكثر شهرة. بالإضافة إلى صوتها، أحبّ الجمهور طبيعيتها وعفويتها. لقد جسّدت بشكل رائع هذا العالم العربي المختلف، الأكثر خفة وانشراحاً. وأصبح لبنان هو الموضة.

تكاثرت عناوين الأفلام التي ورد فيها اسم لبنان أو بيروت ومنها «قبلة في لبنان» و«لبناني في الجامعة» و«مصري في لبنان»... وخصّصت مجلات كثيرة في القاهرة زاوية للبنان مثل «أخبار بيروت» أو «ساعة لبنان»... ومع النجاح الذي حقّقته نور الهدى وصباح، تدفّقت على القاهرة مجموعات من الشابات اللبنانيات الآملات في أن يصبحن «عروس لبنان الجديدة»: نجاح سلام، ونورهان، وتغريد، وأوديت كعدو، ونهوند، ونازك... لكن لم تبلغ أي من تلك الشابات الذروة المرجوة. ومع ذلك لم يتوقف الدفق. كنّ يحلمن جميعاً بالنجاح والشهرة والثياب البراقة وكبار الملحنين ومشاهير المخرجين وممثلي الأحلام. بكلمة واحدة، كنّ جميعاً يحلمن بالقاهرة... هذا ما كانت عليه الحال منذ عشرينات القرن الماضي، منذ هروب عائلة الأطرش إلى مصر، وحتى قبل ذلك، من أيام روز اليوسف، وبديعة مصابني، وآسيا داغر، وماري كويني...

ولم تنقلب الآية إلّا بعد عشر سنوات. حين راح كبار المخرجين المصريين يقصدون بيروت لتصوير مغنية شابة ترفض السفر... إنها نهاد حداد، فيروز الشهيرة.



أصبح لبنان هو الموضة...



«البرج»، ساحة الشهداء، بيروت.



وأبصرت النور شركات لبنانية لتسجيل الأغاني.

88

طفولة هانئة في زقاق البلاط

كانت نهاد حداد آنذاك في حوالى العاشرة من عمرها. تعيش طفولة سعيدة في عائلة مسيحية متواضعة جداً في زقاق البلاط، ذلك الحيّ الشعبي في بيروت. قدمت العائلة من جبل الأرز الذي ظلّت نهاد تعود إليه كلّ صيف لزيارة جدّتها. عاشت نهاد طفولة رزينة وجدية، من غير أن تكون حزينة. تعلمت الاكتفاء بما لديها وتقبُّل ما تطالعها به الحياة، من دون أن تشعر يوماً بالحسد على الرغم من الفقر. كان والداها يدّخران المال لإرسالها إلى المدرسة، ونهاد مجتهدة ومرحة، سليمة الطوية ولطيفة المعشر. وأكثر ما أحبّت هي الأوقات التي تمضيها في منزل جدّتها، وحياة القرية الريفية المطمئنة الوديعة والبسيطة. لم تكن تلهو، لا وقت عندها للقيام بذلك أصلاً. فهناك واجبات تنظيف المنزل، وصنع المربيات، والخياطة وجلب المياه من النبع، إذ لم يكن هنالك مياه جارية ولا كهرباء. كان الذهاب إلى النبع مناسبة للترويح عن نفسها، والوقت الوحيد الذي تبتعد فيه عن المنزل وتلتقي خلاله بسكان القرية. هناك أيضاً قداس يوم الأحد. وحكايات جدتها في المساء. باختصار، عاشت حياة سلسة هانئة.

أولعت نهاد بالغناء. ففي أربعينات القرن الماضي، خصوصاً بعد الاستقلال، شهدت الإذاعة اللبنانية فورة مذهلة. لكنّ نهاد الصغيرة لم تملك ما يكفي لشراء مذياع. كانت تستمع من شباك المطبخ إلى جهاز الجيران، متشرّبة كل ما تسمعه من أغاني عبد الوهاب وأم كلثوم وليلى مراد وفريد وأسمهان وغيرهم... كانت ترافق بغنائها الموسيقى التي تصلها من الطابق فوقهم وهي تراقب طبخة العدس على النار أو تقشّر البطاطا، فتغمرها السعادة. كانت تغني في المدرسة والجميع يلمس مدى جمال غنائها. وإن صودف أن مرضت يوم امتحان الموسيقى، كان أستاذ الموسيقى يمنحها، برغم غيابها، أعلى علامة في الصفّ من دون أن يحتج على ذلك أحد.



كانت تستمع من شباك المطبخ إلى راديو الجيران.

89

فورة العلاقات والطلاق في القاهرة

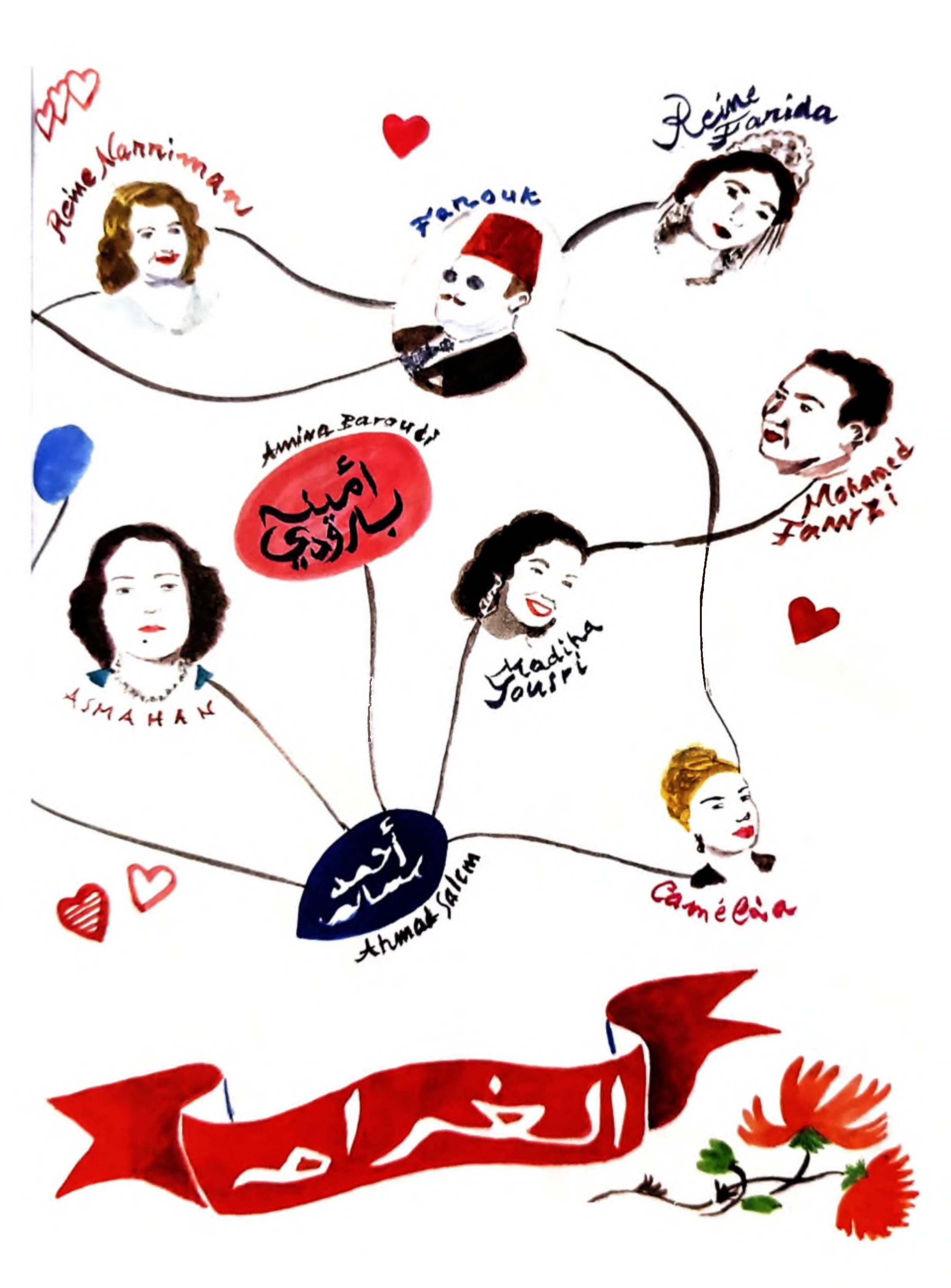
فيما كانت نهاد تمضي طفولة مجتهدة في بيروت، بلغت فورة القاهرة ذروتها. أُخرجت أفلام بعناوين معبّرة مثل: «العقل في إجازة»، وهو أول فيلم لشاديا التي صورت لاحقاً خمسة وسبعين فيلماً غنائياً في غضون اثنتي عشرة سنة، و«ورد الغرام» و«شاطئ الغرام» من تمثيل ليلى مراد، و«سيبوني أغنّي» لصباح، و«حبّ وجنون» لتحية كاريوكا، و«الكلّ يغنّي» لنجاة علي، و«الستات عفاريت» لليلى فوزي، «أحبك أنتَ» لسامية جمال وفريد الأطرش...

يصعب تتبّع حركة الارتباطات والطلاق والعلاقات الناشطة من دون الإصابة بالدوخة. فإثر وفاة أسمهان، تزوج أحمد سالم، بعد أن صحا من غيبوبته، مديحة يسرى الجميلة واللامعة. لم يدم الزواج طويلاً. أقام سالم أيضاً علاقة مدوية مع الممثلة كاميليا التي كانت أيضاً عشيقة الملك. قيل إنّ هذا الأخير حاول التخلّص من سالم في حادث سيارة فاشل. من جهتها، واصلت تحية كاريوكا، زوجة سالم قبل أن يتركها ليتزوج بأسمهان، مسيرتها على طريق الأزواج المتعدّدين بشكل عشوائي، من طبيب، إلى ضابط أميركي، إلى مغنّ يافع، وطيّار، إلى الممثل رشدي أباظة... الذي تزوج بعدها سامية جمال وبعدها صباح لكن من دون أن يطلّق سامية كما وعد صباح، فدام الزواج ثلاثة أيام فقط... سامية كانت في تلك الفترة على علاقة بفريد الأطرش. أمّا ليلى مراد فتزوّجت للمرة الثالثة والأخيرة أنور وجدي الذي كان له أيضاً علاقة بصباح، التي ارتبطت على ما يبدو بعلاقات «ودية» مع جميع من عملت معهم، كحسين صدقي ومحمود ذو الفقار ومحمد فوزي... إلى جانب نور الهدى التي وحدها لم يُعرف لها زوج ولا عشيق، كانت هنالك أم كلثوم. فمنذ سنوات والصحافة والشائعات العامة تضج بمئات الافتراضات وآلاف الأقاويل المغلوطة. فقد نُسبت إلى أم كلثوم المغامرات البعيدة عن كل احتمال والعلاقات الأكثر منافاة للعقل والزيجات السرية والأبواب الخفية. حتى تناولت بعض الأحاديث قصة ارتباطها بعلاقة حب مع خال الملك، شقيق الملكة نازلي، الذي قيل إنه طلب يدها للزواج قبل العدول عن ذلك تحت ضغط القصر. كما حكي أيضاً أن ابني شقيقتها اللذين يعيشان معها هما في الحقيقة ولداها! ليس لهذر الناس أي حدود!

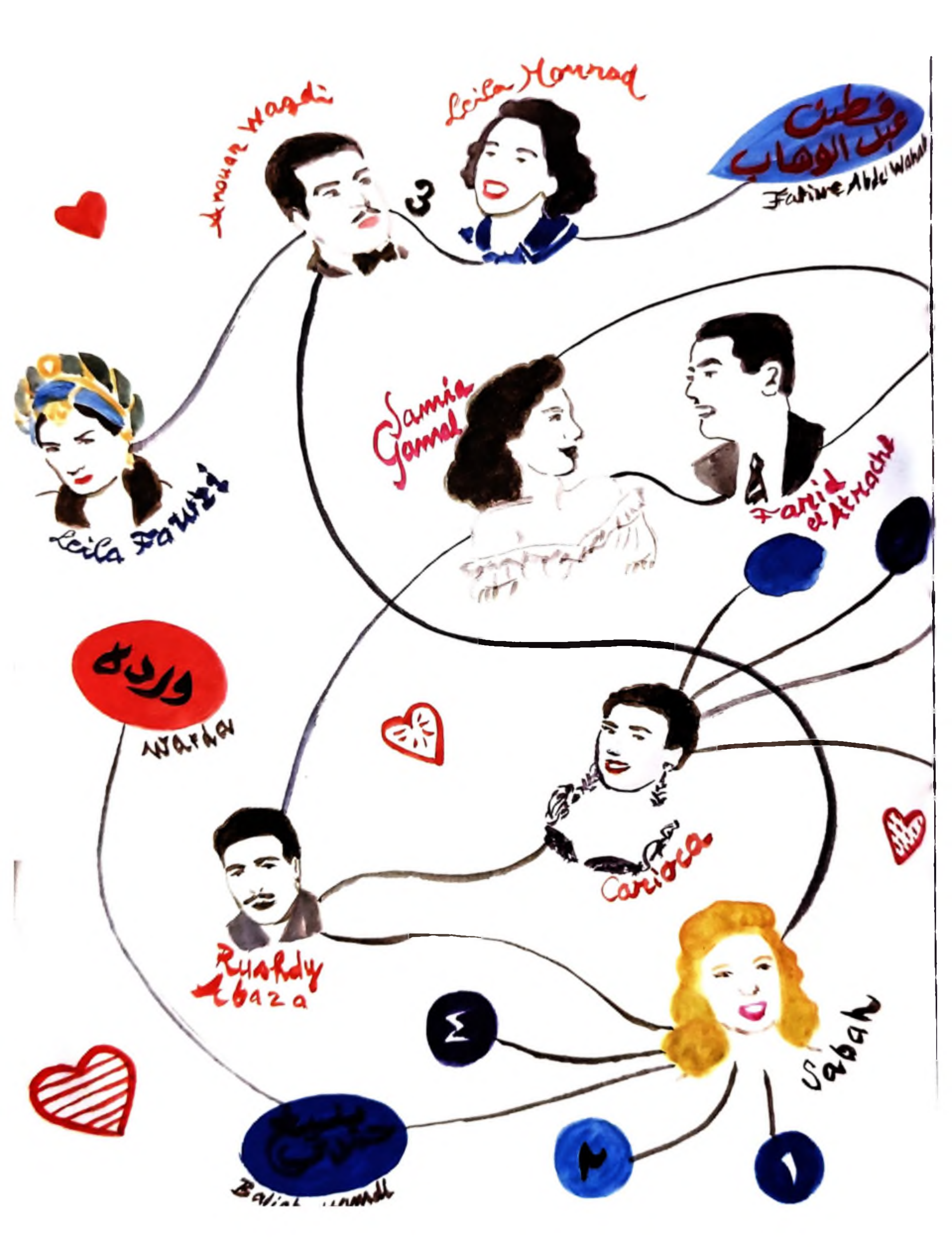
لكن لا... لا... ما من شيء ملموس يمكن البناء عليه. بلى، ثمّة شيء... فجأة كان هناك زواجها الغريب والغامض. زواج دام بضعة أيام، من محمود شريف، أحد عازفي الكمان في فرقتها الموسيقية، وهو كناية عن «سكّير، وقح، عديم الأخلاق، ضعيف الشخصية، سوقيّ». سرعان ما تعرّض الرجل لهجوم عنيف من جمهورها ومحيطها والصحافة والقصر الملكي. وكان من شأن حركة الاحتجاج هذه على القران الذي انعقد بين صوت مصر، بين مصر نفسها بالأحرى، وهذا الرجل الذي لم تُعرف له أي صفة حسنة، أن دفعتها إلى الطلاق منه على وجه السرعة.



الزواج
MARIAGE
Anour Wagdi
أنور وجدي
صباح
Sabah
AMOUR
الملك
Le Roi
سامية
SAMIA
فريد
Camélia
الحب
العشق
الغرام
الهوى
تحية
الغرام
PASSION
TAHEYA
الإنتقام
VENGEANCE!
Leila Mourad
الطلاق
DIVORCE



Reine Narriman
Farouk
Reine Farida
Amina Baroudi
أمينة بارودي
Mohamed Fawzi
ASMAHAN
Madiha Yousri
أحمد سالم
Ahmad Salem
Camélia
الغرام



Anouar Wagdi
Leila Mourad
فطين عبد الوهاب
Fatine Abdel Wahab
Samia Gamal
Farid el Atrache
Leila Fawzi
وردة
Warda
Carioca
Rushdy Abaza
Sabah





قصص غرامٍ تدأب الصحافة على نقلها...



فريد وسامية جمال عند وصولهما إلى حفل استقبال
على شرفهما في المسرح الكبير في تونس.

90

لباقة مرهفة

إذا كان الرجال جميعاً يخشعون عند قدميها، فلماذا تسعى وراء رجل يتحكّم بها؟ كما أن الزواج يعني الخضوع لسلطة الزوج، فيما أم كلثوم تريد أن تبقى سيدة نفسها ومسيرتها المطلقة والوحيدة. كان رفضها الزواج فعلَ إرادة مذهلاً من قِبلها في المجتمع الذي عاشت فيه. فقد ورد في أحد الأحاديث النبوية الشريفة أن الزواج هو نصف الدين، فبدل أن يقال للواحد «تزوّج» غالباً ما يقال له «كمّل نصّ دينك». وهي، ابنة الإمام، قد خرقت الأعراف بشكل فادح عندما خالفت هذه العقيدة. إذاً قد يكون هذا الزواج السريع والغريب وسيلة للتخلّص من مسألة الزواج تلك. كأنها أرادت أن تقول بذلك: «ها قد فعلتها وتزوجت. لننسَ هذا الموضوع». أو ربما لا. أعطيت تفسيرات كثيرة في تسويغ هذا الزواج الغريب، لكنّ الحقيقة ظلّت مبهمة. كما سرت في محيطها شائعات تقول إنها في الحقيقة تحبّ النساء. فالزواج والطلاق والميول والممارسات الجنسية في مصر أمور خاصة جداً، وبإمكان المرء أن يفعل ما يشاء شرط ألا يعلم أحد بالأمر. أما المحرّم فهو التصريح عن ذلك، أو التدخل في حياة الآخرين الحميمة. وقد شاعت الزيجات السرية حتى في أوساط الشخصيات المشهورة. ويحكى أنّ عبد الوهاب، بعد إقامته عند أحمد شوقي وقبل زواجه من المرأة التي أنجب منها أولاده الخمسة، قد تزوج سراً ولمدة سنوات بامرأة تكبره بعشرين سنة!

لطالما حيّرني أمر مستغرب في مسألة الهوية الجنسية: لماذا يتوجّه فريد وعبد الوهاب، وجميع المغنين الآخرين، في أغانيهم إلى حبيبتهم بصيغة المذكر؟ فلنتخيّل فريد في مشهد رومانسي للغاية، في زورق على نهر النيل مثلاً، يضم بين ذراعيه ممثلة الفيلم الجميلة التي يتطاير شعرها في الهواء، وعيناه في عينيها، فيما يغني لها أغنية حبّ متوجّهاً إليها كأنها رجل. كثيراً ما ضحكت وأخي الصغير عندما كنا نسمع أغاني الحب في الأفلام المصرية القديمة التي يُعاد بثّها على التلفزيون! لكنّ ذلك كان يُضحكنا في الأفلام فقط ونحن أمام الممثلة المغرمة، وهي تذوب على وقع تلك الصيغة العبثية التي يخاطبها بها حبيبها... لكن إذا شاهدنا فريد في الأغاني نفسها في حفلة على التلفزيون، بدا لنا من الطبيعي جداً أن يغني أغاني الحبّ بصيغة المذكر تبعاً لهذا التقليد المتجذّر في الأغنية العربية. فعلى ما يبدو، وما من شيء مؤكد، أن هذا العرف عائد إلى ما قبل الإسلام، إلى العصر الجاهلي. هو تقليد يسمح، من باب الحشمة، بالبوح بكل براءة بالتعابير الجريئة التي من غير اللائق توجيهها مباشرة إلى المرأة. إنها لباقة مرهفة ربما يصعب على المجتمعات العقلانية فهمها. ومن تفسيرات ذلك أن أغاني الحبّ (حتى غير العذرية منها) كانت موجّهة أصلاً وبشكل أساسي إلى الرسول أو إلى الله، ولذلك كتبت بالمذكر. ولا شك في أن هذا الإرث متأصل بقوة كونه صمد في ألحان عبد الوهاب الأكثر تحديثاً، واستمر رائجاً في نهاية سبعينات القرن الماضي مع أغاني عبد الحليم حافظ ولا يزال حتى اليوم منتشراً على نطاق واسع.



أم كلثوم وصديقة لها في سهرة في القاهرة.

91

هروب بديعة مصابني إلى لبنان

في العام 1950 كانت بديعة على موعد مع ضربة جديدة من القدر، وإذا بمصيرها ينفصل إلى غير رجعة عن مدينة القاهرة التي كانت ربّة لياليها منذ عشرين سنة.

فبعد أن سامحت أنطوان على مكيدته مع بيبا عزّ الدين، عيّنته مديراً على «كازينو الأوبرا» ودعته للسكن عندها، وسجّلت النادي باسمه محتفظة بحقّ الاستثمار. هذه المرة، قضى قلب بديعة الطيب عليها. فقد عادت من رحلة إلى أوروبا، لتجد منزلها مفرغاً من كلّ محتوياته، وأنطوان مختفياً فيما النادي في حالة مهملة وعلى وشك الإفلاس. كان أنطوان قد وقع في حبائل عشيقة جديدة وتحت ديون باهظة. دفعت بديعة الديون ومبلغاً كبيراً لابن أخيها لكي تستعيد الصالة التي قرّرت النهوض بها مجدّداً. وكانت في هذه الأثناء قد سامحت بيبا أيضاً وأعادتها إلى فرقتها. لكنّ بيبا لم تتغير وراحت تسيء التصرف مع الزبائن. فما كان من بديعة إلّا أن صرفتها، فتوعّدتها بالانتقام. شعرت بديعة بالسأم والاشمئزاز فقرّرت بيع «كازينو الأوبرا» والعودة إلى لبنان حيث كانت قد تعرّفت بشاب وأرادت الزواج به. كان هشّاً ويحتاج إليها، فقرّرت أن تساعده مادياً ليؤسس له عملاً. وعندما تتّخذ بديعة قراراً لا تتوانى في تنفيذه، فباعت الملهى بأقل مما يساوي. وبعد إنجاز عملية البيع، اكتشفت بديعة مذهولة أن من اشترى كازينو الأوبرا الجميل هي بيبا باسم مستعار. لا يهمّ! عضّت على جرحها وقالت في نفسها إنها ستتمكن من البدء بحياة جديدة في بيروت. لكنّ كارثة جديدة حلّت بها، إذ طلبت منها مصلحة الضرائب دفع رسوم هائلة على عملية البيع لأنه لم يتم تسجيلها في الوزارة قبل خمسة عشر يوماً من إجراء الصفقة! نعم، هذا هو القانون. وفي هذه الحالة تحدّد قيمة الرسوم بطريقة اعتباطية وتكون عموماً مرتفعة جداً. باعت بديعة كلّ ما تملك، من أبنية وسيارات... كي تتمكن من الدفع، ولم يكفها ذلك. ما العمل؟ فإما الدفع وإما السجن. أو الرحيل. قصدت مطار هليوبوليس عازمة على السفر إلى بيروت، فأوقفت هناك. إضطرت إلى بيع مجوهراتها لتدفع الغرامة، مقابل إطلاق سراح مشروط. ومن دون أيّ تردّد دفعت مما تبقّى لها من حصيلة بيع مجوهراتها ثمن الرحلة إلى بيروت على متن طائرة خاصة. هكذا غادرت بديعة القاهرة ولم تعد إليها بعد ذلك. بكت بحرارة حين أقلعت الطائرة مخلفة وراءها تلك الأرض، أرض مصر، أم الدنيا...



حلّقت الطائرة ببديعة التي تركت وراءها أحلى أيام حياتها.



بعد أن خسرت بديعة كلّ ما تملك، بقي لها ما يكفي لشراء مزرعة صغيرة في البقاع، على طريق بيروت-دمشق، هذه الطريق التي سلكتها عدة مرات سيراً على قدميها في أيام الطفولة والشقاء. عادت إلى المكان الذي أتت منه، وأمضت فيه باقي أيامها، تبيع الجبنة وعصير الفاكهة والسندويش. وما لاحظته تحية كاريوكا وسامية جمال في زيارتهما لها عندما قدمتا إلى لبنان للرقص في إحدى السهرات الرسمية، هو أنها المزارعة الوحيدة في البقاع التي تهتم بدجاجاتها مرتدية معطف فرو!

تحية تتناول « ساندويش الزبد » من بديعة مصابني بشوق ولهفة في « الحانوت » الذي افتتحته بديعة في طرف المزرعة.



التمّ الشمل... وأكلت تحية سندويش لبنة لذيذاً!

92

زواج وفضائح مشينة في بلاط الملك فاروق

في القاهرة، استمرت حركة الزواج والطلاق والعلاقات على أشدّها، ولم يكن الملك في منأى عنها، فقد طلّق الملكة فريدة، المحبوبة جداً من رعاياها، وذلك بعد أن ولدت العام 1948 فتاة ثالثة، ليتزوج من ناريمان صادق اليافعة جداً، ابنة السابعة عشرة، البورجوازية والمصرية القُحّة والعذراء، وذلك على أمل أن يرزق بوريث ذكر، وإلتلميع صورته الملطخة بالقضايا الأخلاقية ومسائل الفساد. فمنذ سنوات والملك فاروق يستنزل نقمة مواطنيه عليه بسبب حياته الماجنة الزاخرة بالمكائد والفضائح. كما تفاقم عجزه عن حكم مصر بشكل فعلي وتحريرها من الجيوش الإنكليزية، بعد سلسلة من الإجراءات المشبوهة، إن لم نقل المقيتة. فبعد زوجته، طرد والدته الملكة نازلي وشقيقته الأميرة فتحية. ومنذ وفاة حسنين (الذي تزوجت به الملكة سراً في النهاية) في حادث سيارة غامض قبل بضعة سنوات، استقلّ فاروق بقراراته. اعتراضاً على زواج شقيقته الصغيرة جرّدها من ألقابها وممتلكاتها، وكذلك فعل بنازلي التي كانت تدعم ابنتها، وقد أمضتا باقي أيامهما في المنفى في الولايات المتحدة. وقضت فتحية قتلاً على يد زوجها في مطار لوس أنجلس فيما كانت تحاول الهرب والعودة إلى مصر. أما الملكة نازلي فماتت في حالة من الشقاء المرير بعد أن جرّدها صهرها من الشيء الوحيد الذي تبقّى لها من حياتها السابقة، أي مجوهراتها المشهورة بأنها من الأجمل في العالم.

بلغ الاستياء أشدّه. فمنذ هزيمة الجيش المصري في فلسطين، والذلّ الذي لحق به، توالت الأحداث بوتيرة متسارعة، إلى أن انفجرت في النهاية فضيحة تجارة الأسلحة الفاسدة. وعند اكتشاف تورّط الممثلة كاميليا، عشيقة الملك وعميلة الموساد المزعومة، في الصفقة، عمّ الإحساس بالقرف. وعندما ماتت كاميليا في طائرة انفجرت في سماء مصر فور إقلاعها، وكانت تقلها إلى روما للالتحاق بالملك الذي وعدها بالزواج، بلغ الاشمئزاز أوجه. ويُروى أن فاروق، عندما علم بالخبر، قال لمستشاره: «بوريلي، ائتني بأجمل راقصة في روما، سنحتفل طوال الليل». ليس مهمّاً إن كان تعليق الملك صحيحاً أم لا، إذ إنّ النيران التي أشعلتها هذه القضية كانت توسّعت، في امتدادات لم تكن قد خمدت بعدما اندلع حريق القاهرة.



هل سيوفّق الملك فاروق من خلال زواجه الثاني إلى تلميع صورته الملطّخة بالمفاسد الأخلاقية؟



الملكة فريدة مع بناتها الثلاث.



الممثلة كاميليا عشيقة الملك وعميلة محتملة للموساد.

93

رحلة الملك فاروق في شهر العسل

هل نجحت الملكة ناريمان في تلميع صورة الملك العربيد؟ لقد بدأت الأمور بشكل سيئ، إذ ما كان للأبهة الجنونية في حفل الزفاف أن تُنسي الناس تجاوزات الملك وتعسفاته. دام شهر العسل ثلاثة أشهر على اليخت الملكي الرائع، «محروسة»[1]، من كابري إلى مونتي كارلو، ومن كان إلى إيبيزا، ومن مايوركا إلى جوان لي بين. لم تكن هذه فكرة سديدة، ولم يكن لصور الملك وعروسه بلباس البحر التأثير الأفضل في مصر الغارقة في حالة من الغليان. إنتهى شهر العسل عندما حبلت الملكة. في المقابل، استمرت الدسائس الخسيسة التي تنغّص القلب، فيما راحت الصحافة تتناقلها من دون أي تحفظ. تحدثت مجلة روز اليوسف عن فضيحة الأسلحة تماماً كما تحدّثت عن مناشير الضباط الأحرار... وبات من المعروف في الأوساط العامة أنّ لقبَي «بيك» و«باشا» يُباعان بأثمان غالية جداً، كما هو حال الحقائب الوزارية... وأنّ ما من صفقة مهمة تعقد إلّا وللملك فاروق حصته منها... بلغت الجرأة بصحيفة المصري أن نشرت خبر اغتيال ضابط كان الملك يطمع في امرأته... وفي انتخابات رئيس نادي الضباط، وهو رهان قليل الأهمية، وبعد أن فاز بأغلبية ساحقة المرشّح المدعوم من الضباط الأحرار بتشجيع من عبد الناصر الذي بقي في الظلّ، لم يتورّع الملك عن إبطال الانتخابات وتعيين رئيس له اختاره بنفسه...

أنجبت الملكة الأمير فؤاد، ولي العهد، في 16 كانون الثاني/يناير عام 1952، وذلك قبل تسعة أيام من أحداث الإسماعيلية.

[1] أول يخت عبر قناة السويس يوم تدشينها، إلى جانب «إيغل»، يخت الإمبراطورة أوجيني.



من كابري الى مونتي كارلو، ومن كان إلى إيبيزا،
ومن مايوركا إلى جوان لو بان.

94

حريق القاهرة

في 25 كانون الثاني/يناير العام 1952، هاجمت القوات البريطانية المتمركزة في قناة السويس ثكنة الإسماعيلية، بغية قمع الانتفاضة المعادية لبريطانيا التي بدأت تنتشر في المنطقة، بشكل صارم ونهائي. أدى ذلك إلى سقوط عشرات القتلى والجرحى من رجال الشرطة والشعب. ولم تلبث أن اندلعت، غداة هذه الأحداث، اضطرابات عنيفة في القاهرة رداً على ذلك، فأضرمت النيران في الحي الأوروبي، وبالأخص في المؤسسات البريطانية، مثل مستشفى شيبارد ونادي تورف كلوب، وطوماس كوك، ومصرف باركليس، كما في النوادي والبارات ودور السينما التي يرتادها «الخواجات»، وصولاً إلى «جروبي»، صالون الشاي في ساحة سليمان باشا، والميترو والريفولي وكازينو بديعة الرائع (الذي لم يتسنّ لبيبا عزّ الدين الاستفادة منه بسبب موتها في حادث سيارة قبل عام)... انتشرت الحرائق بسرعة كبيرة، ولم تلبث النيران أن التهمت وسط العاصمة. واستولت على المدينة حالة من الجنون والذعر. في هذه الأثناء، كان فاروق يحتفل بولادة ابنه، محاطاً بستمئة ضيف، أغلبهم من الضباط. رفض الملك إلغاء المأدبة لإرسال الجيش إلى المدينة. وبظنّ البعض أنه خشي أن ينضمّ الجنود إلى المتظاهرين. جاءت الخسائر جسيمة. وعلى الرغم من عودة الأمور إلى طبيعتها في الأيام التالية، إلّا أنها أفاتت من عقالها وانفتحت الطريق أمام الضباط الأحرار للاستيلاء على الحكم بين يوم وآخر. لقد تدهور الوضع بشكل خطير في غضون يومين فقط، ما حملهم على تقريب موعد الانقلاب العسكري الذي خططوا أساساً لتنفيذه بعد ثلاث سنوات. لقد بات مسألة أشهر وحسب.

كان الملك فاروق قد صارح أحد وزرائه قبل فترة بالقول: «في مطلق الأحوال لن يبقى في العالم قريباً سوى خمسة ملوك. ملك إنكلترا والملوك الأربعة في ورق اللعب».


Casino Badia

95

سقوط سامية جمال في أميركا

إنتهى كلّ شيء بين سامية جمال وفريد الأطرش، وانفصل الثنائي الأشهر في مصر. فقد سئمت سامية انتظار أن يحزم فريد أمره ويتزوجها. أكثر من عشر سنوات وهي تنتظر! حتى في الأوساط الفنية لم يكن الأمر مقبولاً... كان لفريد قناعة بأن الزواج يقتل الإبداع، وبأنّ على الفنان أن يتزوج فنّه فقط وأن يكرّس نفسه له. وما كانت الضغوط العائلية، من الجبل ومن فؤاد، لتشجّعه على تغيير رأيه. «فالأمير الدرزي لا يتزوج برقاصة! فضلاً عن أنها ليست درزية! هي امرأة تدخل القصور من باب الخدم!» ثمّ إن فؤاد لن يستفيد من الثروة الطائلة التي جمعها فريد في السنوات الأخيرة في حال تزوج سامية... امتلأت سامية جمال مرارة فصفقت الباب في وجهه. أما فريد الأطرش، الأمين على مفهومه للزواج، فلم يتزوج قطّ، ليبقى المغنّي الحزين والـ«وحيد» حتى آخر أيامه. سافرت سامية إلى أميركا بعد أن تزوجت في القاهرة بأميركي من تكساس ورث شركة نفط، هو شيبارد كينغ الثالث. طلب يدها بعد ثلاث ساعات من التقائه بها وطلق زوجته واعتنق الإسلام ليتزوجها. لكن سرعان ما اتّضح أنه دجّال مفلس. كان مديراً فاشلاً، فراح يدور بها في النوادي البائسة في مناطق نائية من أميركا، تتقاضى أجوراً زهيدة وتنزل في فنادق رديئة. يا لها من سقطة... أصيبت سامية بالإحباط واشتاقت إلى مصر. كانت الأخبار التي تصلها من القاهرة مثيرة للذهول... يتحدثون عن علاقة غرامية بين فريد والملكة ناريمان. أيعقل ذلك؟ هذه الملكة اليافعة جداً، والدة ولي العهد!

بلغها أيضاً كلام كثير عن شاب في العشرين من عمره سرعان ما أصبح بين ليلة وضحاها معبود الجماهير في مصر، نظير أم كلثوم وعبد الوهاب وفريد... وكان عبد الوهاب، صاحب النظرة الثاقبة، هو من اكتشف موهبة هذا الشاب، فأخذه على عاتقه وشغّله وكتب له الأغاني... فكان نجاحه مدوياً. إنه عبد الحليم حافظ، معبود الشباب الذي لقّب بـ«العندليب الأسمر». لكن الشاب مريض، يعاني من البلهارسيا الذي أصابه في طفولته وهو يسبح في نهر النيل...

في الوقت نفسه تقريباً، وفي بيروت، انطلق صوت جديد، صوت الشابة المنضبطة التي تغنّي على نافذة المطبخ.



زواج سامية جمال السريع.



سئمت سامية انتظار أن يحسم فريد أمره ويتزوجها، فوضّبت حقيبتها ورحلت.



يحلو لفريد أن يجمع بين السينما والواقع،
فجاء فيلمهما الأخير معاً «آخر كذبة» مليء بمشاهد الشجار والانفصال!



الصور الأنيقة للمجلات الاجتماعية لم تعد كافية.



نفرت من صالات العرض في مناطق أميركا النائية وحنَّت إلى القاهرة.

96

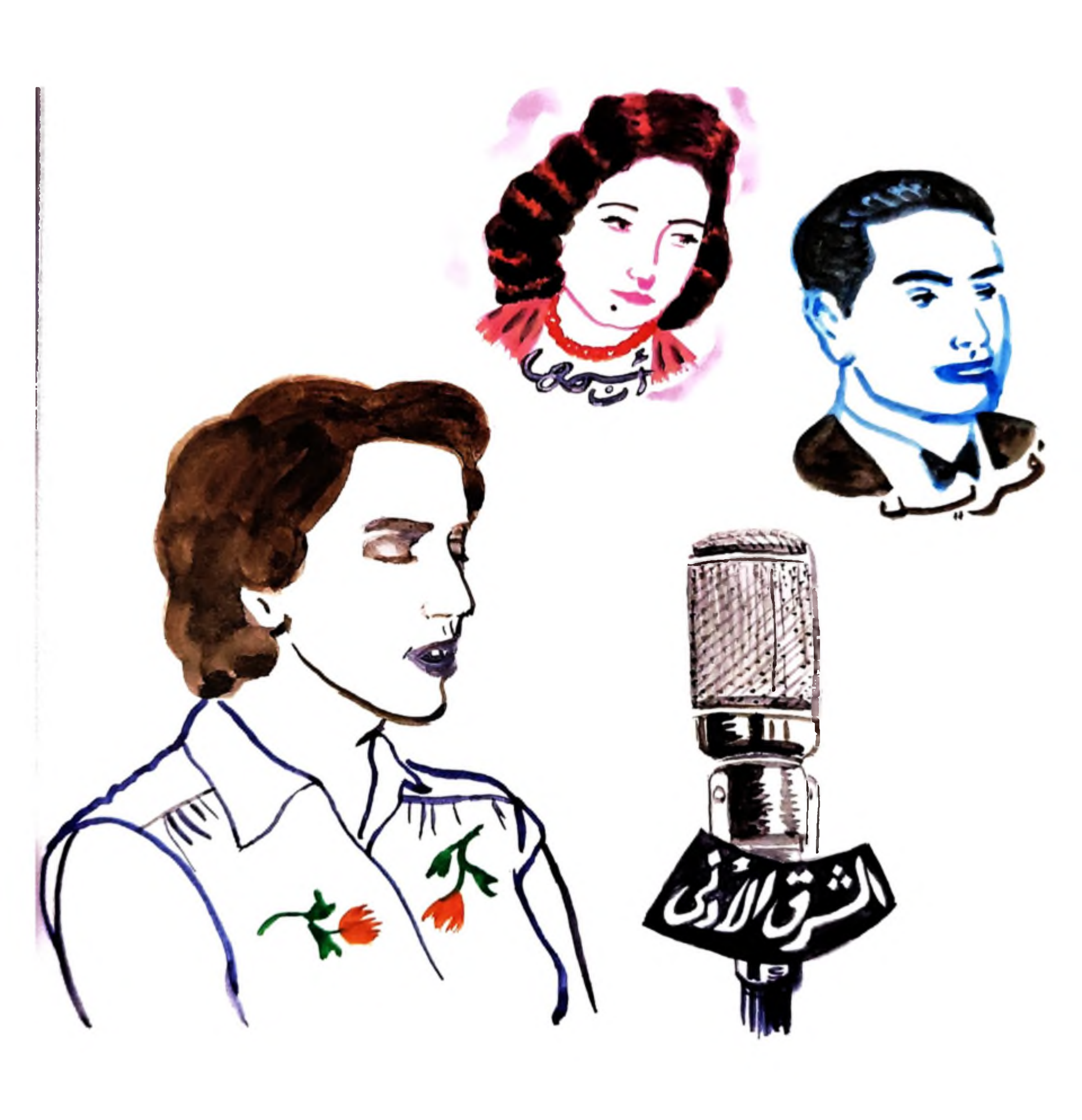
نهاد حداد تلتقي عاصي الرحباني

كبرت نهاد حداد، ولفتت انتباه أحد أساتذة معهد الموسيقى (الكونسرفاتوار) فيما كانت تُغنّي النشيد الوطني في حفلة المدرسة، فشجّعها على حضور دروسه فيه على أمل المشاركة في جوقة الإذاعة. لم تلبث أن وُظّفت في كورس الإذاعة حيث لم تمكث طويلاً. فقد لفتت انتباه الملحّن حليم الرومي مدير محطّة الشرق الأدنى الذي طلب الاستماع إلى ما يمكن أن تغنيه منفردة. اختارت أغنيتين آتيتين من القاهرة، بصوت اثنين من نجوم الغناء فيها: «يا نار فؤادي» لأسمهان و«يا زهرة في خيالي» لفريد الأطرش. وبناءً على أدائها هاتين الأغنيتين اختيرَت مغنية منفردة في جوّ من الرضى العام، حتى إن حليم الرومي لحّن لها بعض الأغاني التي لاقت نجاحاً، وصار الجمهور يطلب سماعها باستمرار. ومع ذلك لم يتغير نمط حياتها قيد أنملة، وهو أمر غير مألوف أبداً في الوسط الفنّي. كانت نهاد متواضعة وجدية بكل معنى الكلمة، ينحصر تنقّلها من المنزل إلى الإذاعة ومن الإذاعة إلى المنزل. لا تخرج إلى أي مكان آخر، ولا ترغب أصلاً في ذلك. ولحسن الحظّ أن الرجل الذي سيجعل منها أكبر مغنية عربية في العصر الحديث، كان يعمل أيضاً في الإذاعة! عرّفها به حليم الرومي، ويُدعى عاصي الرحباني. إنّه اللقاء المفصلي في حياة نهاد، وبالتأكيد في حياة عاصي أيضاً. فقد أطلق عاصي الفراشة من شرنقتها وجدّد معها الموسيقى العربية بشكل جذري.

كان عاصي منذ مراهقته يمارس الموسيقى. حصل في أواخر الأربعينات على وظيفة في الإذاعة حيث قدم برنامجاً خاصاً مع شقيقه منصور. دأب الأخوان رحباني على السعي والبحث والاكتشاف والاختبار تحدوهما رغبة في بلوغ شيء في أعماقهما مختلف عمّا في عالم الموسيقى، وقد وجدا في نهاد الوسيلة الضرورية لسعيهما والتي كشفت عبقريتهما وعبّرت عن ثورتهما. باشرا التلحين لها، ألحاناً لا تشبه في شيء ما كان معروفاً آنذاك، إذ كانت مزيجاً من الموسيقى العربية التقليدية والفولكلور اللبناني والتأثيرات الغربية أو الأميركية-اللاتينية. وبذلك ظهر نوع موسيقي جديد سرعان ما فرض نفسه بعد فترة قصيرة من السجالات والانتقادات والجدال، جاعلاً كلّ ما تبقى قديماً. أما نهاد فباتت شهرتها في متناول اليد، اليد التي أطبقت على مفتاح القفص الذي سُجنت فيه. أصلاً، لم يعد اسمها نهاد، بل فيروز...



وجدا في نهاد الوسيلة الضرورية لإظهار عبقريتهما.



اختارت لتجربة الأداء أغنية لأسمهان وأخرى لفريد الأطرش.



تسجيلات تمثيل مع الآخرين

97

نقيب ذو جاذبية استثنائية

في مصر، كانت ثورة من نوع آخر على وشك الحدوث، قلبت الأوضاع في العالم العربي بأكمله. في ذلك الصباح، كانت فيروز وعاصي ومنصور في الإذاعة يجرون بعض التمرينات. وشيئاً فشيئاً دبّت حركة غير مألوفة في الممرّات، ثمّ اشتدّت ولم تهدأ. إستاء عاصي وفتح باب الاستوديو ليلمس حالة من التوتر الغريب والذهول على كلّ الوجوه. قال له أحدهم: «هسسس! إسمع» مشيراً إلى المذيع الذي كان يستعدّ للكلام. من وراء الزجاج، أعلن الرجل أن الضباط الأحرار استولوا على القصر الملكي في الإسكندرية، فيما كان الملك فاروق وأفراد بلاطه في المَصيف.

كانت الحرارة خانقة في القاهرة في ذلك اليوم عند إعلان الخبر، والمدينة مقفرة. لكن ما لبث الشوارع أن امتلأت مع توارد أولى الأخبار. بثّت الإذاعة بيان الضباط الأحرار. كانت أم كلثوم في الإسكندرية، العاصمة الصيفية. والقصبجي أيضاً. في القاهرة تضخّمت الحشود بسرعة، وراح الناس يتبادلون بذهول أخبار ما يحصل. «لقد احتلّوا مقرّ القيادة العامة للجيش وأوقفوا كلّ قياداته»، «احتلّوا أيضاً مبنى الإذاعة»، «يُقال إن اجتماعاتهم السرية كانت تُعقد في أول خميس من كلّ شهر. كانوا في أمان لأن الناس جميعاً منشغلون بسماع أم كلثوم!»، «اللواء نجيب هو قائدهم. سيستلم السلطة»، «لقد وصل إلى الإسكندرية حيث استقبلته الحشود مهلّلة»، «والملك، ما الذي سيفعلونه بالملك البدين؟»، «على نجيب أن يشنقه!». لم يخطر لأحد بعد أن جمال عبد الناصر الذي حرص على العمل في الخفاء، بصمت وسط الصخب، هو من كان يتّخذ القرارات. وقد عاكس عبد الناصر رأي الضباط الآخرين الذين كانوا يطالبون بتطبيق العدالة على أتمّ وجه ونصب المشانق، ودعا إلى ترك الملك يرحل. أرادها ثورة من دون نقطة دم، ولا حتى دم فاروق. ففاروق قضي عليه عملياً. وهو حقّق انتصاره.

أرادت أم كلثوم المشاركة أيضاً في هذه البهجة. شعرت بأنها قريبة من هؤلاء الضباط، وبينهم واحد يروقها بشكل خاص. هذا النقيب الذي يتمتع بجاذبية خاصة ويجلس أحياناً في الصف الأول في حفلاتها... «صاحب العينين الكئيبتين والكتفين المحنيتين وخطى المارد الثقيلة وتلك الذقن الرائعة. أتذكر اسمه يا قصب؟» قرّرت قطع عطلتها والعودة إلى القاهرة، حيث الحدث. وطلبت من السنباطي ورامي أن يؤلفا لها نشيداً للثورة...



بعد ثلاثة أيام، غادر فاروق مصر على متن يخته (الذي أُعيد إلى مصر بعد إيصاله الملك وعائلته إلى كابري). ذُهل الشعب بالسهولة التي تمّ بها الانقلاب مستغلّاً العطلة الصيفية من دون دماء ولا أضرار. أما عبد الناصر فلم يشك قط في نجاحه وهو الذي قال عشية الانقلاب لرفاقه القلقين والمضطربين: «اطمئنوا، إن إمكانية نجاحنا هي بنسبة تسعة وتسعين في المئة».

في الصورة أعلاه اجتماع الضباط الأحرار بُعيد استيلائهم على السلطة.
خلف المكتب، اللواء محمد نجيب مع عبد الناصر إلى يمينه.



كنت تجد عبد الناصر جالساً في الصفّ الأول في بعض حفلات أم كلثوم...



حتّى قبل استلام الضباط الأحرار السلطة...

98

لم نعد نسمعكِ يا كوكب الشرق

المرة الأولى منذ أيام الفراعنة، بات حكم مصر بيد المصريين. كانت أعمار هؤلاء الضباط الاثني عشر تتراوح بين ثمانية وعشرين سنة وخمس وثلاثين سنة. عبد الناصر كان في الرابعة والثلاثين. ولذلك دفعوا بنجيب إلى الواجهة، كونه الأكبر بينهم وجنرالاً محترماً يطمئن إليه الرأي العام. وبعد إعلان قيام النظام الجمهوري أصبح هو الرئيس. أما عبد الناصر فكان سيّد البلاد الفعلي وصاحب الأمر عملياً، ولكنّه لم يظهر حقاً على ما هو عليه إلّا بعد عدة أشهر من قيام الثورة، عندما أوحت جريدة روز اليوسف بالأمر إلى قرائها بنشرها بعض التفاصيل المعبّرة. فقد بقي لفترة في الظلّ وتولّى رفاقه مواقع القرار الأساسية. كان بعض الباشاوات وأصحاب الثروات الضخمة قد بدأوا يأسفون منذ تلك اللحظات على «الأيام الحلوة» في ظلّ النظام السابق، لكن الغالبية الساحقة في البلاد آزرت الثورة. لم تعاكس أم كلثوم التيّار ولا محمد عبد الوهاب ولا الشاب عبد الحليم حافظ، فهم على غرار هؤلاء الضباط من أصول فلاحية أو من البورجوازية الصغيرة.

كانت أم كلثوم في حالة مذرية. فمنذ أربعة أيام لم يُبثّ أي من أغانيها على الراديو. لا شكّ في أن الأوامر صدرت من أعلى، من أرفع المستويات حتى، من رأس الهرم. لا بدّ من أن يحصل ذلك يوماً. وها هي السقطة التي طالما خشيتها. كانت منهارة كلياً عندما رنّ الهاتف. إنه اتّصال من صحفي صديق، مصطفى أمين، يسأل عن أخبارها وتبيّن لها أنه لم يكن على علم بما يشغل بالها. «أنت متأكدة؟ مش معقول! هو مين قلّك دا؟»، «ما حدّش قللي، ما حدّش يتجرّأ يقوللي، أنا بسمع الراديو ومن أربعة أيام ما اتذاعتليش أغنية وحدة». بعد يومين، قابل مصطفى أمين عبد الناصر وهمس له في نهاية حديثهما: «هو كان لازم، يا حضرة النقيب، إنّ أم كلثوم تتمنع؟» فردّ عليه عبد الناصر مستغرباً: «إيه اللي انت بتقولوه ده؟»، «فيه أوامر إنها ما تنسمعش عالراديو»، فاعترض عبد الناصر قائلاً: «مستحيل! أنت بتهزّر». «إزاي يا بكباشي، حضرتك مش عارف اللي بيحصل؟». وبعد استعلامه عن الموضوع، تناول عبد الناصر الهاتف واتّصل بالضابط المسؤول عن البثّ الإذاعي: «هو إنتو منعتو أغاني أم كلثوم؟» «طبعاً يا حضرة النقيب!» فاستوضحه عبد الناصر: « ليه بس؟ هو إيه اللي حصل؟»، فأجابه الضابط: «كانت بتغني للملك. يعني دي رمز النظام السابق». فصرخ به عبد الناصر: «يا غبي! ما هي الشمس كانت بتطلع كمان أيام الملك. والأهرامات كانت هنا برضه. إيه رأيك، تروح تدمّرها؟!» إنعقد لسان الضابط أمام هذه الحجج الدامغة. «تعملوا اللازم فوراً عشان أم كلثوم تتسمع تاني عالراديو، وأكتر من زمان كمان». بعد أن أقفل الخطّ، أجرى البكباشي اتصالاً آخر. اعتذر من أم كلثوم عن سلوك الضابط مؤكداً كامل تقديره الشخصي لها، فاستغلت هي المناسبة لتؤكد له دعمها القويّ للثورة.



على قلقٍ... أمام جهاز الراديو.



إعتذر من أم كلثوم عن سلوك الضابط مؤكداً كامل تقديره الشخصي لها...



... فاستغلت هي المناسبة لتؤكد له دعمها القويّ للثورة.

99

التشهير

كانت ليلى مراد وأنور وجدي قد تطلّقا للمرّة الثالثة. وليلى في العام 1953 هي نجمة السينما الأولى في مصر بلا منازع. إتسعت شعبيتها إلى درجة أنها هي التي اختيرت لتغنّي في احتفالات تموز/يوليو الرسمية في الذكرى الأولى للثورة.

ثمّ بين ليلة وضحاها حلّت الصدمة، والمأساة، والسقوط السريع. فقد اتُّهمت نجمة الجماهير المفضلة بأنها تبرّعت بالمال لإسرائيل. مبالغ ضخمة لإسرائيل. كما اتهمت بأنها زارت إسرائيل عبر أوروبا، وبأن بعض أفراد عائلتها يعيشون هناك... دافعت ليلى عن نفسها وأنكرت كلّ شيء جملة وتفصيلاً. «أنا مصرية مسلمة وأحبّ وطني». وكان من المعروف أنها اعتنقت الإسلام في العام 1947. لكن فات الأوان، فقد تضخمت الشائعة ولا شيء يمكنه وقفها. فعلَ التشهيرُ فعله وأُسقط في يدي ليلى. والجدير بالذكر هو أنّ كل ذلك جرى في خضم قضية لافون. فقد نظّمت المخابرات العسكرية الإسرائيلية عملية موجعة لضرب مصداقية عبد الناصر أمام الدول الغربية، وذلك بتنفيذها سلسلة تفجيرات في القاهرة والإسكندرية، على أمل أن تُحمّل مسؤولية هذه الاعتداءات لبعض القوميين المصريين وتُنسف الثقة بالنظام الناصري. ولكن، بعد فترة قصيرة على الاعتداءات، أُلقي القبض على منفّذيها وهم شبان يهود مصريون جنّدتهم المخابرات الاسرائيلية، واعترفوا بفعلتهم، إلّا أنّ تلك القضية عمّمت الشبهات على مجمل الطائفة اليهودية في مصر. في ظلّ تلك الظروف انفجرت قضية ليلى مراد.

قيل إن أنور وجدي كان وراء هذا التشهير. ففي مرضه وغيرته، اغتاظ لأن ليلى مراد أفلتت نهائياً من يده مع ثروتها. أجرت الحكومة المصرية تحقيقاً في القضية خرجت منه ليلى بريئة لكن الضرر كان قد وقع ودفعت ليلى ثمنه غالياً. فقد منعت سوريا أسطواناتها وأفلامها، وقاطعتها الإذاعات العربية. وبذل عبد الناصر جهداً شخصياً لإلغاء قرارات الحظر في سوريا، لكنه لم ينجح في ذلك إلّا في عام 1958 عند قيام الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسوريا. حافظ الجمهور المصري على حبّه لنجمته المحبوبة، لكن ليلى مراد توقفت نهائياً، العام 1954، عن العمل في السينما والغناء. وعند وفاة أنور وجدي في العام التالي، لبست الحداد. كان قد اعترف لها بمرضه المروّع وطلب منها السماح قبل أن يفارق الحياة. فاعتزلت ليلى مراد نهائياً الأضواء وعاشت منعزلة، رافضة الصور والمقابلات والدعوات. بذل الموساد محاولات كثيرة لإقناعها بالعودة للعيش في إسرائيل، وعبثاً ترجّاها بعض أفراد أسرتها المقيمين في ضواحي تل أبيب للعودة إلى ديانتها اليهودية. لكنها ظلّت تعيش في القاهرة حتى بعد حرب 1967 المشؤومة، مكررة أن مصر هي وطنها الوحيد.





لن تشاهدوا ليلى مراد بعد الآن على شاشة السينما، ولا في أي مكان آخر.



لكلمة «النهاية» في خاتمة الفيلم معنى خاصّ هذه المرّة.

100

طبيبٌ يلازمها

كما من قبل، استمرت الارتباطات الثنائية تنعقد وتنحلّ بالوتيرة نفسها. تزوجت صباح لتتخلّص من تسلط عائلتها عليها واستيلائها على ما تجنيه من عائدات أفلامها. لكن سرعان ما صحت على حقيقة زواجها الأول، إذ حلّ زوجها مكان والدها وأراد إدارة ثروتها واتّخاذ القرارات عنها... هجرته تاركة له ابنها ومنزلها للحصول على الطلاق. ثمّ تزوجت ثانية عازف الكمان في فرقة عبد الوهاب، أنور منسي، الذي تطلّقت منه أيضاً تاركة له ابنتهما. ثمّ ارتأت أن عليها إدارة علاقتها بالرجال بطريقة أخرى... وعليه لم تنجب أولاداً من أزاوجها الثمانية أو التسعة لاحقاً... من ناحية أخرى، تزوجت هدى سلطان، الممثلة الصاعدة التي اشتهرت في أدوار الفتاة السيئة، افترة وجيزة بفؤاد الأطرش. وقد قيل إن الملكة ناريمان التي طلّقها فاروق عادت إلى مصر مواطنة عادية من أجل فريد الأطرش!

وها هي أم كلثوم تتزوج بدورها، لكن هذه المرة يبدو أن سعيد الحظ حظي بموافقة جمهورها. إنه أحد أطبائها، الدكتور حسن الحفناوي الذي عرّفها به أحمد رامي وكان منذ سنوات يحضر كلّ حفلاتها. هو مثلها من بيئة ريفية، تلقى تربية محافظة وكان مجلّياً في مهنته. وقد راق معجبيها جداً الموقع الاجتماعي الذي يمنحها إياه زواجها بطبيب. لا شكّ في أنّ هذا الزواج لم يكن عن حبّ لكنّه كان تصرّفاً عقلانياً وقد نال استحسان الجمهور الذي كان يقلق على نجمته ويستحسن وجود طبيب بجانبها ليعتني بها. احتُفِل بالزفاف على عجل في حضور بعض الشهود في صالون الفيلّا، وانعقد القران تحت بند «حقّ المرأة»، وهذا بند نادر فرضته أم كلثوم وهو يسمح لها بطلب الطلاق في حال رغبت في ذلك.

لم تدم قصة الغرام طويلاً بين فريد وناريمان، هذا إذا وُجدت أصلاً. ثمّ إنّ فريد واظب، للترويح عن نفسه وكسر عزلته، على إحياء حفلات صاخبة في شقته المذهلة المطلّة على النيل...



فريد الأطرش في صورة له في شقته الباهرة المطلّة على النيل

101

فندق السان جورج، الجناح الغربي في الحبّ والويسكي

لم تحظَ تحية كاريوكا بنصيب أم كلثوم من الزواج. وليطمئن معجبوها، فالثورة لم تغيّر قطّ من وتيرتها في تغيير الأزواج. وقد بلغ الأمر بعائلتها، التي أغضبتها تصرفاتها الطائشة، أن أضرمت النار في سينما في الإسماعيلية كانت تعرض أحد أفلامها. أما جمهورها فلم ينقم عليها جرّاء حياتها الصاخبة التي كانت الصحافة تتداولها بأدقّ تفاصيلها. فقد سهل عليها مرحها وفطنتها وكرمها كلّ الأمور. وقد تعوّدت تحية، قبل انفصالها عن أحد أزواجها، أن يكون البديل عنه جاهزاً. وفي اليوم نفسه يحلّ مكان السابق، وتسلّمه مفاتيح السيارة والمنزل. بهذه الطريقة تولّى الممثل الشاب الذي بدأ نجمه يلمع، رشدي أباظة، مهامّه.

ما زالت ذكرى شهر العسل الذي أمضياه في بيروت ماثلة في الأذهان. أقام الزوجان في الجناح الغربي من فندق السان جورج. لم يسبق للعاملين في الفندق بالرغم من مراسهم الطويل أن رأوا ما رأوه. فبعد ليالي العشق الحمراء المشتعلة تتوالى ليالي المشاحنات الزوجية والغيرة، على وقع طلب زُجاجات الويسكي الواحدة تلو الأخرى ودخان سجائر «فيليب موريس» وقرقعة تحطّم الأواني. ليس من السهل على زير نساء فخور برجولته أن يكون زوج راقصة، وخصوصاً تحية كاريوكا التي يحبّها كلّ الرجال وهي تبادلهم الحبّ بالمثل. وجد رشدي نفسه كلّ ليلة أمام زجاجة الويسكي في غرفة الفندق فيما تحية ترقص في ملهى «سيروس كلاب» تنفيذاً لعقد عمل فيه. وسرعان ما سئم من تلك السهرات وهو في انتظارها في الغرفة. راح يجول على البارات وعاش مغامرة مع مغنية فرنسية التقاها في بار «موروكو» أو «كاف دو روا». في الليلة الثالثة علمت تحية بالأمر، فعادت في حالة من الغضب العارم الذي لا يجاريها فيه أحد. خرجت من نادي «سيروس» قبل بداية وصلتها بثياب الرقص، واستقلّت سيارة تاكسي أقلّتها إلى الطرف الآخر من المدينة. دخلت مستشرسة النادي الليلي حيث رشدي والمغنية متكئان على البار، يتبادلان النظرات، وانهالت عليهما بالشتائم الأكثر بذاءة وبالصفعات والتهديدات. ذُعرت الفرنسية وقد شدّتها تحية من شعرها الأشقر وجرجرتها في النادي وهي تضربها تحت أنظار حضور لا يصدّق ما يرى.

لاحقاً، في الجناح الغربي من فندق السان جورج، تمّت المصالحة في ليلة عارمة بالحب والويسكي وفي حالة من السعادة القصوى. لطالما كرّرت تحية أنّ الحياة لا تستأهل العيش لولا الكحول والغرام.



Hotel Saint Georges

BEYROUTH









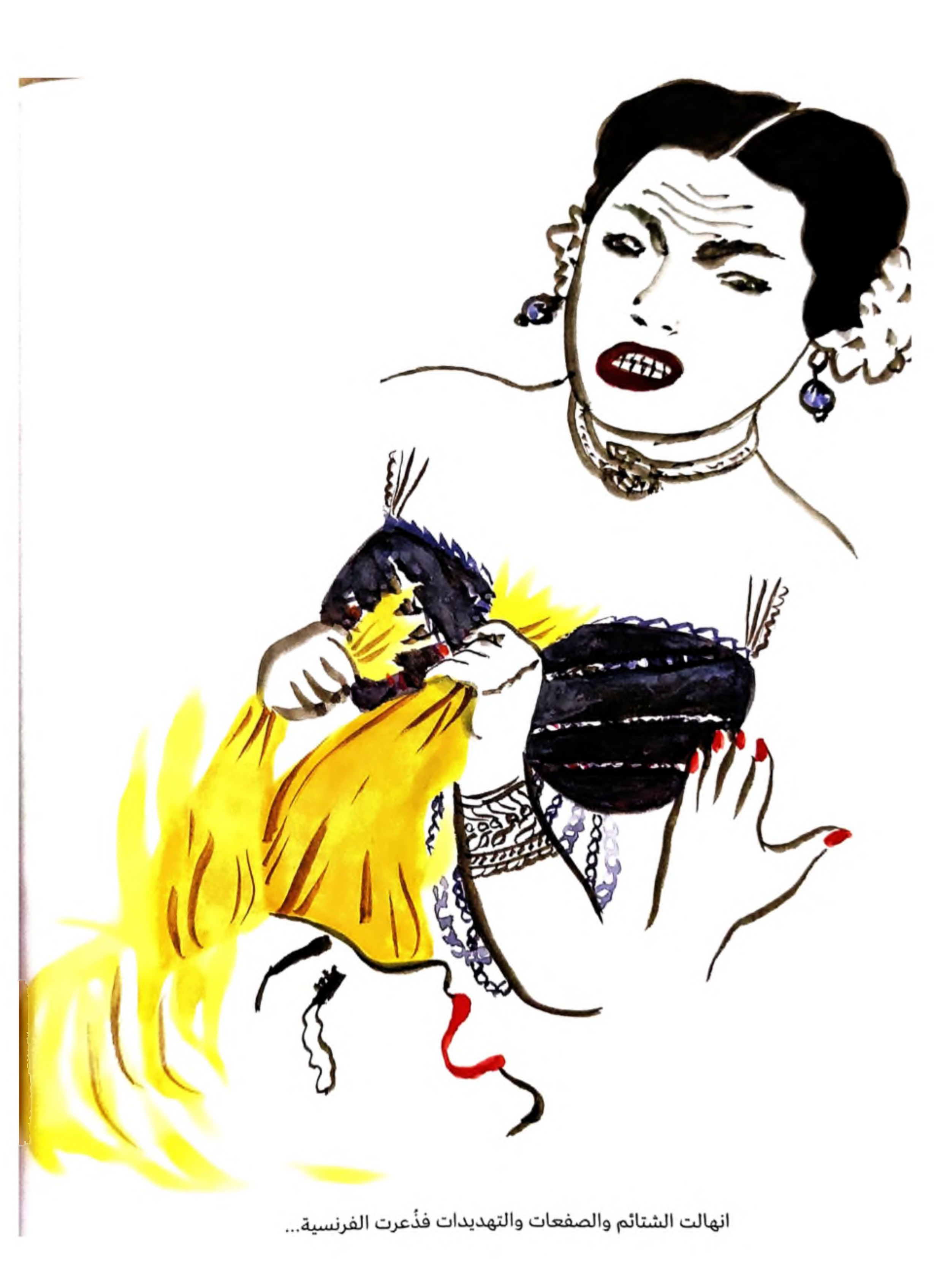




Les Caves du Roy



رأتهما متّكئين على البار يتبادلان النظرات.



انهالت الشتائم والصفعات والتهديدات فذُعرت الفرنسية...


KENT

102

بدت لها الحياة الأخرى، الحقيقية، زائفة

لم تكن إذاعة الشرق الأدنى بعيدة جداً عن فندق السان جورج، ولا عن ملاهي «سيروس» و«موروكو» والـ«كاف دو روا»، لكن لم يكن يخطر لفيروز ولو في الأحلام أن تجازف بارتياد هذا النوع من الأماكن. فمنذ أن بدأ الأخوان رحباني العمل معها صارت حياتها عملاً متواصلاً، وكذلك حياتهما. هم الثلاثة يعملون بلا كلل، لا شيء آخر يشغلهم ليل نهار. فقدوا الإحساس بالزمن، وما عادوا يعرفون طلوع الفجر من حلول الظلام إلّا عند خروجهم من الاستوديو. زواج عاصي بفيروز هو ما فتح المجال أمام سهر الليالي الطويل هذا. لقد رأى فيها عاصي المرأة النموذجية، فقرّر أن يتزوجها ليتمكن من الارتقاء بها إلى النجومية. تذكرُ جدّتي أنها التقت العريسين خلال شهر العسل في فندق مسابكي في شتورة، البقاع. وتخبر أنّ «فيروز خجولة جداً، تتورّد وجنتاها عند إلقاء التحية عليها. تختار دوماً الطاولة الأكثر انعزالاً في المطعم وأبعد زاوية في الحديقة. أما عاصي فيبدو ودوداً مرحاً، عيناه تقدحان شرراً، ويدخّن أكثر من جدّك! وفيروز تزور الكنيسة يومياً». عند عودتهما إلى بيروت استأنفا العمل. لا يلتقيان أحداً ولا يخرجان مطلقاً. وما بين ليالي العمل والاستوديوهات والإذاعة والتسجيلات... لم تعش فيروز إلّا حياة الفن والعمل. أما الحياة الأخرى، الحقيقية، فبدت لها مزيّفة. كان هذا الاتّحاد العائلي ضرورياً من أجل بلوغ الهدف الذي وضعه الرحابنة نصب أعينهم، أي الموسيقى الحديثة التي يريدون إبداعها. كان عاصي قاسياً ومتطلباً. تقبّلت فيروز ذلك لعلمها أنها ستكون نتاج تلك القسوة. خشيت أولاً التحديثات الموسيقية أو الصوتية التي يطلبها منها، فتردّدت، افتقدت الجرأة، لكنّ عاصي عرف كيف يطوّع موهبتها وطاقاتها. هي لا تختار شيئاً ممّا تقوم به، هو من يقرّر كلّ شيء بلا حاجة إلى رأيها. لكن فيروز كانت سعيدة، لها ملء الثقة بالأخوين، يطمئنها بقاؤهما دوماً بجانبها في هذا الوسط المخيف لشابة محافظة مثلها. لا انفصام بين هذا الثلاثي، يحدوه إلهام لا حدود له. لم يكن من السهل عليهم فرض موسيقاهم الجديدة، على الرغم من النجاحات الأولى. فمنذ مطلع القرن، كانت القاهرة هي ضابط الإيقاع، وهناك يوضع معيار الموسيقى العربية.



لم يكن شيء آخر يشغلهم ليل نهار.







زواج عاصي بفيروز فتح المجال أمام سهر الليالي الطويل.



ثلاثي لا ينفصل، يحدوه إلهام لا حدود له.

103

من ضفاف النيل إلى وهران وعدن والبصرة وبيروت صوتها، صوت العرب

الموسيقى تأتي من القاهرة وهذا لن يتغيّر. وقد شهدت الإذاعة المصرية، بدفع من عبد الناصر، تطوراً مذهلاً. فقد حدّث «الإذاعة المصرية» لتصبح قادرة على البثّ «من المحيط إلى الخليج» وأنشأ إذاعة «صوت العرب» التي بثّت أيضاً إلى العالم العربي بمجمله، فصار بالإمكان الاستماع مباشرة إلى أم كلثوم في أول خميس من كلّ شهر، سواء في الدار البيضاء، أم في الجزائر العاصمة، أم في حلب، والموصل وبغداد وصنعاء. لم يكن أي قائد في هذا الجزء من العالم ليخاطر بالإدلاء بأي تصريح في ذلك اليوم. تحولت إذاعة «صوت العرب» وسيلة أساسية لتعزيز موقع عبد الناصر، ليس فقط كقائد في العالم العربي بل كقائد الشرق كله. وأم كلثوم، التي تدعمه بحماس، ساهمت إلى حدّ كبير في ذلك. نشأ بينهما تفاهم متبادل وإعجاب واتفاق مشترك وطبيعي، تحوّل إلى علاقة شخصية متينة جداً. لا شكّ في أنّ حبهما لمصر هو أكثر ما قرّب بينهما، إضافة إلى أصولهما المتواضعة وحبّهما الأصالة واهتمامهما بالفقراء وعزّة نفسهما وجرأتهما. يعدُّ البعض أن هذا التفاهم التام بين هاتين الشخصيتين نابع من المصلحة. لكن الحقيقة ليست بهذه البشاعة. كيف لم ينجذب هذان العملاقان لبعضهما حتّى الآن وهما معبودا ملايين العرب كلّ من جهته؟ عبد الناصر من أشدّ المعجبين بعبد الوهاب أيضاً. مرّة جديدة يتلامس طرفا العملاقين. كم يرغب في رؤيتهما يعملان معاً. سيكون ذلك موذج اتّحاد العالم العربي كلّه. لم يكن الأمر وارداً بالنسبة إلى أم كلثوم، فاحترازها من عبد الوهاب لم يتبدّد منذ ذلك الموسم الشهير في العام 1927...

سرّت أم كلثوم بالتعامل مع هذا النظام الجديد، فهي تتألق في هذا الوسط الذكوري حيث يحتفي بها هؤلاء العسكريون الشباب تحت الأضواء الساطعة. صحيح أنها عاشت ذلك في ظلّ النظام السابق، لكنها هنا على قدم المساواة مع هؤلاء الرجال الآتين مثلها من الأرض وليس من أوكسفورد أو من الجامعات السويسرية. وستتّخذ منزلتها، الرفيعة أساساً، حجماً أكبر، فهي التي افتتحت إذاعة صوت العرب بطلب من عبد الناصر كما افتتحت الإذاعة المصرية قبل حوالى عشرين عاماً بطلب من الملك فؤاد. فإذا صوتها يصدح في الليالي من ضفاف النيل إلى وهران وعدن والبصرة وبيروت. إنّ صوتها صوت مصر...

في المقاهي المكتظة، كان صوتها يهدهد خيبة مدخّني النارجيلة وسط تلافيف الدخان الواهنة.



بتشجيع من عبد الناصر حقّقت الإذاعة المصرية
تطوراً لافتاً سرعان ما تُوّج بتشييد «مبنى الإذاعة».



باتت الإذاعة المصرية وصوت العرب تُسمعان «من المحيط إلى الخليج».







افتتحت الإذاعة الأولى بطلب من الملك فاروق، ثمّ دشّنت الثانية بطلب من عبد الناصر.

بين الاثنين توافق وإعجاب وتشجيع متبادل... تحوّل إلى علاقة شخصية وطيدة.



أم كلثوم وعبد الناصر كلاهما مع نهرو.


CAIROPHON



حبّهما لمصر هو أكثر ما قرّب بينهما.

104

لأنّني أم كلثوم

لم تكلّ أم كلثوم على الرغم من مشاكلها الصحية. ازدادت صرامة مع موسيقييها ومُلحّنيها ومؤلفي كلمات أغانيها. فرضت على الموسيقيين أن يتعلموا العزف على السمع من دون نوطات مدوّنة، لأن هذا ضروري للتمكن من مرافقتها ارتجالاً عندما تغيّر في لحن الأغنية. ففي رأيها، وبغية الحفاظ على نفس الموسيقى الشرقية كان من الضروري جداً ألا تكون النوتات مكتوبة. ومن بين كل الموسيقيين سمحت فقط للموسيقيين الثلاثة الأكثر خبرة بالتكلّم معها.

اعتادت اختيار الأغاني التي تؤديها في حفلاتها بعد استكشاف نوعية جمهورها من خلف ستارة المسرح. تصل يوم الحفلة إلى المسرح قبل ساعة من الموعد المحدّد، بعد أن تقضي النهار في قراءة القرآن. تراقب المتفرجين بدقة، تقدّر نوعيتهم، تتفحصهم، تتأمل وجوههم، تدرسهم. وللتخفيف من اضطرابها، تحب أن تستوضح من رامي أو من القصبجي مَن هذا ومَن ذاك. في أغلب الأحيان، يتألف جمهورها، وخصوصاً في الصفوف الأمامية، من شخصيات عامة أو من متابعيها الأوفياء الذين لم يفوّتوا حفلة من حفلاتها منذ عقود. نعم، هي تغني منذ عقود، لكنها لا تزال تشعر بالخوف قبل أن تفتح الستارة. رهبة لا توصف. سألها صديق لها مرة: «ليه بس؟ ده إنت أم كلثوم!»، فأجابت: «بالضبط كده. لأني أم كلثوم!».

لم تخفّ وطأة تطلّباتها مع الملحنين والمؤلفين، بل بالعكس. يروي بيرم التونسي أنه غالباً ما كان يقضي نهاراً واحداً في كتابة قصيدة ليمضي بعدها عشرة أيام في مشاحنات حولها مع الست. وبعد وضع اللمسات الأخيرة على الكلمات، تعطي النص للملحّن، ومن يعرفها منهم جيداً كان يأتيها بثلاث أو أربع مقدمات للأغنية نفسها، فتختار واحدة أو ترفضها كلّها. ولا يكمل الملحّن عمله إلّا بعد أن توافق على المقدمة، ككما قد يضطرّ إلى إعادة كتابة المقطع نفسه عدّة مرّات. لا تتساهل في ملاحظاتها، ولا توقف عملية تأليف أغنية إلّا إذا بلغت المستوى الممتاز. وقد شبّه السنباطي عمله معها ببناء السدّ العالي في أسوان. «كنّا أحياناً نعمل النهار بطوله من دون أكل ولا شرب ولا تلفون ولا زيارات. قد تُمضي أم كلثوم نهاراً بأكمله وهي تكرّر الجملة نفسها. والنهارات التي نمضيها على هذا المنوال تتحوّل إلى أسابيع ومن بعدها إلى أشهر، فقط لإنجاز أغنية واحدة». لطالما قالت أم كلثوم إنها تحبّ أن تعيش مع اللحن سنة بأكملها قبل أن يسمعه أحد. هي لا تكلّ، وهي دوماً أوّل الواصلين إلى العمل وآخر المغادرين.







نعم، هي تغني منذ عقود،
لكنها لا تزال تشعر بالرهبة قبل أن تفتح الستارة.

105

سيجارة وكأس: عودة سامية

تطلّقت سامية جمال من شيبارد كينغ الثالث، ولعبت أخيراً دور الراقصة الغربية المستخدمة في أحد أفلام هوليود، ودوراً في فيلم «علي بابا والأربعين حرامي» مع فرنانديل. ولم تتلقَّ عروضاً أخرى... كرهت تجربتها في هذا الزواج الأول المزري وشعرت بالخيبة من تجربتها العالمية وراحت تحلم بالعودة إلى القاهرة. هي مستعدة للتضحية بكل شيء من أجل تناول صحن فول! لكن الخوف ينتابها. لقد غادرت مصر العام 1952 تحديداً... وقد يُسيء النظام الجديد تفسير الأمر... مع أنها سافرت إلى هيوستن قبل ثلاثة أشهر من قيام ثورة تموز/يوليو... يجب أن تلفت السلطة الجديدة إلى ذلك... لكنّ الجميع يعرف علاقتها بفاروق وتلك هي المشكلة... يقال إنها على اللائحة السوداء... وهناك اعتقاد بأنها ما زالت على اتصال بالملك السابق.

عاش فاروق منفاه بين كابري وموناكو، وبين روما ودوفيل. بدأها في فندق «إدن بارادیسو» في آناكابري وأنهاها في مطعم «ليل دو فرانس» في روما برفقة آنا ماريا غاتي، وهي مصفّفة شعر شابة في الثانية والعشرين من العمر، فيما هو في الخامسة والأربعين ويزن 140 كيلوغراماً. وهناك مات نتيجة نوبة قلبية بعد وجبة غنية دسمة. وقد توزعت مسيرته، وسط المصورين الصحفيين «البابارازي»، بين النوادي الليلية وكازينوهات القمار والنساء الشابات، وأهمهن مغنية شقراء من نابولي في السادسة عشرة من العمر، تُدعى إيرما كابيتشي مينوتولو، ويُرجّح أنه تزوجها.

أعطت سامية جمال مقابلة لصحيفة آخر ساعة التي بعثت من يلتقيها في هيوستن، وطلبت من الصحافي أن يعلن أنها فخورة بالثورة وتدعمها، وأنها مصرية صادقة وتحلم بالعودة إلى بلدها الذي تحبّه واشتاقت إليه. «قل لهم إن الأمر غير صحيح، فقد انقطع اتّصالي نهائياً بفاروق منذ أن غادرت مصر». جاءها الردّ سريعاً من السلطة الجديدة بأنّها محلّ ترحيب في مصر التي اشتاقت إليها أيضاً.

رجعت العام 1955 ولعبت دوراً سينمائياً يليق بها، يحكي بشكل ما قصتها هي، وهو دور أشهر راقصة في مصر، تلك المطبوعة صورتها على ألواح الشوكولاته. إنه فيلم «سيجارة وكاس»، الذي لعبت الدور الرئيسي فيه شابة كانت قد شاركت مؤخّراً في مسابقة «ملكة جمال مصر» في نزُل الأهرام، وتألّقت، رغم وجودها إلى جانب سامية جمال، على الشاشة. تلك الشابة لم تكن قد حملت بعد اسم داليدا.


سامية
جمال





كانت ميلودراما باهرة مثلت فيها سامية جمال
شخصيتها الحقيقية نوعاً ما، شخصية أكبر راقصة في مصر...



تزوجت من طبيب جراح مرموق واعتزلت مهنتها وأدمنت الكحول...



... فيما إحدى الممرضات في المستشفى،
وهو الدور الذي لعبته داليدا، تحاول أن تغري زوجها.

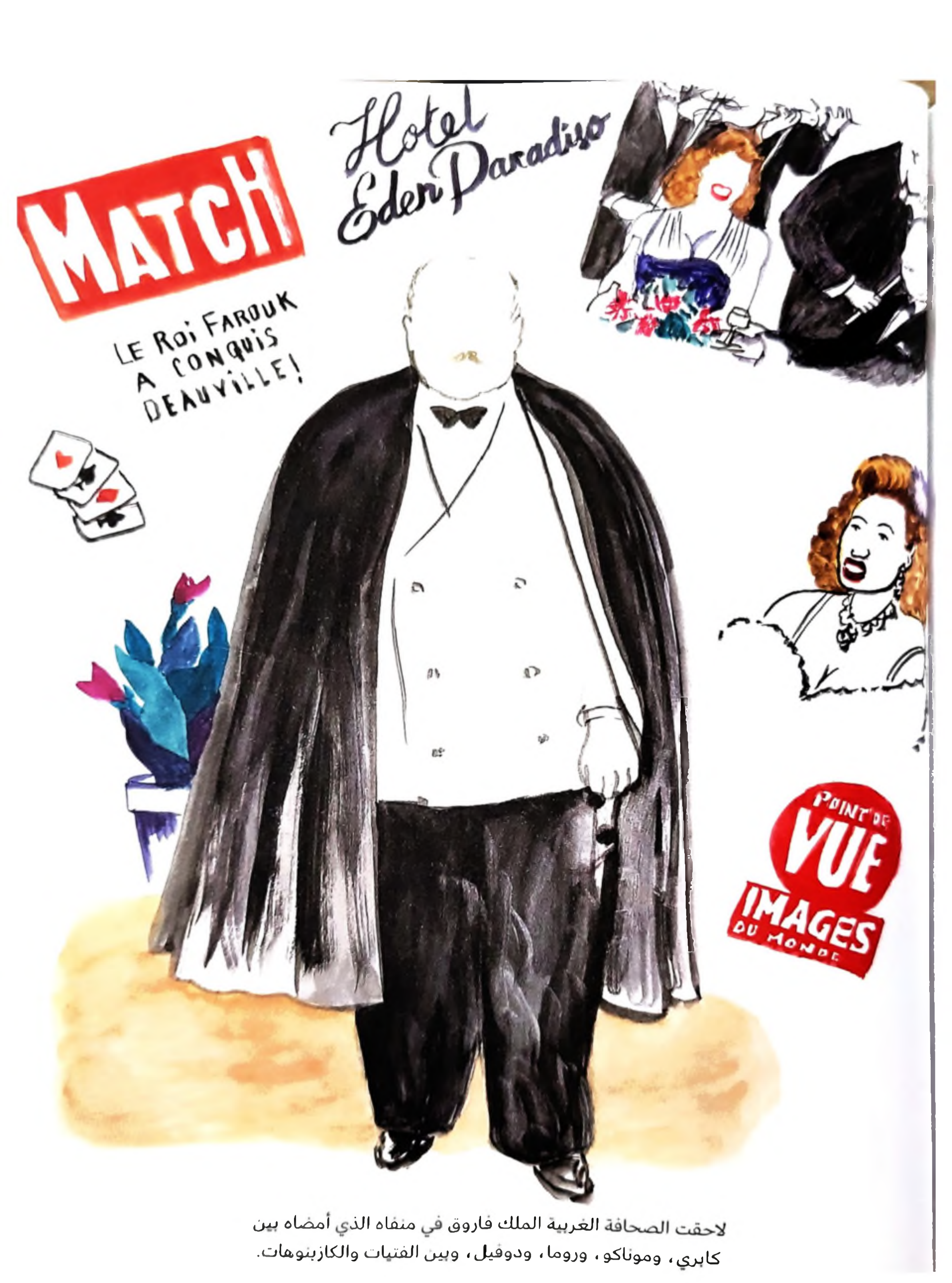






برعت سامية في تمثيل مشاهد السكر
وتسوية الحسابات البعيدة كلّ البعد عن أدوارها السابقة.





لاحقت الصحافة الغربية الملك فاروق في منفاه الذي أمضاه بين كابري، وموناكو، وروما، ودوفيل، وبين الفتيات والكازينوهات.

106

قبل أن تدعى داليدا

أبصرت يولاندا جيغليوتي النور في القاهرة حيث استقرّ والداها الآتيان من كالابريا في إيطاليا. والدها عازف الكمان الأول في الأوبرا الملكية. هي جميلة وتحب الغناء. شاركت في حفل أجمل ساقين في «نزل الأهرام» (Auberge des Pyramides) وفازت بالجائزة الأولى. شاركت في مهرجان مسابقة الهواة لكن لم يحالفها الحظّ هذه المرة إذ لم تقنع لجنة الحكام، فهي لا تجيد الغناء. لكنّ جاذبية يولاندا أكسبتها تعاطف الجمهور وصارت تعود من حين إلى آخر لتغنّي مع أوركسترا «النزل». وعندما نظّم «النزل» انتخاب ملكة جمال مصر لعام 1954، كانت يولاندا بين المرشّحات. وبعكس ما هو متداول، لم تفز باللقب بل اختيرت وصيفة أولى. لكن والدي الملكة الفائزة مصرية الأصل رفضا إحدى الهدايا التي تحصل عليها الفائزة مع اللقب، وهي رحلة إلى فرنسا، إذ لم يوافقا بتاتاً على أن تسافر ابنتهما وحدها إلى أوروبا، فحلّت مكانها يولاندا، الوصيفة التي لم تكن تعرف بعد أنّها ستصبح يوماً ما ملكة... ملكة باريس.

شارك أيضاً في مهرجان الهواة فتى فرنسي من مواليد الإسماعيلية ووالدته أيضاً من كالابريا. هو كلود فرانسوا، ابن مراقب حركة المرور في قناة السويس، ويعشق الموسيقى. وله خالان، أحدهما عازف كمان والآخر عازف بيانو، كانا يرافقان عزفاً الأفلام الصامتة في القاهرة أو في الإسكندرية كما عزفا في جلسات «شاي الساعة الخامسة» التي يقيمها الجيش البريطاني في منطقة القناة. كان كلود يحضر التمارين وتعلّم العزف على الكمان مدة سنة، وهام بالموسيقى وعشق الغناء، لكنه لم يتمكن أبداً من إقناع لجنة الحكم في «نزل الأهرام»س بموهبته. ولم يمنعه ذلك من العودة كل سنة ليجرّب حظّه...



أثناء مسابقة الجمال في نزل الأهرام، وفي مشهد من فيلم «سيجارة وكاس».

107

العرض مستمرّ

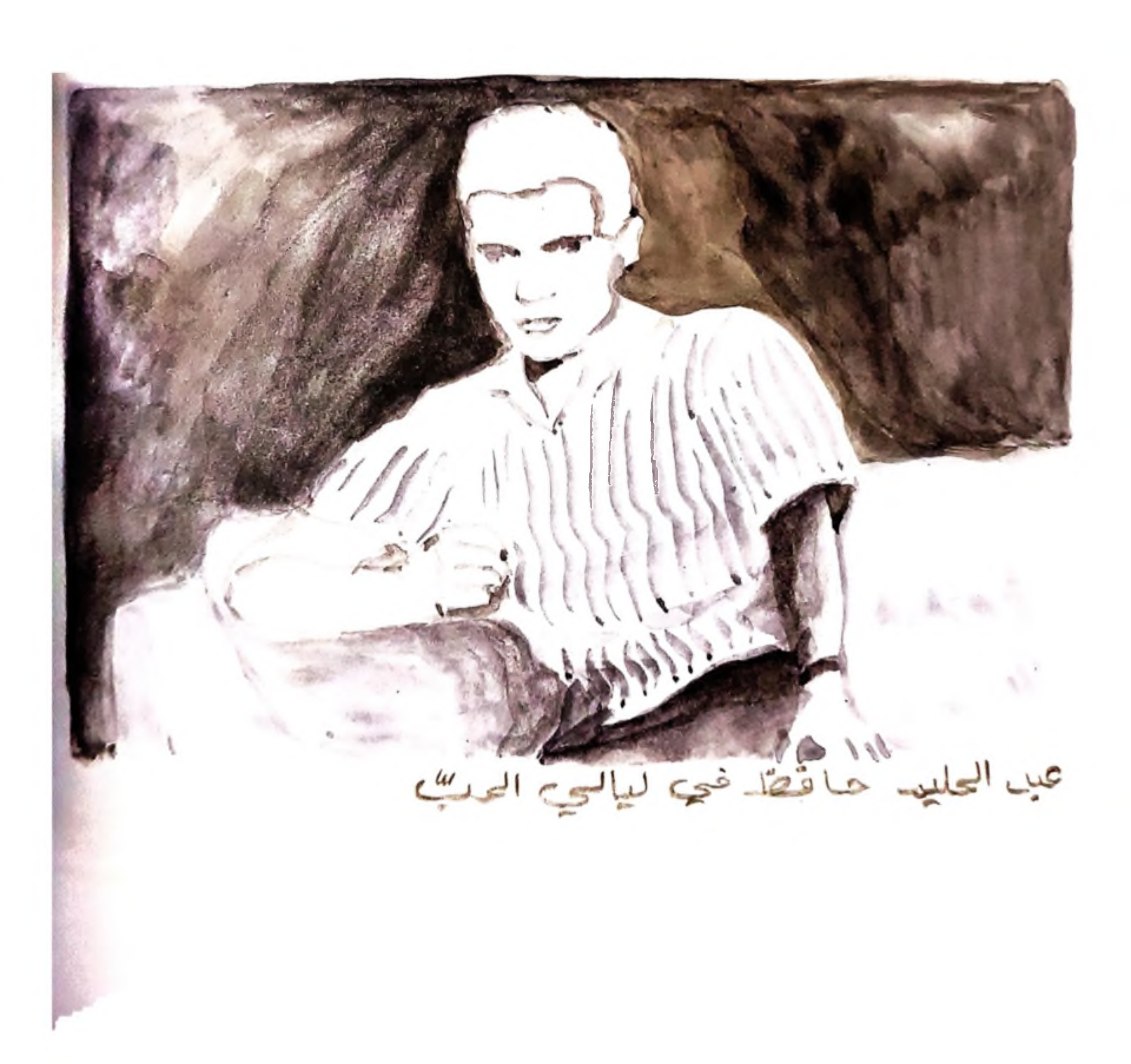
لم تغيّر الثورة شيئاً في الحياة الليلية المثيرة في القاهرة. واستمر نزل الأهرام في الترفيه عن عشّاق السهر، حتى وإن غاب عنه طيف فاروق. وبقيت الحياة الفنية في أوج ألقها، ملحنون يلحنون وشعراء يكتبون ومطربون يغنّون والسينما تدور وتدور بشكل مدوّخ. أدرك عبد الناصر أهمية الترفيه الشعبي في رفع معنويات الشعب، وفي نشر إشعاع مصر على الصعيد العربي. لم تقلّ الأفلام الجديدة أهمية عن سابقاتها في ظلّ النظام السابق، من فيلم «تاكسي الغرام» لهدى سلطان إلى فيلم «أنا الحبّ» لشاديا و«خطف مراتي» لصباح و«أربع بنات وضابط» لنعيمة عاكف... غنّت شاديا في أحد عشر فيلماً عُرضت العام 1954، وصوّر عبد الحليم حافظ أول أفلامه مع شاديا تحديداً. ولم تعد تحية كاريوكا تلك النجمة الشابة، لكنّها مثّلت وهي في أربعيناتها المتألّقة، وبجسمها الممتلئ المشهد الأشد إثارة في سجلات الرقص الشرقي. كان ذلك في فيلم «شباب امرأة»، الذي أدّت فيه دور أرملة مسنّة ومؤذية تؤوي في منزلها طالباً ريفياً سليم الطوية. في المشهد، ترقص كاريوكا كالعادة في أصغر مساحة، على بعد سنتيمترات من الشاب الجالس بجلبابه والكوفية على رأسه (وليس في لباس مسرحي فاخر)، مقتصدة إلى أقصى حدّ من حركاتها المثيرة الشهيرة. وفي قمة الإثارة يفقد الصبي اتّزانه، وكذلك المُشاهد.

في لبنان، غنّت فيروز للمرة الأولى في مهرجانات بعلبك. قبلها بعام، افتُتحت تلك المهرجانات مع جان كوكتو، وقدّمت لجمهور مشبع بالثقافة الغربية مسرحيات شكسبير وراسين وأوركسترا همبورغ السيمفونية. هل يجوز إشراك فيروز؟ تردّد أعضاء اللجنة في هذا الأمر. فهم لا يستسيغون المسرحيات الغنائية الفولكلورية من الحياة القروية في جبل لبنان... هكذا شاركت فيروز في المهرجان للمرة الأولى بموجب عقد لقاء ليرة واحدة رمزية وحسب. لكنّ النجاح الكبير الذي حققته استدعى عودتها في كلّ السنوات التالية، حتى مُنحت لقب العمود السابع.

كلّف المجلس الثوري شركة «سوثبيز» بيع ممتلكات فاروق الشخصية. وكانت كناية عن ألفي قميص حرير، وعشرة آلاف ربطة عنق، وخمسين من العصي ذات المقابض المرصّعة بالأحجار الكريمة، وساعات لا تُقدّر بثمن ومجوهرات نادرة، ومجموعة طوابع بريدية قدرت بسبعة عشر مليون دولار، ومجموعة ميداليات هي من الأندر في العالم، ومئات السيارات الفخمة، إلخ. لكنّ أثمن ما في المبيعات لم يكن يقدّر بثمن، وهي مجموعة إباحية من اللوحات والمنحوتات والبطاقات البريدية وأوراق اللعب وفتّاحات القناني والروزنامات وكؤوس الكوكتيل والولّاعات...



مشهد الرقص الشرقي الذي لا بدّ منه ظلّ معتمداً في ظلّ النظام الجديد.



عبد الحليم حافظ في بداياته.



عاصي وفيروز في صورة لهما أمام أعمدة بعلبك قبل بدء المهرجان.



واصلت صباح حياتها الحافلة بالزيجات.
وفي الصورة أعلاه غلاف مجلة الكواكب.


رابحة
بنت العرب
كوكا
اخراج
نيازي مصطفى
محمد عبد الوهاب
راقيه ابراهيم
رصاصه في القلب
UN PLOMB AU COEUR

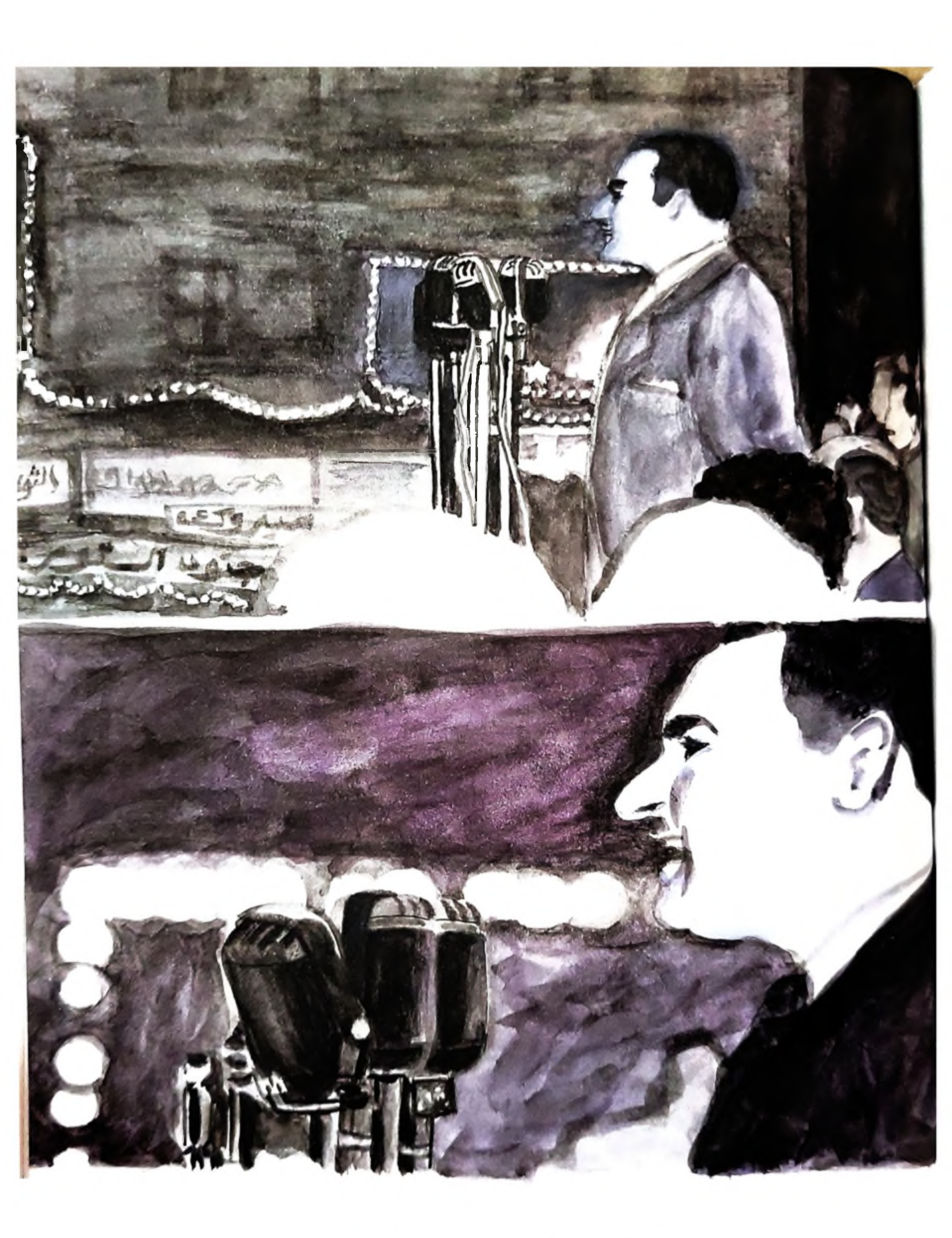
108

تأميم القناة:
«هنا صوت العرب من الإسكندرية»

في أحد الأيام، وقع حدث غطّى حتى على أهمّية الثورة. إنه يوم 26 تموز/يوليو من العام 1956. الجو قائظ، وضاغط جداً. كان الأسبوع مروعاً. حلّ المساء على الشرفة. أنهت أم كلثوم كوباً من عصير الليمون وقالت: «تعالوا ندخل جوا، عايزة اسمع الخطاب». عبد الناصر يتوجّه إلى المصريين من الإسكندرية في الذكرى الرابعة لرحيل فاروق. دخلت الصالون يتبعها القصبجي والدكتور حفناوي. هم الثلاثة يعرفون أن هذا الخطاب الذي سيُبثّ عبر الإذاعة سيكون «حماسيّاً». فمنذ يومين أو ثلاثة كان الجميع على علم بالأمر ويتحدث عنه: الصحافة، والسياسيون، والدبلوماسيون. الجميع يترقّب ردّ الرئيس على الصفعة المهينة التي وجّهها إليه الأميركيون قبل أسبوع[1]. الجميع ينتظر، لكن لا أحد، على الإطلاق، يعرف ما الذي ينتظره بالضبط. «هنا صوت العرب من الإسكندرية...» وصل رامي وانضمّ إلى الثلاثة المتحلقين حول المذياع. «... وصل الرئيس جمال عبد الناصر... ببزّة رسمية وربطة عنق، ها هو يصعد ببطء درجات المنبر... يمسك بالميكروفون...». لا يُسمع الصوت جيداً، فالجماهير المحتشدة في ساحة محمد علي غفيرة وتهتف للريّس. بدأ خطابه. خطاب لا ينتهي. طويل، طويل جداً، يلقيه بنبرة أليفة، هادئة ومنفعلة، لا تخلو من حسّ الفكاهة على الرغم من جديتها. إستعاد أحداث قرون من الاستغلال والإذلال التي شهدها العالم العربي على أيدي الغرب. تحدّث عن حرب الجزائر وعن التخلّي عن الفلسطينيين. قال إن قادة «العالم الحرّ» هؤلاء مصابون بفقدان الذاكرة، نسوا أنهم هم من وضعوا شرعة حقوق الإنسان وميثاق الأمم المتحدة الذي يخرقونه كلّ يوم. جعل يروي وقائع طريفة من مداولاته مع المبعوثين الأميركيين وأصحاب المصارف العالمية. إستفاض في الكلام. كانت أم كلثوم وأصحابها يضحكون من حين إلى آخر، لكنهم كانوا يعلمون أنّ أمراً خفياً وراء ذلك. فجأة تغيرت النبرة وبدأ يتحدث عن قناة السويس كما تحدث عن آلاف الأمور قبلها، إنما بشكل مختلف. في النهاية، نطق بالعبارة الصاعقة: «وأعلن لكم أنني اليوم بالذات، وباسم الشعب، وقّعت مرسوماً بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية! باسم الشعب! في هذه اللحظة التي أحدثكم فيها، باشر مندوبو الحكومة السيطرة على القناة وقد نشرت الجريدة الرسمية قانون تأميم الشركة...». وكان الانفجار. أم كلثوم تبكي وتضحك. لقد فعلها! لقد تجرّأ! توقفت هتافات الجماهير بضع ثوانٍ لكي تستوعب الكلام الذي أعقب ذلك: «منذ أربع سنوات، في هذا المكان بالذات، هرب فاروق من مصر. واليوم، في التاريخ نفسه، عادت إلينا قناتنا!» أم كلثوم ترتجف. كم تحبّه! «يا جمال!» كم هي فخورة به، فخورة لكونها مصرية. هلّلت وعانقت الرجال واحداً واحداً. «ده اللي حيرفع راسنا، حيرفع راس المصريين، والعرب، وكل المظلومين».

---

[1] كانت الولايات المتحدة قد تعهدت، بعد أشهر من المفاوضات، بتمويل بناء السدّ العالي في أسوان (بموجب قرض بقيمة 270 مليون دولار)، ولم تلبث أن انسحبت من المشروع بلا سابق إنذار، لعدم موافقتها على سياسة عدم الانحياز التي ينتهجها عبد الناصر. وعلم عبد الناصر بالقرار عبر بيان مهين نشرته الصحف. فكان قراره بتمويل بناء السدّ من مداخيل قناة السويس.



فجأة تغيّرت النبرة وبدأ يتكلم عن قناة السويس...



«دو لسبس» كانت كلمة السرّ، الإشارة التي تنتظرها حفنة الرجال المتمركزين على القناة للبدء بشنّ العمليات.



استتبع ذلك نشوب الحرب المؤامة التي تحالف فيها المستعمرون القدامى، إنكلترا وفرنسا، مع المستعمر الجديد، إسرائيل، في محاولة لاستعادة القناة والإطاحة بـ«موسوليني النيل» و«هتلر الأهرام». وانتهت على الرغم من الهزيمة العسكرية المصرية، بانتصار سياسي لعبد الناصر الذي احتفظ بالقناة واحتلّ مكانة رفيعة ليصبح معبود مئات ملايين العرب، وكذلك كل شعوب العالم الثالث.

ولمزيد من التأكيد كرّرها أربع عشرة مرة في خطابه أمام دهشة الجمهور:
«قال دو لسبس...»، «أتعرفون بما أجيب دو لسبس؟» «أنا قلت لدو لسبس»، إلخ.

109

إنطلاقة عشر سنوات أخرى من المجد

خسرت مصر بعضاً من روحها وأفرغت من جزء من ماهيتها، إذ غادرها الأوروبيون المقيمون فيها إلى ديارهم. هكذا استقل كلود فرانسوا ووالداه باخرة من الإسكندرية أبحرت بهم إلى مارسيليا. لكن رحيل هؤلاء ليس بالمهمّ إذا ما قورن برحيل قسم كبير من اليهود الذين أقامت عائلاتهم في مصر منذ حوالى ألفي سنة ولا يتكلمون إلّا العربية. قصد أغلبهم فرنسا أو أميركا، بينما اختارت قلّة منهم فقط إسرائيل التي عدّها كثيرون مسؤولة عما ابتلوا به.

شجّعت بيروت، من خلال تألق ثقافتها الحديثة والليبرالية، تجلّي أسلوب الأخوين رحباني. فنسمة الانتعاش التي أضفياها على الموسيقى فتنت الجمهور. لقد جعلا القصائد مقتضبة لتصير مدتها خمس دقائق بدلاً من عشرين، وفيها وصفا، بعربية محكية إنما أنيقة، عالماً ريفياً فيه تجري السواقي ويغرّد الحسّون ويزهر الغار. صار محمد عبد الوهاب، الذي عشق جبل لبنان، يقضي فيه مزيداً من الوقت هروباً من غبار القاهرة لتناول الطعام اللبناني الذي يعشقه، ولمعالجة الأمراض الكثيرة التي يعاني منها، حقيقية كانت أم متوهمة. وبطبيعة الحال، لحّن لفيروز، وفي ذلك تتويج لعمل الرحابنة.

كان لبنان يعيش وهماً، في استيهام جنة هي في متناوله فعلياً. حالة دامت عشر سنوات في حلم من أحلام اليقظة يهدهده صوت فيروز، قبل أن يتحطّم على وقع أصوات المدافع وبنادق الكلاشنيكوف. لكن لِندَعْ الشحرور يُغرِّد قليلاً، وزهر الجهنّمية يُبرعِم.

من ناحيتها، انطلقت القاهرة في عقدٍ إضافي من المجد، حيث دشنت استعادة القناة حقبة جديدة من البهاء في مصر. وفيها تمتّعت السينما والموسيقى، على الرغم من نظام ازداد تسلّطاً، بحرية كبيرة وازدهرتا أكثر من أي وقت مضى. لم يُمنع أي فيلم في عهد عبد الناصر الذي كان يتدخل شخصياً للسماح بعرض أفلام منعتها الرقابة. لكن الانتصار المذهل الذي سيقطع مرة أخرى أنفاس العالم العربي والذي سيحقّقه الرئيس وهو في قمة شعبيته، جاء في مجال الموسيقى، ولم يقلّ إعجازاً ومفاجأة عن استعادة القناة، وذلك حين تقرّر أن تغني أم كلثوم ألحان عبد الوهاب.



فاتن حمامة وعمر الشريف في فيلم «سيدة القصر».

Hoda Soltane dans Bandit de grand chemin 1959 هدى سلطان في قاطع طريق



ازدهرت السينما أكثر من أي وقت مضى، وبرز نجوم جدد.

Hind Rostom dans Rends-moi mon âme 1957 هند رستم في ردّ قلبي



Nadia Lotfi dans Le Palais du Désir 1967 نادیه لطفي في قصر الشوق

هدى سلطان وشاديا وهند رستم وناديا لطفي برعن في أداء أدوار فتيات الملاهي والنساء الخائنات.

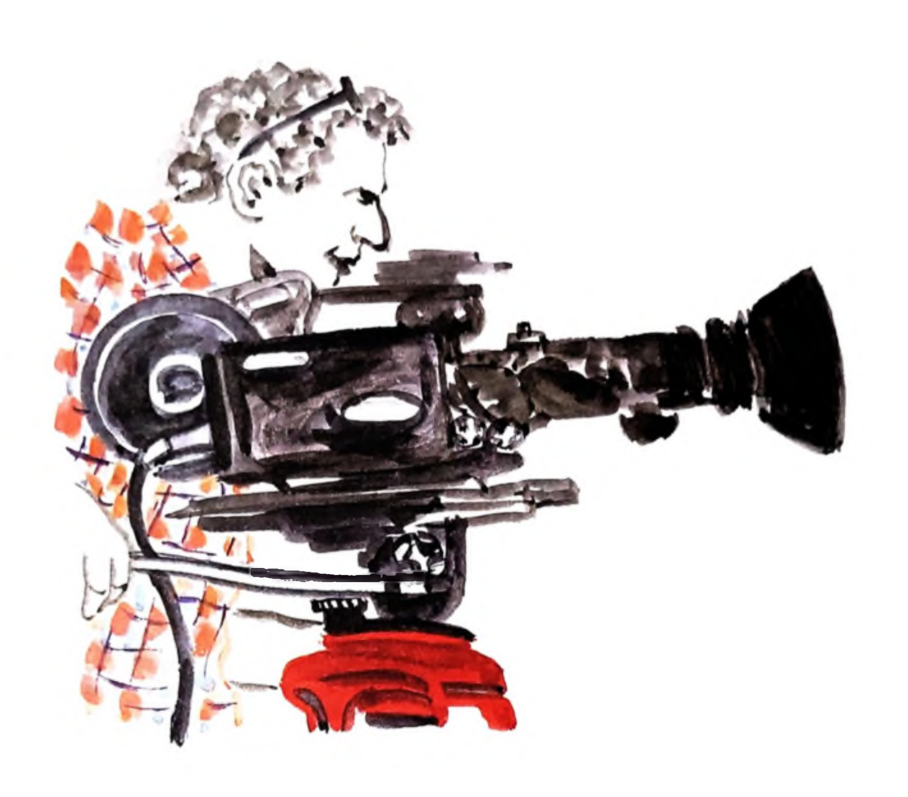


فيروز

أسلوب الرحابنة في أشدّ تجلّياته.



فيروز في قمة مجدها.
الروح العذبة التي بثتها في أغانيها فتنت الجمهور.



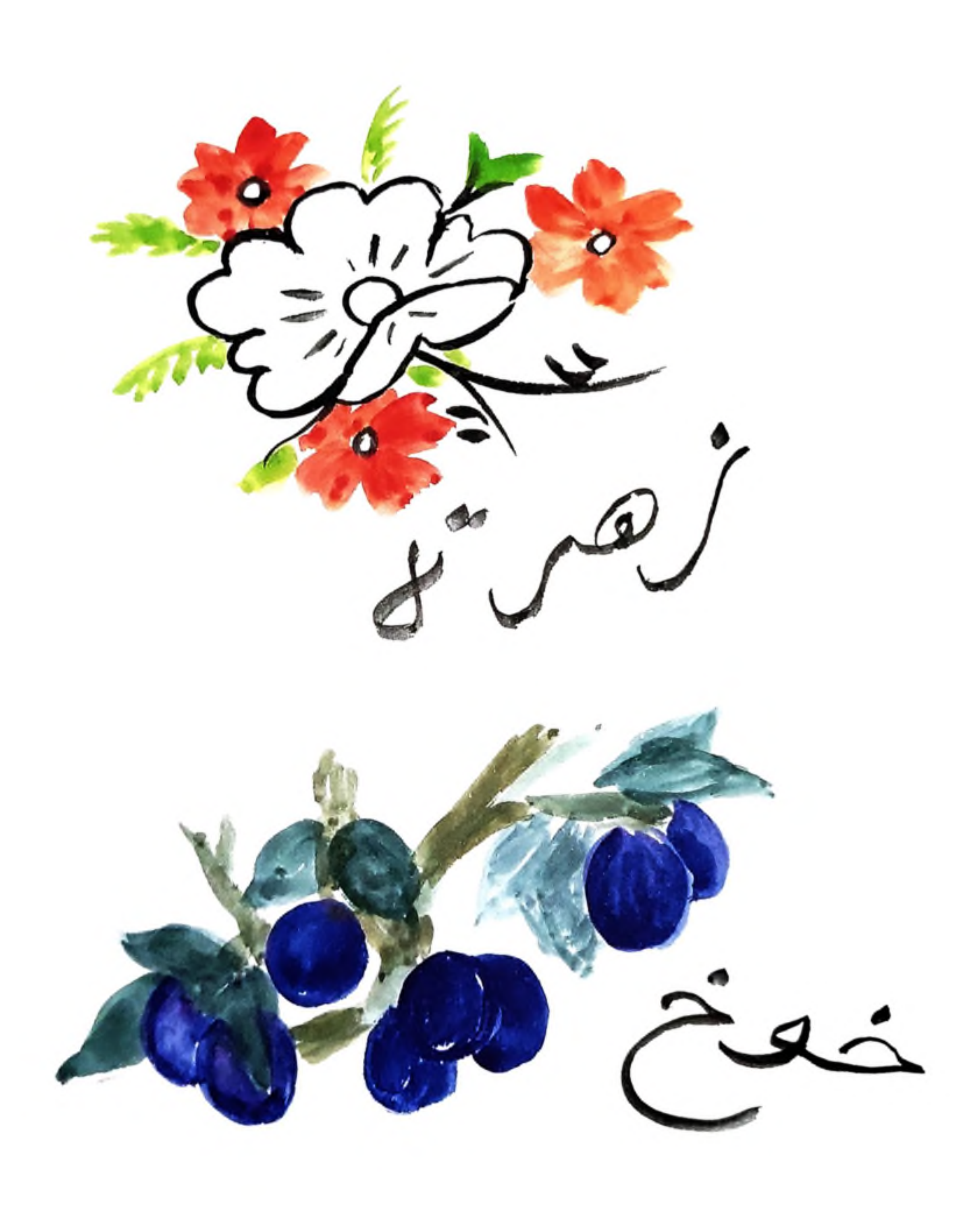


شاهين وبركات، من كبار المخرجين في القاهرة، حضرا إلى لبنان
لتصوير أفلامها لأنها لا تقبل الابتعاد عن أولادها.


بلبل
شتلة زنبق
رمّان



كلمات الأغاني تصف عالماً ريفيّاً...



... وهي زاخرة بأسماء الأزهار والثمار والعصافير.



فيروز توقع عقداً مع الموسيقار محمد عبدالوهاب بحضور الرحابنة والمحامي الخاص بها.

وقّعت عقداً مع عبد الوهاب، متوّجة بذلك مسيرتها!



110

لقاء السحاب

في السيارة التي تقودها إلى سينما «قصر النيل»، صالتها المفضّلة، جلست أم كلثوم بيدين متعرّقتين وركبتين مرتجفتين تتلو آيات من القرآن. لطالما شعرت باضطراب كبير يوم العرض. منذ أربعين سنة لم يتغيّر الأمر. مشكلتها دوماً مع هذه اللحظة. ذلك الانكماش في المعدة هو ذاته. لكن في تلك الليلة كان الأمر مختلفاً، تلك الليلة تخطّى الأمر كلّ ما عاشته. ليس اضطراباً فحسب، بل الجزع. إنها ليلة حدث استثنائي يترقّبه الجمهور منذ ثلاثة عقود... مصر كلها حلمت به: أم كلثوم تغنّي عبد الوهاب. «الهرم الرابع» و«آخر الفراعنة». منذ الثلاثينات أساساً سبق أن كان حلم طلعت حرب أن يجمعهما في فيلم واحد. بذل عدّة محاولات، لكنهما متباغضان. تكررت محاولات دفعهما إلى العمل معاً في الأربعينات والخمسينات والستينات، إنما من دون جدوى. منذ وصل عبد الناصر إلى الحكم، شجّعهما بإلحاح على ذلك. كان يُجلسهما إلى طاولته في ذكرى ثورة الثالث والعشرين من تموز/يونيو، ويحثهما على تقديم هذه الهدية إلى جمهورهما الذي يحمل حبهما في قلبه. وها هو الأمر يتحقّق هذه الليلة، بعد أن استسلمت أم كلثوم. الليلة تشعر بالخوف. تعرف أن الناس، في كل مكان تصله الإذاعة المصرية، متسمّرون وراء أجهزتهم. إنه حدث لا يُصدّق، خصوصاً أن قصة خصومتهما باتت أسطورية. راحت تتلو الفاتحة متمتمة. ما حاجتها إلى محمد، وتجاربه التحديثية؟ كان التعاون بينهما صعباً ومضنياً، فميولهما الموسيقية متعارضة. حاول كلاهما فرض آرائه. لا يمكن أن تتعامل أم كلثوم مع عبد الوهاب كما تفعل مع ملحّنيها المعتادين، فهو أيضاً له مكانته. ومع ذلك أعاد خمس مرات كتابة بعض المقاطع التي لم ترق للست. عدّة مرات خلال هذا العام الذي استغرقه تحضير الأغنية، كاد أحدهما أن ينسحب. تُواصل أم كلثوم الصلاة، مركّزة على بعض السُّوَر. وإذا كانت أم كلثوم خائفة، فعبد الوهاب القلق بطبيعته كان مرتعباً مُمتقع اللون. كانت ساقاه ترتعدان وقد جفّ حلقه. لم يكن راغباً في حضور الحفلة، فهو عاجز عن تحمّل ذلك. إن لم تسر الأمور على ما يرام ولم توفّق هذه الليلة، ستكون غلطته هو في جميع الأحوال. لكن الأمور سارت على ما يرام، وفاقت ما كانا يتوقعانه، لا بل فاقت حتى ما كان يتوقعه الجمهور. إنه نجاح باهر. حفلة مدهشة، من أطول الحفلات التي قدمتها أم كلثوم في حياتها. أغنية «إنت عمري» قصيرة نسبياً، لكن الجمهور أراد بلا كلل سماع عملاقيه المهيبين اللذين تعاونا أخيراً في ما سُمّيَ لاحقاً «لقاء السحاب». حلّت المفاجأة ضخمة منذ اللحظات الأولى. فقد بلغ عبد الوهاب من الجرأة ما جعله يُدخِل الغيتار الإلكتروني في فرقة كوكب الشرق الموسيقية! كانت المقدمة الموسيقية على درجة من البراعة والتألّق، قوبلت منذ البداية بالتصفيق. أحبّ الجمهور أم كلثوم في هذه الموسيقى الجديدة إلى أقصى الحدود، وقد بهرته أغنية «أنت عمري» وأصبحت إحدى الركائز في سجلّها الغنائي.



خلال إحدى جلسات التمارين،
أم كلثوم تكشط قعر الطنجرة تحت أنظار عبد الوهاب المشمئزة.

في عالم الطرب

اتفق عبد الوهاب وأم كلثوم

اذا اختلف زعيما الطرب على رياسة النقابة فانهما متفقان على تقدير نابلسى فاروق ، ومن قبلهما اختلف الزعماء فى السياسة ولكنهم اتفقوا على تقدير نابلسي فاروق



في ثلاثينات القرن الماضي، غذّت عدائيتهما الأسطورية عالم الدعاية!



التقيا على الدوام في الاستقبالات والاحتفالات على مدى أربعة عقود...



يتملّكها الخوف في الطريق إلى الحفلة...



... فتضمّ القرآن إلى صدرها وهي تتلو الفاتحة.

111

لا يعلو عليها سوى القرآن

«هي كالطعام، تسمعها وتُتخم. بعدها يمكنك الاستغناء عن العشاء.» «لا يعلو عليها سوى القرآن.» «هي خبزنا اليومي.» في منتصف ستينات القرن الماضي، رُفعت أم كلثوم إلى مستوى الألوهة. كانت تسحر الجمهور الذي يندفع لإجلالها في هتافات حماسية هي أشبه بالتعبير عن تعبّدهم لها. إمرأة تعطي نفسها ولا أحد يقربها. تحافظ على ثباتها مُمسكة بمنديلها الكبير الذي أصبح أسطورياً لما تداوله الناس عن احتوائه جرعة كوكايين تحتاج إليها كي تصمد طوال الحفلة. وقد شكّلت أغنية «أنت عمري» منعطفاً حاسماً في مسيرتها. لم تكن أغنية عادية. فالملحّن هذه المرة هو عبد الوهاب. كانت الحفلة مرتقبة وقد روّج لها الإعلام أكثر بكثير من أي حفلة سابقة. وكان من شأن الصّخب غير المسبوق الذي أحاط بها أن زاد قليلاً من هيبة «الستّ» الكبيرة أساساً. لحّن لها عبد الوهاب لاحقاً تسع أغانٍ أخرى، وعرف كيف يتعامل معها بشكل هادئ. لم يعد يدخل معها في نقاشات لامتناهية لإقناعها بجرأة بعض النوتات، ولم يتصرّف إلّا بناء على البراهين. وقد اهتدى إلى هذه الطريقة الدفاعية عندما رفضت بشكل قاطع فكرة استخدام الغيتار الإلكتروني في أغنية «أنت عمري». قالت له مستاءة: «لماذا الغيتار بينما عندنا في الموسيقى العربية آلة جميلة جداً هي العود؟». وكان قد كرّر عليها على مدى أسابيع: «أنا ما كتبتش النوتات دي للعود. الأمر مختلف تماماً». وبعد أن استنفد جميع حججه طلب في أحد الأيام من القصبجي، ويا للمشهد المروّع! أن يعزف على العود المقطوعة التي كتبها للغيتار، ثمّ طلب من موسيقي آخر عزفها على الغيتار. وبعد عزفه بضعة نوطات فقط، طلبت أم كلثوم منه أن يتوقف وقالت لعبد الوهاب بالفرنسية: «معك كارت بلانش!». هكذا وفّق عبد الوهاب إلى طريقة للتعامل مع مبادئ أم كلثوم المحافظة وطبعها الاستبدادي. أجل! إنها متسلّطة، وأنانية، ومستبدّة، وبخيلة، وسريعة الغضب. وكيف كان لها، هي المرأة الوحيدة في وسط ذكوري طاغ، أن تستمر لولا هذه العدائية؟

كانت امرأة وحيدة محاطة بالرجال. من موسيقيي فرقتها إلى كتّاب أغانيها، والملحنين وأصحاب الصالات، وشركات التسجيل والإذاعة، وتقنيي الاستوديو وجمهور حفلاتها... وخصوصاً الجمهور... آلاف الرجال وقلة من النساء، في حالة من الهيجان الجنوني والتفلّت العاطفي العنيف التي عليها امتصاصها كضربات يتلقاها ملاكم. حشد يهدر عند قدميها. يريدونها، يتمنون التهامها وشربها وملامستها. لم يكن نادراً أن يشاهد رجال يرتمون عند قدميها لتقبيلهما. وللاحتماء من هذا الهيام الجارف تحصّنت وراء ذاتها، حتى مع المقرّبين منها. وهذا ما أدركه محمد عبد الوهاب عندما حضر حفلة «أنت عمري» من الكواليس. ففي إحدى اللحظات أزاح الستارة قليلاً فأذهلته رؤية الجمهور قبالته. لقد أحسّ فجأة بما تعانيه، هو الذي لم تطأ قدماه خشبة المسرح منذ أيام شبابه، ولم يغنّ أمام الجمهور العريض بل فقط أمام الملوك والأمراء والرؤساء.





مع موسيقيّي فرقتها.

في زمن النظام السابق وفي زمن عبد الناصر
كان الوسط الذي عاشت فيه ذكورياً إلى حدّ كبير.





كانت على الدوام المرأة الوحيدة المحاطة بالرجال،
وفي الصورة تبدو في حفل استقبال في دمشق في أربعينات القرن الماضي.





كان عليها الاحتماء من هوس جمهورها المفتون بها.

112

بنت الإمام وابن المؤذن

تكره أم كلثوم إجراء المقابلات. وقد وعت حاجتها إلى التحكّم بصورتها العامة، فرفضت الردّ على أسئلة شخصية، ولم تسرّب من شخصيتها إلّا ما يخدم الصورة التي أرادت إعطاءها عن نفسها. موّلت بناء مسجد في مسقط رأسها وتصدّقت بالكثير على المحرومين، وهذه تفاصيل لم تجد مانعاً من نشرها في الصحافة. هي فلّاحة، قريبة من الأرض، متواضعة، مسلمة، تقيّة. تحكّمت بكلّ جوانب شخصيتها، ولم تكن تضع نظارتيها لحماية عينيها الحساستين وحسب أو لإخفاء انتفاخهما، بل لتحمي نفسها وتحجب أفكارها. إنّهما قناع، تماماً كما هي تسريحة شعرها المجموع عند مؤخرة رأسها وكأنه خوذة تحميها. غضبت مرة لرؤية صورتها في إحدى الصحف وهي تأكل، فقرّرت توظيف مصوّر شخصي ثابت كي تزود بنفسها الصحافة بالصور التي ترغب في نشرها. وطالبت بتصوير حفلاتها من بعيد موضحة للمصوّر أنه ليس هنا ليصوّر أفكارها الحميمة. أشرفت بنفسها في استوديوهات الإذاعة على «تنظيف» بعض الأغاني القديمة التي كانت تمتدح فاروق، حاذفة منها المقاطع غير المناسبة لكي تكون صالحة للبث من جديد. إختارت بعناية كلّ شخص يمكنه التواصل معها. لم يفاجئها أحد وهي تتعاطى المخدرات علناً، ولكن عندما تحيط بها مجموعة من المدخّنين، كانت تطلب منهم إغلاق النوافذ وتحرك يديها بقوة في الهواء كي توجّه دخان الحشيش نحوها. يُحكى أنّ أحد أوائل الصحفيين الذين سُمح لهم بدخول الفيلا وضع آلة تسجيل على منضدة أمامها، فقالت له: «ما اتكلمش أنا مع حديد». فوضع آلة «غرونديغ» وأخرج دفتراً وقلماً، فأشارت عليه بتوضيبها أيضاً قائلة «عايزة اتكلم مع بني آدم. بني آدم يبصّ في عينيّ».

ويوم وافقت أخيراً على إجراء مقابلة مسجّلة للإذاعة، طلبت، بعد استماعها إلى التسجيل، إعادة المقابلة، فكان لها ما أرادت. وقالت موضحة: «المرة الأولى كانت تمرين، تقدروا تمحوها».

كان لعبد الوهاب المطالب نفسها في ما يتعلّق بمقابلاته، فهو أيضاً يعيد التسجيل أحياناً. وكان من الدهاء بحيث لا يبوح لمحاوره إلّا بنصف ما يفكّر فيه تاركاً له مهمّة التكهّن بالباقي. يعمل ويعمل، بدبلوماسيته الفائقة، على إيصال الرسالة التي يريدها متظاهراً بأن الجواب انتُزع منه بلطف. منذ أن بدأ يلحّن لأم كلثوم ازدادت شعبيته، الواسعة أساساً، بشكل كبير والمجازفة التي راهنا عليها وكسباها جعلت منهما إلهين مجسّدين. بنت الإمام وابن المؤذن، أكبر علمَين في عالم الموسيقى العربية. وما بين الترفيه الدنيوي والجرأة الوثنية ولازمات الهيام والمتع الآثمة، عالم من الأحلام... فكيف ضللنا الطريق؟



نظارتاها قناع، وتسريحة شعرها خوذة...

الصورة التي ظهرت فيها تأكل مع محمد وفريد أثارت غضبها.





ابنة الإمام وابن المؤذّن، عملاقا الموسيقى العربية...

113

فيروز في متجر جدّي

جسّدت فيروز نموذجاً جديداً من النجومية العربية. فرضت موسيقى الرحابنة وحقّقت التوازن مع الأغنية المصرية الراجحة. لكنها اعتمدت سلوكاً مختلفاً جداً عن السلوك المعهود لدى من يشبهونها من نجوم الغناء. وضع عاصي قوانين جديدة للّعبة، معاكسة تماماً لما كان متّبعاً من قبل. رفض أن تغنّي فيروز في الحفلات الخاصة. لا قصور ولا منازل فخمة ولا مقرّات رئاسية. فيروز لا تغنّي إلّا على خشبة المسرح. فليأتِ كبار هذا العالم إلى المسرح للاستماع إليها إن رغبوا في ذلك. عندما زار شاه إيران وزوجته الأمبراطورة ثريا بيروت في العام 1957، لم تُجدِ توسّلات القصر الرئاسي والسفارة الإيرانية نفعاً، إذ رفض عاصي بشكل قاطع أن تُحيي فيروز حفلاً خاصاً تكريماً لهما. وهذا ما حدث في زيارة بورقيبة في العام 1965. كانت تلك سابقة، إذ إن عمالقة الفن المكرّسين مارسوا ذلك طوال حياتهم! أم كلثوم، وفريد... وعبد الوهاب الذي لُقّب في شبابه بمطرب الأمراء والملوك! وسبق له أن غنّى في بلاط بغداد أمام الملك فيصل في عشرينات القرن الماضي. كما أقام حتى نهاية السبعينات علاقات وثيقة مع حسين، ملك الأردن ومع حسن الثاني، ملك المغرب، المعجبين جداً به... وكذلك أسمهان التي لم تغنّ في الواقع إلّا في السهرات الخاصة! أمّا فيروز، فلا. وصار تشدّد عاصي مدعاة فخر، فهو لم يكتفِ برفض الحفلات الخاصة، بل اعتمد أيضاً مبدأ عدم كتابة أية أغنية في تمجيد أي قائد. لكنّ أم كلثوم وعبد الوهاب غنّيا الملك فاروق في شبابه! وهما يغنّيان اليوم احتفاء بعظمة عبد الناصر. ربما. إنما ليس فيروز، ليس الرحابنة. إنها مسألة مبدأ. وهو مبدأ أملاه موقف أخلاقي لا يمكن أحداً أن يجادل عاصي فيه، وبالتأكيد ولا حتى فيروز أيضاً. فيروز التي كانت الشهرة جرح حياتها، والتي بحيائها المَرَضيّ لم تستغلّ وجاهتها، ونفرت من النجومية وحاولت التصرف كما لو أنّ شيئاً لم يكن.

دخلتْ يوماً متجر جدّي في سوق الطويلة وكنت أنا موجودة. كان هذا في بداية السبعينات. ومع أنني لا أحتفظ من تلك المرحلة إلّا بذكريات مبهمة، إذ كنت في حوالى الخامسة من عمري، بقي ذلك النهار الربيعي المبارك محفوراً إلى الأبد في ذاكرتي. كانت برفقة شقيقتها وقد غطت رأسها بمنديل معقود تحت ذقنها وارتدت معطفاً مشمّعاً، ووضعت نظّارتين شمسيّتين رفعتهما فور دخولها. أحسست بألفة وجهها كأنه وجه جارة في طرف الشارع. لكنني لم أعرفها، على الرغم من الصمت الذي خيّم على المتجر لبضع ثوان. كما أن تهامس الموظّفين والزبائن وارتباكهم لم يُنبّهاني إلى ذلك. لم أتنبّه إلّا عندما سمعت الجملة السحرية من فم جدّي: «أهلاً وسهلاً ستّ فيروز، كيف حالك؟» نظرتُ مليّاً إلى هذه الزبونة العادية التي تحيطها هالة غامضة أدركت فجأة سببها. فسرعان ما راعني، أنا التي كنت أيضاً ذات حياء مَرَضي، التعرّف إلى تلك النجمة التي لم أرها إلّا على شاشة التلفزيون. وعندما نطقت تلك الكلمات «كيفك إنت خواجه أنطوان؟»، ردّاً على الترحيب الذي استقبلها به جدّي، تسمّرت في مكاني. فقد تعرفت في الحال على صوتها.



دخلت المتجر مكللة بهالة مبهمة.

114

الأطلال

كانت أم كلثوم تحضّر لأغنية جديدة من تأليف السنباطي. لم تكن تعلم ولم يخطر لأحد حولها، أنها ستكتسب بعد وقت قصير من غنائها مساء الخميس دلالة خاصة في العالم العربي بمجمله. دلالة أليمة وحاسمة. غنّت أم كلثوم هذه الأغنية للمرة الأولى في العام 1966، لكنّ معانيها اختلفت بعد سنة. فـ«الأطلال»، التي تتحدث عن أطلال حبّ انتهى، عن آثار خلّفها رحيل الحبيبة، لم تعد هي ذاتها المقصودة بعد حزيران العام 1967، بل حملت بعداً رمزياً كبيراً بعد النكسة، لدرجة أنها أصبحت أشهر أغنية لأم كلثوم حتى وفاتها، وكأنها تختصر كل محنة الشعوب العربية.

شهرٌ واحد يفصلنا عن الحفلة. السنباطي يعمل ويعيد العمل على الأغنية منذ أشهر، إلى أن رضي منذ أسابيع عمّا كتبه، لكنه اليوم خائر القوى. إنه يوم التمارين. أحمد رامي وعبد الوهاب موجودان أيضاً. الوجوه مكفهرّة، العيون محمرّة ومتورّمة. عينا أم كلثوم محجوبتان خلف النظّارتين، لكنها ممتقعة اللون وعلى فمها ابتسامة استياء. طبعاً لا علاقة لذلك بالمعنى المشؤوم الذي اتخذته هذه الأغنية بعد النكسة. ثمّة مأساة من نوع آخر تغشى العيون اليوم: لقد توفّي القصبجي. المرشد مات. المعجزة، وكبش المحرقة، والعبقري، والضحية، والمبدع، والمغبون، والمتفاني، والجريح، ورفيق العمر. قيل إن القصبجي المسكين كان قد اقترح عليها مرة أخرى أغنية جديدة منذ أقلّ من ثلاثة أشهر، وقد شجّعه على ذلك موافقتها على الغناء لعبد الوهاب. لكنها رفضتها. وحفلتها المقبلة ستكون الأولى في حياتها من دون القصبجي وراءها. فمنذ تسع وثلاثين سنة، عندما غنّت للمرة الأولى بمرافقة آلات موسيقية، كان موجوداً، وهو من حفّزها على تشكيل أول «تخت» موسيقي. إستولى حزن شديد على معظم الموجودين في الاستوديو. السنباطي وعبد الوهاب كانا تلميذي القصبجي في العزف على العود، وكذلك فريد الأطرش... الفنّانون الكبار يعرفون تماماً ما يدينون به للقصبجي...

خيّم حزن شديد على الحفلة الأولى من دون القصبجي. حُفظ مكانه مع الأوركسترا، هناك، خلفها، حيث كرسيّه الفارغ، وعوده مسنود إليه بالمقلوب. ألغى السنباطي هذه الآلة في توزيعه موسيقى «الأطلال». لا عود في «الأطلال». ولا في كلّ الحفلات التالية. يا له من نذير شؤم! لن يحلّ أحد مكان القصبجي في فرقة أم كلثوم إلّا بعد سنوات. وعلى أية حال، بدءاً من تلك اللحظة، لم يعد أيّ شيء كما كان من قبل...



نذير شؤم...

115

النكسة ومجوهرات أم كلثوم

كان الخامس من حزيران العام 1967 يومَ الصدمة، والذلّ، والخيبة، وإراقة الدماء، وفقدان الإيمان، واليأس، والألم، والاستسلام. كان جرحاً شخصياً، وكانت أم كلثوم محبطة ومحطّمة. ست ساعات كانت كافية لتدمير كل الطيران المصري. خمسة أيام كانت كافية كي نخسر سيناء وغزّة والضفّة الغربية والجولان، والأسوأ من كلّ شيء، القدس. عبد الناصر يستعدّ لإلقاء خطاب مُتلفز. طبعه الضابط الشاب المسؤول وسلّمه إياه فور انتهائه والدمع في عينيه. أعاد عبد الناصر قراءته وأجرى عليه تعديلاً واحداً. شطب بعض الكلمات في عبارة «مستعدّ لتحمّل تبعة ما يقع عليّ من مسؤولية» واستبدلها بـ«مستعدّ لتحمّل كامل المسؤولية». تسمّرت مصر كلها أمام شاشات التلفزيون. لقد أعلن عبد الناصر استقالته. نزلت مصر إلى الشارع فوراً حتى قبل انتهاء الخطاب. وكذلك فعلت بيروت وبغداد ودمشق والجزائر العاصمة. «ناصر! ناصر!» صيحات وصرخات يأس، وتوسّلات الحشود مطالبة الرئيس بالبقاء، بعدم تركها وحدها. بكت أم كلثوم. هي أيضاً لم ترد أن يتركها وحدها. لزمت لأسابيع منزلها، منهارة، حتى بعد عودته عن الاستقالة. كان الجرح دامياً وظنّت أنه لن يندمل أبداً. «يا قصبي، حسناً فعلت برحيلك العام الماضي...». وارتفعت أصوات تقول إن أحد أسباب الهزيمة هو أسلوب أغاني أم كلثوم اللامتناهية، وكأنها مخدّر اجتماعي نوّم الجماهير العربية فأهلكها. جنّ رامي من الغضب: «لو أن كلّ عربي يتمّم واجباته بجدية أم كلثوم وإصرارها، لكان العالم العربي في أحسن حال!». وأخيراً جاءت ردة فعلها: ستكرّس نفسها كلّياً لوطنها. ها هي مصر تحاول للمرّة الأولى منذ خمس عشرة سنة رفع رأسها لتجد نفسها، في غضون ساعات، في أسفل درك. لكنها ستساعدها على النهوض مجدداً، فهي قادرة على ذلك. تعلم أنها الوحيدة القادرة على ذلك. هي وهو. بدأت بمجوهراتها التي تبرّعت بها للمجهود الحربيّ، وطلبت من جميع المصريات الاقتداء بها. ثمّ باشرت جولة وطنية تبرّعت بأرباحها للوطن. كان مرورها يولّد حماسة شعبية لا يستطيع أي خطاب أن يوقظها. استُقبلت في محطات القطار باليافطات والزغاريد، وسط مشاهد الجذل التي أراحت السلطة. رفعت حفلاتها المعنويات في البلاد، ناهيك عن المبالغ التي دخلتها، وقد واكبها التصفيق كعاصفة لامتناهية من المنصورة إلى طنطا، ومن بور سعيد إلى أسيوط... في حفلاتها التالية ستغنّي للمرة الأولى والوحيدة في بلد غربي، وذلك في مسرح الأولمبيا في باريس.



ألقى أهمّ خطاب له،

هو الخطيب الكبير... خافض الرأس متجهّم الوجه ومختنق الصوت...



غنّت من أجل مصر وقدّمت مجوهراتها للمجهود الحربي.







واكبها التصفيق والهتافات من المنصورة إلى طنطا
ومن بورسعيد إلى أسوان وبني سويف...

116

في الأولمبيا

قدّمت أم كلثوم في الأولمبيا حفلتين ملتهبتين. توافد المشاهدون من كلّ أنحاء أوروبا والمغرب العربيّ. وما كان أي عربي في دول الانتشار ليفوّت هذه الفرصة. في الغربة يكون الجرح مؤلماً أكثر... ويقال إنها طلبت أجراً أعلى من الذي تقاضته ماريا كالاس، وقدمته كاملاً لمصر. يُقال أيضاً إن الحسين ملك الأردن حضر الحفلة لكن بصفة غير رسمية. ويُقال إنّ أحد أمراء الخليج هدّد قاطعة التذاكر بسلاح ورزمة من الدولارات، متوسّلاً إليها أن تؤمّن له مقعداً ولو بأغلى الأثمان. كانت حالة هياج شعبي. وقد اعترف مدير الأولمبيا، برونو كوكاتريكس، بنفسه، بأنه لم يسبق له أن شهد أمراً مماثلاً. «لم يتوقّع أحد نجاح تلك الحفلة. كان أكبر عمل جنوني أقوم به في حياتي. واجهت صعوبة في إيجاد فريق تلفزيوني لتغطية وصولها. لم يكن أحد يعرف اسمها. في غضون ذلك، كان آلاف الأشخاص، ومنهم مَن قدم من الخارج بطائرات استُؤجرت خصّيصاً للمناسبة، يقفون صفاً طويلاً لشراء البطاقات، مستعدّين لدفع أي ثمن للحصول عليها. وبين تكاليف الحفلة والرحلة، أنفق الكثيرون كلّ مدّخراتهم. في خلال الحفلة، ألهبت أم كلثوم المستمعين، روّضتهم، قطعت أنفاسهم، باتوا يجثون على الأربعة، لا أدري ماذا يتوسّلون. لم يسبق لي أبداً أن شهدت أمراً مماثلاً في حياتي. إنتهت الحفلة عند الساعة الثالثة فجراً. كانت تلك المرة الأولى التي يبقى فيها موظّفو الأوليمبيا إلى هذه الساعة المتأخرة. تلك كانت حفلة لا سابقة لها، ولن تكون لها لاحقة». صالة في حالة من الهذيان، لحظات صخب لامعقولة، حماسة استثنائية، مشاهد عبادة. كانت تغنّي وتعيد بصوتها إحياء ألم الأمة العربية برمّتها، وعزة نفسها، لمواجهة قدرها، لمحو الذلّ. كان ثلاثة أرباع الحضور من الشرقيين، وأكّد لها برونو كوكاتريكس أن قسماً كبيراً من المقاعد حجزها مصريون يهود مقيمون في فرنسا. تأثّرت بذلك إلى حدّ البكاء. «عملتي إيه يا إسرائيل؟» قالت في نفسها أنهم لا شكّ مشتاقون جداً إلى مصر، وغنّت لهم بكلّ جوارحها. وعندما وصلت في أغنية الأطلال إلى البيت القائل: «أعطني حريتي أطلق يديّ، إنني أعطيت ما استبقيت شيّا»، ضجّت الصالة بهتافات هستيرية. وما بين أغنيتين، كان بعض المشاهدين يتدافعون إلى المسرح لتقبيل يديها وقدميها. مع انتهاء الحفلة الثانية، أرادت العودة بسرعة إلى القاهرة التي بدأت تفتقدها. ولكن، قبل أن تغادر، حرصت على التقاط صورة لها أمام مسلّة الأقصر.

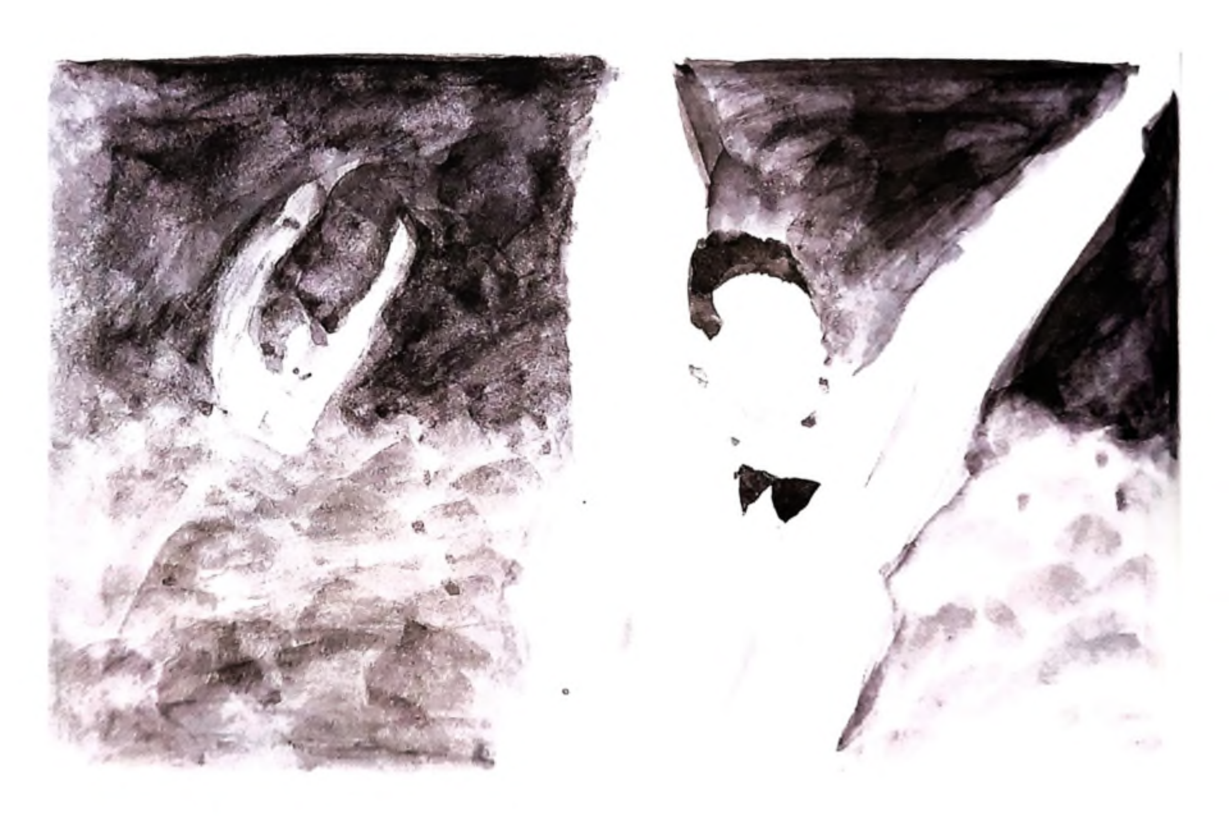


«لم يتوقّع أحد نجاح تلك الحفلة. كان أكبر عمل
جنوني أقوم به في حياتي»، قال برونو كوكاتريكس.

LE
RECITAL
OUM
KALSOUM



«كانت تلهب المستمعين، تروّضهم، تقطع أنفاسهم، يجثون على الأربعة،
لا أدري ماذا يتوسّلون. لم يسبق لي أن شاهدت أمراً مماثلاً.»



أعطني حرّيتي أطلق يديّا...
إنني أعطيت ما استبقيت شيّا...



هل رأى الحبّ سكارى مثلنا...





كم بنينا من خيالٍ حولنا...



إندفع شاب يريد تقبيل رجليها، ففقدت توازنها ووقعت على المسرح.



بعد الحفلة قدّمت إليها وردة معدّلة جينياً ستحمل اسمها منذ تلك اللحظة.

117

الجولة، كلّ هذا لا يكفي

بعد عودتها إلى القاهرة قرّرت القيام بجولة «من المحيط إلى الخليج». تونس، وليبيا، والمغرب، ولبنان، والأردن، والسودان، والكويت، والعراق... أخذت على عاتقها مهمّة رفع معنويات الأمّة العربية وإعادة توحيدها حول مصر. وفي كلّ مكان، استُقبلت استقبال رؤساء الدول، أصوّرها التلفزيونات المحلية والمصرية. وفي كلّ مكان سجّاد أحمر ووفود الوزراء والاستقبالات الضخمة. أما الحفلات فكانت خارجة عن المألوف. تقام أمام آلاف المشاهدين المأخوذين في حالة من الهذيان. عرفت، عند وصولها إلى تونس، أنّ اسمها أُطلق على أحد شوارع المدينة. في مراكش كان الاستقبال مؤثراً. فقد استقبلها ألف وخمسمائة عازف وراقص باللباس التقليدي في حالة من الانخطاف، بأناشيد تعظيم تحتفي بالمعبودة الآتية لزيارتهم. في ساحة جامع الفناء، أحسّ سائق سيارتها أن السيارة لم تعد تسير على الأرض بل تتقدّم مرفوعة بأيدي الحشد. وفي صيف العام 1968، زارت لبنان لتغنّي في مهرجانات بعلبك، في سهل البقاع. عادة، قلما يكترث سكان الجوار ببرنامج المهرجان، كارايان، وبيجار، والبولشوي... لكنهم هذه المرة طالبوا بأن يتمكنوا من سماع الستّ. فوُضعت مكبّرات الصوت في الشوارع المجاورة للآثار الرومانية. وشهدت الليلة التالية الجمهور القادم من بيروت ومزارعي المنطقة، تُلهبهم الحماسة نفسها على صوت أغنية «فكّروني». كالعادة، تألقت أم كلثوم بإبائها وإشراقها. لم يلاحظ أحد أنها متعبة وعجوز ومرهقة، وأنها قلقة ومحبطة. فعالمها يغوص يوماً بعد يوم في الظلمات. عالمها والعالم العربي كلّه. كانت تعرف أنّ صفحة قد طويت نهائياً. ولن يكفي النجاح منقطع النظير الذي تشهده حفلاتها منذ سنة، ولا الحماسة غير المسبوقة التي تثيرها حيثما مرّت، ولا الأمل الذي يحرّكه إشراقها... لم تعد ترى سوى نفق طويل مظلم يقود إلى الموت. موتها. لكنها تعلم أنّ نفق الباقين من بعدها سيكون أطول بكثير... لم تكن لتتخيّل أبداً، في أسوأ لحظات يأسها، أنّ هذا البلد، الفردوس، حيث تغنّي الليلة سيتحوّل قريباً إلى جحيم على الأرض. وما هي إلّا البداية.

في الوقت نفسه، في بيروت، أبصرتُ النور في عيادة الدكتور رزق. وأول صوت سمعته بعد ولادتي، إضافة إلى صوت أمي، هو صوت فيروز الآتي من الراديو الذي لم يتمكن من نقل حفلة بعلبك مباشرة، فبثّ أغنية «أعطني الناي وغنّ». كانت تتصاعد عذبة وخفيفة من الشارع المحاذي لقسم الولادات وتتسلّل كصوت سماوي إلى غرفة التوليد من النافذة المفتوحة على مصراعيها. ما زالت الساقية تنساب والعناقيد تتدلّى كثريات الذهب.



تصوّرت أمام مسلة الأقصر.



جواز سفر ديبلوماسي...



وفي مراكش، لاقت استقبالاً استثنائياً.







في تونس أطلق اسمها على أحد شوارع المدينة، وغنَّت في حضور بورقيبة...

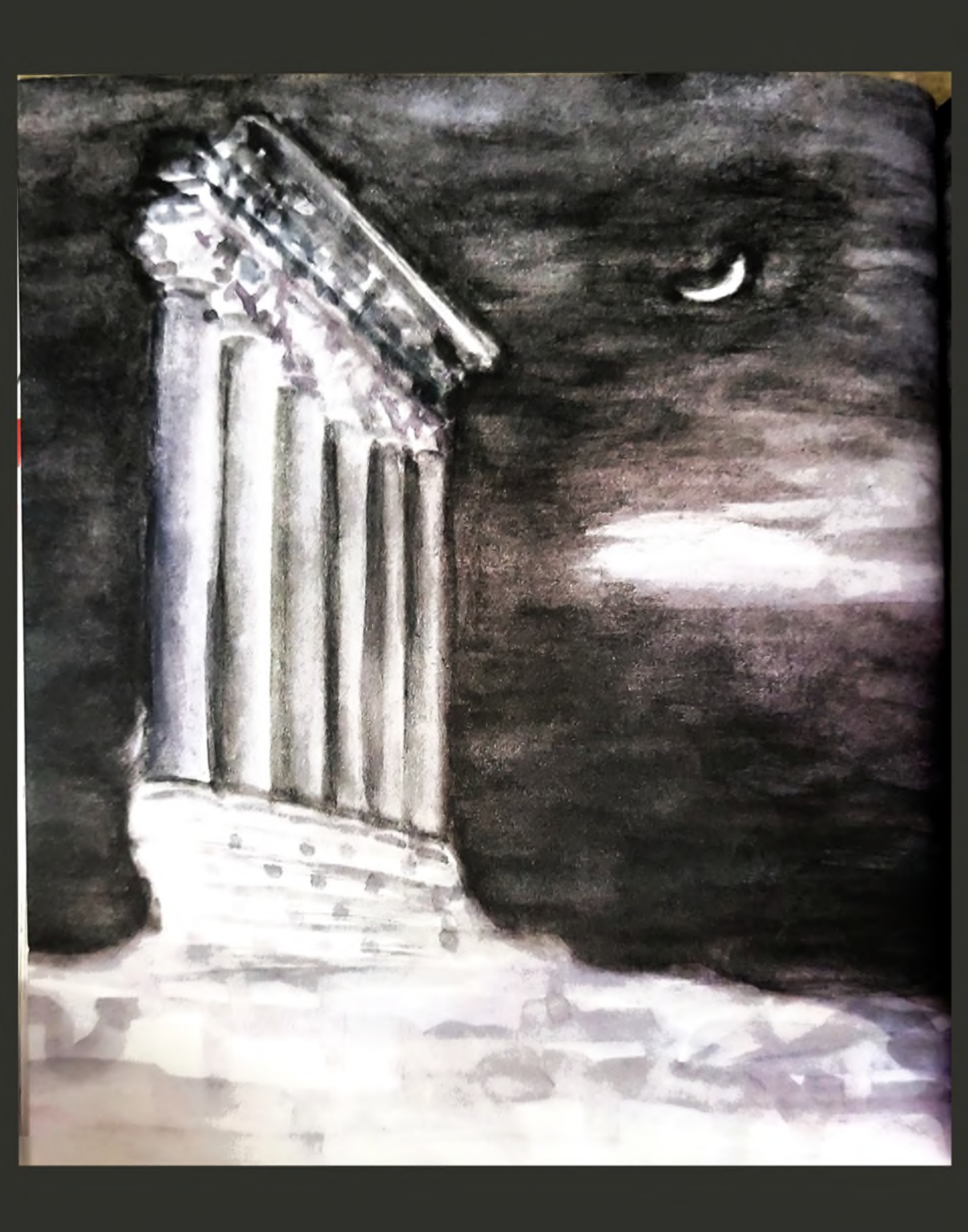


... وأمام الحسن الثاني ملك المغرب.

وفي كل مكان استقبلتها الوفود الرسمية ومشت على السجاد الأحمر وسط الجماهير الجذلى...



فِي بعلبك، صيف العام 1968...

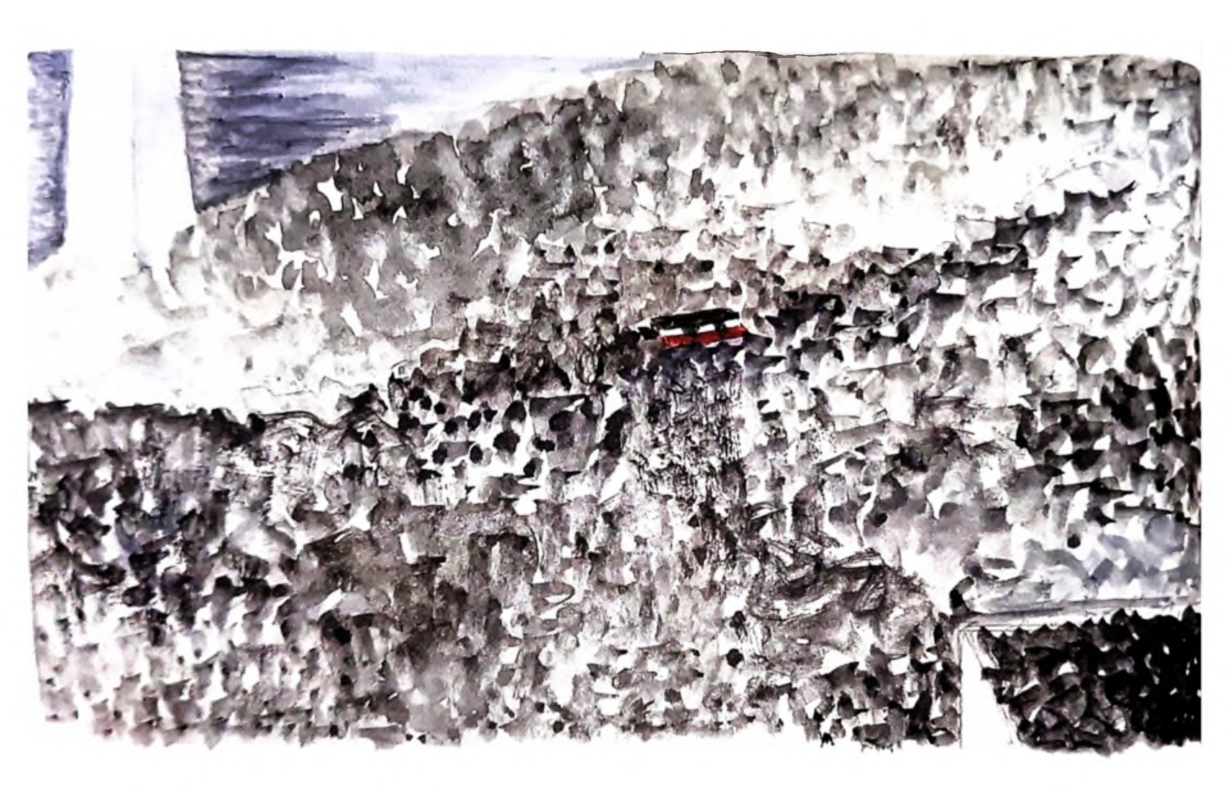


118
وفاة عبد الناصر

كانت قد وصلت إلى موسكو لإحياء حفلتين عندما جاءها الخبر الصاعق. حاولوا إخفاءه عنها، لكنّ ذلك كان مستحيلاً نظراً لعيون موسيقيي فرقتها المحمرّة. عندما سمعت أذناها الكلمات الفاجعة، اختنقت، وأحسّت أنّ الأرض تتداعى تحت قدميها ولم تعد ساقاها تحملانها. وقعت على الأرض منهارة. مدّدوها على مقعد حيث بقيت تبكي حتّى جفت مآقيها. الآن انتهى كلّ شيء فعلاً. لم يسبق لها أن شعرت بهذا القدر من الألم أو هذه الدرجة من اليأس التام. لم تشعر به عند وفاة والدها، ولا عند موت والدتها وشقيقها، ولا عند موت القصبجي، ولا حتى عند وقوع النكسة. قرّرت إلغاء الحفلتين والعودة فوراً إلى مصر. بكت طوال الرحلة في الطائرة، ووصلت إلى مطار هليوبوليس امرأة عجوزاً لم يتعرّف عليها أحد.

توفي جمال عبد الناصر عن اثنين وخمسين عاماً. بعد الساعة السادسة بقليل من مساء الثامن والعشرين من أيلول/سبتمبر العام 1970. قطعت الإذاعات والتلفزيونات المصرية برامجها المعتادة، وراحت تبثّ الآيات القرآنية. توقع الناس في كل أنحاء البلاد أخباراً مؤلمة، لكنهم لم يتصوروا طبيعتها بالضبط. كان الشهر مشؤوماً. ففي الأردن شنّ الملك حسين عمليات عسكرية ضدّ منظمة التحرير الفلسطينية التي يقودها ياسر عرفات، ما أوقع آلاف القتلى في غضون أيام، أغلبهم من المدنيين. كان الملك حسين وعرفات في القاهرة منذ أسبوع، وعبد الناصر يحاول التوصل إلى مصالحتهما. في 27 أيلول/سبتمبر تمكّن من ذلك مفاجئاً الجميع. وفي 28 منه رافق ضيفيه إلى المطار مرهقاً. أحسّ بإعياء شديد يسيطر على كلّ جسمه، مما دفعه إلى العودة إلى منزله ليأخذ قسطاً من الراحة. فهو ما زال يسكن مع زوجته وأولاده في منزل الخدمة الذي سكنه حين كان نقيباً شاباً في العام 1952. وهناك تعرّض لنوبة قلبية حادّة. توقفت الآيات القرآنية بدورها ليعلن أنور السادات للمصريين وفاة «ريّسهم». وسُمعت وراءه شهقات بكاء مخنوق صادرة عن أحد تقنيي التلفزيون. كانت الصدمة مُروّعة، وعمّ الذهول. إجتاح شوارع القاهرة حشد هائل من خمسة ملايين شخص للسير وراء النعش، في موجة غامرة من الألم والنحيب ومشاهد الحزن الجماعي. لم تؤثّر النكسة ولا النظام السلطوي في الحبّ الذي يكنّه الشعب لجمال، لضحكته، لعينيه. مصر بأكملها كانت تشهق باكية كطفل صغير... يا له من شعب عاطفي!... وفي المدن العربية كلّها نزل الناس إلى الشوارع.

إتّخذت أم كلثوم قراراً بالتوقف نهائياً عن الغناء. ما النفع الآن؟ فهي وحيدة. عجوز ومريضة وتعيسة. بين الجولة التي قامت بها والمجوهرات التي تبرّعت بها، جنت لمصر حوالى أربعة 4 ملايين دولار. ليس هذا كثيراً بالقياس إلى ما تحتاجه البلاد، لكنّ قواها خارت. كانت تغنّي له. كان الوحيد في العالم العربي الذي فاقت شهرتُه شهرتها. كان الوحيد الذي يبهرها. «لما الشمس تنطفي، حتى



القمر ما يلمعش تاني. خلاص يا رامي، كل شيء انتهى. مش حاطلع المسرح تاني». بلى، غنّت بعدها مرة واحدة، بعد مرور بضعة أسابيع، تكريماً لعبد الناصر. بدت مُنهَكة وفي صوتها شحنة من الحزن اللامتناهي. إنها أغنية الوداع بعد كلّ هذا العمر. كانت وفاة عبد الناصر، هذا التاريخ المُقدَّر الذي عاشه شعب بأكمله في الأسى، فاتحة لزمن المآتم.









محنة شعب...
وشعور بأنّ هناك صفحة طويت إلى غير رجعة.



صورة التقطت لها في موسكو أثناء انتظارها طائرة العودة...



وعند وصولها إلى مطار هليوبوليس.



جماهير غفيرة... وشعب مُني بالخيبة...



عبد الوهاب لحظة تلقّيه النبأ.

119

الانهيار

كانت أم كلثوم قد توقّفت عن الغناء منذ ثلاثة أشهر. ثلاثة أشهر من مقاومة ضغوط السلطة الجديدة التي أرادت رؤيتها مجدداً على المسرح. «الشعب محتاج لك. حيحصلو إيه من غيرك؟ الناس مفجوعة، لازم تساعديهم، ترفعي معنوياتهم. أنت مطربة الشعب. كنت بتغنّي لشعبك مش لعبد الناصر! مش ليه هو! مش ليه!». في نهاية الأمر رضخت. وليلة عودتها في كانون الثاني العام 1971، وقع حادث مؤسف. كانت أول حفلة تقرّر فيها أداء أغنيتين بدل ثلاث. الأغنية الثانية هي الأخيرة التي كتبها لها عبد الوهاب قبل وفاة عبد الناصر بفترة قصيرة. والمقطع الثالث فيها مرح جداً، وأم كلثوم في مزاج مختلف تماماً. عند تكرارها جملة «مرّت الأيام» خرج صوتها محمّلاً بالبكاء، ورافقته آهات الألم اللامتناهية. وجرت الدموع على خدّيها. دام ذلك عشرين دقيقة. كان هذا الاستسلام مفاجئاً إذ اشتهرت عنها سيطرتها على نفسها. وبعد فترة قصيرة ظهر في صوتها ضعف آخر فاضح. فاتّصل عبد الوهاب، الذي كان يسمعها على الراديو، وهو ملحّن الأغنية، بالموجي وقال له: «عملت إيه بالست يا راجل؟ مش شايف إنه لازم تراعي صوتها؟» فسأله الموجي: «وانا في إيدي إيه أعملو طيب؟»، «طوّل المقدمة، طوّل المقاطع الموسيقية عشان تديها وقت تستريح، والأهمّ إنك تخفّف الطبقة». إتّبع كل ملحنيها تلك الإرشادات، لكن ذلك لم يكن كافياً، فالمرض بدأ يتطوّر وأُلغيت الكثير من الحفلات.

ثم تأثرت بمحنة جديدة في تلك الفترة المؤلمة. فبحكم شهرتها الواسعة والحبّ الذي يكنه الشعب لها، تمتعت أيام عبد الناصر بوضع مميّز جعلها بمثابة سيدة مصر الأولى، وبتشجيع كبير من «الريّس». لكن لقبها، الرسمي والشعبي على حدّ سواء، بقي «الستّ». كان هذا البروتوكول ممكناً بفضل رصانة السيّدة تحية، زوجة عبد الناصر، التي لم تسعَ قطّ وراء الإطراء وظلّت بعيدة عن الحياة الاجتماعية. أما جيهان السادات فلم ترَ الأمور من هذا المنظار، ولم تكن من طبيعة تحية الطيبة والمتواضعة. وسرعان ما بدأت معاركها. منح السادات زوجته لقب السيدة الأولى المستحدث في مصر، واستشرست جيهان السادات في محاربة أم كلثوم التي راحت تتعرض لضغوط السلطة. فأم كلثوم تكاد تكون رمزاً لصيقاً بالعهد الناصري، الذي سرعان ما باشر السادات عملية «التصحيح» للقضاء على جميع آثاره. وقد وصل الأمر بجيهان السادات حدّ معاكستها المشاريع الاجتماعية التي تهتمّ بها أم كلثوم كما استولت على رئاسة إحدى المؤسسات التي كانت تتولّاها.



في 28 تشرين الأول/أكتوبر العام 1971، اندلع حريق ضخم في مبنى أوبرا القاهرة واستمرت النيران مشتعلة فيه لساعات تحت أنظار سكّان المدينة، فأحالته رماداً ولم يبق منه أثر. «يا الله، أنت القدير على كلّ شيء، لماذا تلاحقني بالمآسي؟ عجّل في موتي».



من هي تلك الصبية المتعجرفة التي تتهكم كلّما نظرت إلى نفسها في المرآة؟



غصّ صوتها واختلط الغناء بالنشيج.

120

مجد فيروز ومأساتها
الحفلة الأخيرة لأم كلثوم

بلغت موهبة فيروز ومجدها ذروتهما. وها هي تعود من جولة أميركية ناجحة جداً. عادت بأنف مختلف بعد جراحة تجميلية، وتصفيفة شعر جديدة ولون شعر جديد. كانت عروضها في بيروت، في مسرح البيكاديلي أو الكابيتول، تستقطب الحشود. غنّت القدس، ثم، وبدافع الحرص على إرضاء كل شرائح جمهورها، غنّت أيضاً مكّة. وقد التزمت أغاني كثيرة للأخوين رحباني قضية الفلسطينيين، وراح صوت فيروز يُلهب الشرق الأوسط بأكمله. وقد قدم لها نائبان من القدس مفتاح المدينة المقدسة (محفور في خشب الزيتون)، عربون تقدير لأفضل مَن غنّت شهيدتهما. وفي بداية السبعينات، عُدّت، طبعاً بحكم موهبتها وتميّز مسارها، المغنّية الوحيدة التي يمكن أن تنوب عن أم كلثوم، الوحيدة التي تستعيد شعلة الكرامة العربية.

في العام 1972، أُدخلت مستشفى رزق بسبب الإرهاق. فانتاب القلق جمهورها، لكن الأمر بدا بسيطاً مقارنة بما حصل بعد يومين. فقد انضم إليها عاصي في المستشفى لسبب أكثر خطورة، إذ تعرّض لنزيف دماغي كاد يودي بحياته. إنهار العالم حول فيروز. ليس لها إلّا الله. وبدافع حرصها على رفع راية لبنان، هذه الجنّة التي تتعايش فيها الطوائف كافة، وضعت تحت وسادة زوجها الكتابين السماويين، الإنجيل والقرآن. توالت رسائل وبرقيات التعاطف. وللمرة الأولى كتب لها ابنها زياد، وهو في السادسة عشرة، أغنية «سألوني الناس عنّك يا حبيبي»... كانت في غاية الروعة ونجحت تماماً في محاكاة أسلوب الرحابنة الأصيل. هي أغنية مرحة وخفيفة، أغنية حبّ من فيروز إلى عاصي الذي لا يزال في المستشفى، بقلم ابنهما، أثّرت كثيراً في الجمهور. لكن قصة الحبّ تلك كانت على وشك التلاشي. فالحقيقة أنّ فيروز تعيش منذ سنوات عذاباً مُرّاً إلى جانب هذا الرجل المتسلّط.

في الأفق، لاحت مأساة أخرى ليست شخصية بالقدر عينه. كان العقد المشؤوم في بدايته. وما زال لبنان منتشياً بالترفيهات السهلة والملذّات التي لا تُقاوم والاحتفالات الباذخة، غافلاً عن ضجيج السلاح الذي بدأت قرقعته تقترب.

في القاهرة، غنت أم كلثوم على المسرح للمرة الأخيرة. كان الرابع من كانون الثاني/يناير العام 1973 هو أول خميس من الشهر. ومنذ سبع وثلاثين سنة والحياة تتوقف في ليالي الخميس تلك. لم يشك أحدٌ في أن هذا الخميس سيكون الأخير. أقيمت الحفلة في سينما قصر النيل. غنّت «ليلة حبّ»، الأغنية الأخيرة التي كتبها لها عبد الوهاب، واستمرّت ساعتان إلّا خمس دقائق، وأغنية السنباطي دامت إحدى وخمسين دقيقة. لكن حفلة الخميس الأول من شهر شباط التالي ألغيت بسبب حالتها السيئة. استمرّ الجمهور يأمل بعودتها في الأشهر التالية لكن دون جدوى. ألغيت الحفلات المُرتقبة الواحدة تلو الأخرى. وأمضت أم كلثوم السنتين الأخيرتين من حياتها في صراع مع المرض وفي عزلة مريرة على غرار العزلة التي غرق فيها العالم العربي.





عادت من جولة ناجحة لها في الولايات المتحدة
بأنف مختلف وقصة شعر جديدة وهي في قمة مجدها.



إلّا أنّ القدر كان بالمرصاد.

121

موت فريد

عنونت الصحف: «نهار أسود للموسيقى العربية». كان الحزن عميقاً جداً. لقد توفي فريد الأطرش في بيروت عن عمر ستين عاماً. ظهر في آخر أفلامه، وهو مريض وخائر القوى، نحيلاً وعجوزاً لدرجة مخيفة، وخصوصاً بـ«مكياجه» المبالغ فيه كأنه ميت. بدا كجثة، شاحباً، مبرنق الشعر، وابتسامته الرائعة كأنها تكشيرة. كان للمنظر المؤلم الذي ظهر به فريد على الشاشة تأثير كبير في جمهوره الذي شعر بدنو أجل مطربه المحبوب. واتّضح من أحد المشاهد التي يبكي فيها فعلاً أنّ حالته النفسية ليست أفضل حالاً من حالته الجسدية. كان مرضه معروفاً، فمنذ أكثر من عشر سنوات تتناقل الصحافة الأخبار عن النوبات القلبية التي يتعرّض لها والعلاجات التي يتابعها. وكما دأب منذ فيلمه الأول «انتصار الشباب»، جاء فيلمه الأخير «نغم في حياتي» مليئاً بالإيحاءات الشخصية، جسّد فيه دور نجم في الغناء والعود مصاب بمرض في القلب، بكلّ بساطة. صوّر الكثير من المشاهد في شقته الباهرة في القاهرة. هذه المزاوجة زادت من حدّة الخوف الذي أثاره شكله الخارجي. فالوحدة واليأس تجلّتا تماماً على الشاشة. هذا الرجل الذي كان مضرب مثل في كرمه، عاش محاطاً بأصدقاء يدعوهم إلى ولائم الغداء والعشاء، إذ كان يخاف جداً البقاء وحيداً. وكانت السهرات التي يحييها في شقته الشهيرة أو في فيلّاه الفخمة على ضفاف النيل، مفتوحة لحشد من الفنانين وشخصيات المجتمع الذين ربطتهم به صداقة لا حدود لها. ولكن لا يخفى على أحد أنّ فريد كان يُقامر ويلعب الباكارا المفتوحة خصوصاً. وذات مرة خسر مبنى كاملاً في ليلة واحدة. قضى هوسه هذا على الثروة الضخمة التي كدّسها. أفلس فغاب «الأصدقاء». أصيب بإحباط شديد فقرّر العودة للعيش في لبنان حيث الشخص الوحيد في العالم الذي يحبّه ويبادله هو الحبّ أكثر من أي شخص آخر: كاميليا، ابنة أسمهان. قرّر أيضاً العودة إلى العزف على العود منفرداً، هو، الوحيد. كان العود قد خسر مكانته منذ ستينات القرن الماضي وهو يريد تصحيح الوضع. أقام سلسلة حفلات، وانتزع عزفُه ذو الطابع الشرقي الأصيل هتافات التقدير الرائعة. حتى أنّه كان يُبكي جمهوره كما يبكي هو. كان عوده بمثابة زوجة لا يفارقه أبداً... ومن أكثر الأمور التي أثّرت فيه في السنوات الأخيرة من حياته أنّه لم يلحّن أية أغنية لأم كلثوم. وكان هذا، باعترافه، سبباً لتعاسته العميقة. فقد باح في إحدى مقابلاته، بالبراعة والعفوية التي يتميّز بهما، أنه لا يفهم سبب رفضها الدائم للأغاني الكثيرة التي قدمها لها. يوم تشييعه، سار آلاف الأشخاص في الموكب، ترافقهم أوركسترا القاهرة الكلاسيكية. وكان قد طلب في وصيّته أن يُدفن في القاهرة بجانب أسمهان.

كانت بديعة مصابني قد توفيت قبل أسابيع، بدون أن ترى القاهرة مجدداً.





فريد الأطرش .. لم يمت

ولكنه تركنا الى دنيا الخلود

في لبنان واكب الجمهور جثمانه إلى مطار بيروت حيث نقلته طائرة إلى القاهرة.



فريد كما ظهر في آخر فيلم له...



... مثيراً الهلع والحزن في أوساط جمهوره.

122

وفاة أم كلثوم

في الرابع من شباط/فبراير العام 1975، قطعت الإذاعة المصرية برامجها وبدأت تبث آيات قرآنية. وبعكس ما جرى يوم وفاة عبد الناصر، لم يتساءل أحد عن طبيعة الخبر المشؤوم الذي تنذر به تلك الصلوات على الإذاعة. أدرك الجميع الأمر على الفور: لقد توفيت أم كلثوم. كان الخبر مُتوقَّعاً منذ أسابيع، فالصحف تنشر التقارير اليومية عن صحتها، والمراساون من العالم العربي أجمع يداومون في مستشفى القوات العسكرية حيث أمضت آخر أيامها، وحشد قلق ينتظر أمام فيلاها. يعترف معظم المصريين أنهم بكوا ثلاث مرّات في حياتهم. يوم وفاة عبد الناصر، ويوم وفاة والداتهم، ويوم وفاة أم كلثوم. نُظّم حفل تشييع وطني مهيب، لتلك التي رافقت مصر على مرّ قرن من الزمن، وأعطتها الكثير. حضرت الفرق الموسيقية، والجيش، والسفراء، وممثلو رؤساء الدول، ووزراء، وبعثات من كلّ الدول العربية، وجمعيات، ونقابات، وشركات. حضروا جميعاً ليخصّوا فلّاحة دلتا النيل بتكريم أخير. أما السادات فلم يحضر. السادات، غالباً ما تكون خياراته مريبة. وفي ذلك اليوم اختار أن يكون المصري الوحيد الذي لا يبكي.

إنطلقت مسيرة التشييع من مسجد عمر مكرم، المسجد نفسه الذي انطلق منه موكب تشييع عبد الناصر، وتوجّهت إلى ساحة التحرير. دبّت الحركة وسط الحشد الضخم الذي ملأ شوارع القاهرة منذ الفجر وراح يتّسع. شكّلت الجماهير المتدافعة وراء المسيرة كتلة متراصة وضخمة من أربعة ملايين شخص، بدأت تتعاظم كموجة عارمة تجرف كلّ شيء في طريقها. وغرق موكب التشييع الرسمي في حماسة شعبية خارجة عن السيطرة حملت الجثة وسط الصراخ والنحيب. عاش كلّ امرئ خسارتها كأنها مأساة شخصية. وأراد الجميع الاقتراب قدر الإمكان من الإلهة وتقبيل نعشها أو لمسه. ثمّ أُفلت النعش من أيدي حامليه الأساسيين، وراح يتنقّل من يد إلى يد في منظر شبيه بالطقوس الوثنية، طائفاً فوق هذا السيل البشري المتفلت على مدى ثلاث ساعات في شوارع القاهرة، ومتوقّفاً أمام الأمكنة التي كانت عزيزة على قلبها. حملها الحشد أخيراً إلى مسجد الحسين، الذي كان مسجدَها المفضّل. هناك، تلا شيخ المسجد صلاة الجنازة وطلب حمل النعش إلى المقبرة، مشدّداً على أن أم كلثوم كانت امرأة مؤمنة وأنّها رغبت في أن تُدفن بسرعة كما يوصي الدين الإسلامي. نفّذ الحشد ما طُلب منه وحمل الإلهة إلى المدافن.

غابت «الستّ»، والتزمت الصحافة العربية بأكملها الحداد. وجاء أجمل تعبير عن أفول هذه الحقبة من صحيفة لبنانية نشرت رسماً كاريكاتورياً صغيراً يصوّر أسطوانة لأم كلثوم تغيب وراء البحر وكأنها الشمس في الأفق، أمام عينَي فلّاح لبناني يجلس على الشاطئ باكياً. رؤية استشرافية غير مقصودة. فبعد شهرين اندلعت حرب لبنان وذرف اللبنانيون دموعاً حقيقية على سنوات عزّهم.





عاملون بشركة
سطوانات صوت القاهرة
ينعون بالغ ا





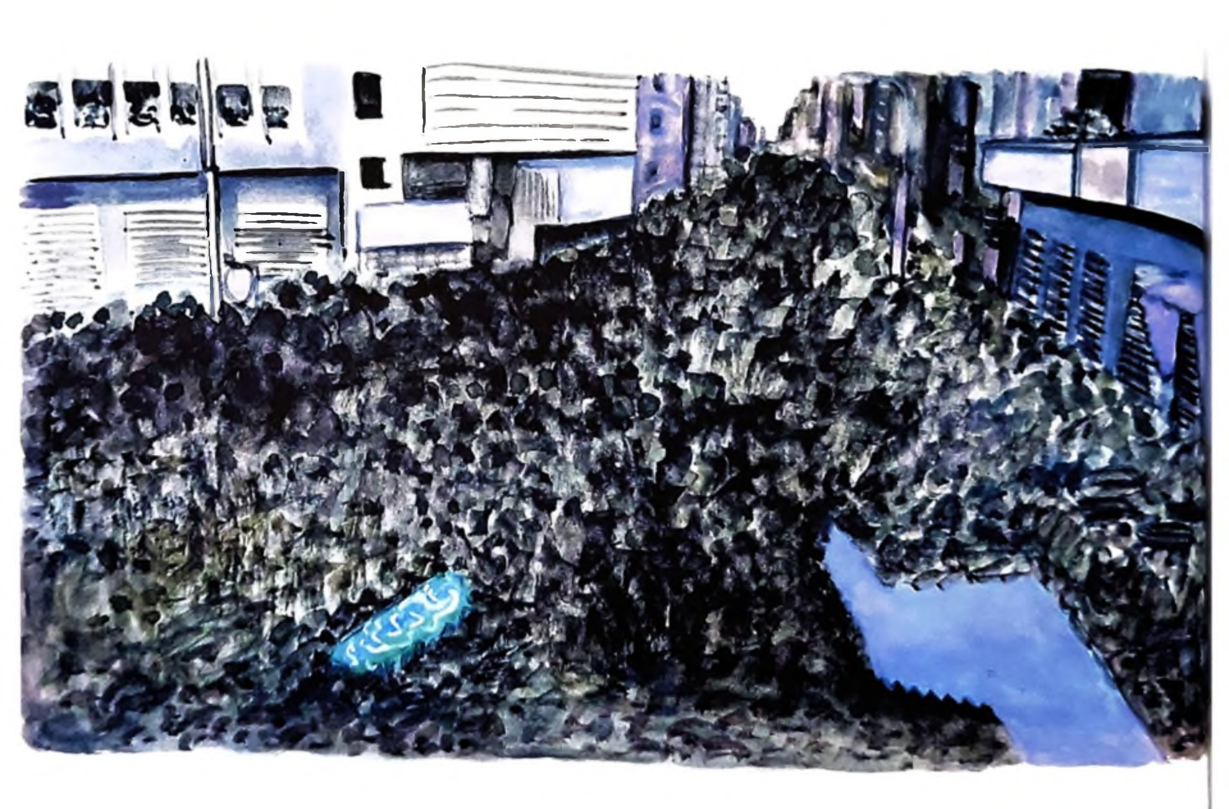




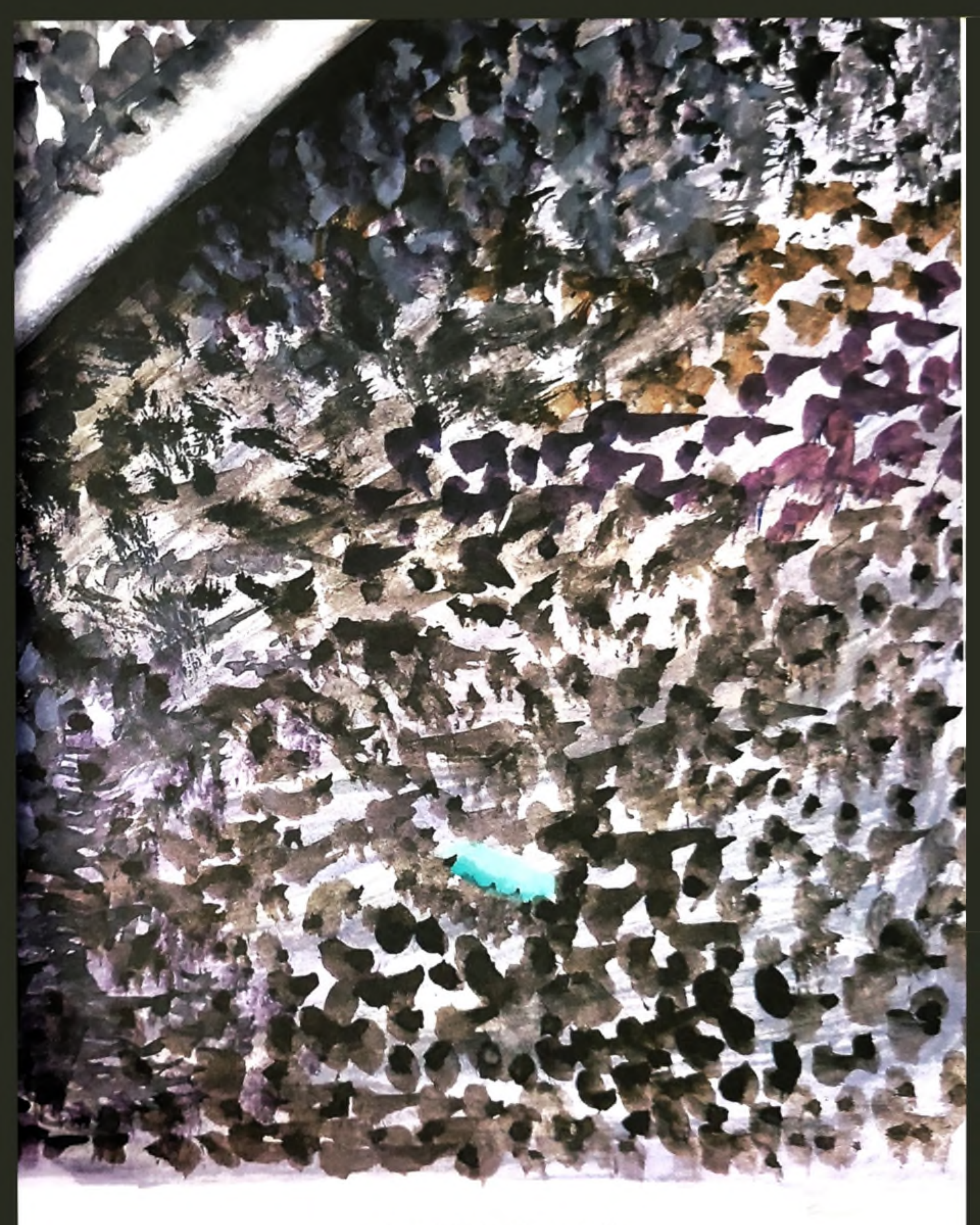
بكاها كل واحد كأنه يبكي أمه...
وأراد كل واحد أن يلمس نعش معبودته.



أربعة ملايين مفجوع...



... حاولوا أن يتشبثوا ولو للحظة وجيزة بعد، بزمن السعادة... بزمن المجد.



طاف نعشها فوق السيل البشريّ.





إندلعت حرب لبنان...

في الصورة سينما «متروبول» وسينما «أمبير» عند تقاطع ساحة الشهداء مع شارع غورو.


MPF

123
المومياء الأخيرة

كانت نهاية عبد الحليم حافظ مؤسفة جداً. فالمرحلة الأخيرة من حياته لم تكن سوى عبارة عن إقامات طويلة في المستشفيات وعمليات جراحية في لندن وآلام جسدية مبرّحة. صوّر آخر فيلم له في العام 1969. وبعد أن أنهكه المرض، بات عاجزاً عن متابعة العمل في السينما. توفي وهو في الثامنة والأربعين، في مستشفى كينغز كوليدج في لندن. ومعه انطفأت آخر شُعلة من عصر ذهبي ولّى إلى غير رجعة. سار في مأتمه، في شهر آذار/مارس العام 1977 في القاهرة، حشد ضخم. كما انتحرت عدة نساء عند الإعلان عن وفاته.

حمل عبد الحليم معه إلى لندن أغنية كتبها له عبد الوهاب، لكي يباشر التمرُّن عليها. لكن الموت حرمه غناءها، فاحتفظ بها عبد الوهاب في دُرجه لأكثر من عشر سنوات ليغنيها أخيراً هو نفسه في تكريم الراحل، بعد عقد من توقفه نهائياً عن الغناء. كان عبد الوهاب قد امتنع عن الغناء في العام 1979 وها هو، بعد مرور سبعين سنة على صدور أول أسطوانة له، يسجّل أول قرص مدمج له. كانت «من غير ليه» أغنية متنوّرة تتناول معنى الحياة المبهم. إنها إحدى روائع عبد الوهاب، الوحيد الباقي على قيد الحياة. وقد كلفته التعرض للمحاكمة ولهجوم عنيف من منظّمات إسلامية، وهو ابن المؤذّن. عاش خمس عشرة سنة إضافية في عالم لم يعد عالمه، عالم البترودولار والحجاب الإسلامي. إشتاق كثيراً إلى لبنان الذي يحبّه. خاف على الأصدقاء الكثر الذين تركهم هناك. يفكّر بالقرى الوادعة حيث أمضى أوقاتاً كثيرة منذ العشرينات، القرى التي تحوّلت إلى حقول من الأنقاض أو إلى جبهات حرب. عاليه، وبشامون، وصوفر، وشتورة، وزحلة... لقد تغيّر العالم من حوله... طُمِست ملامحه فأصبح كالمحنّط حيّاً. كان مصاباً بوسواس المرض ومهووساً بالنظافة، لدرجة أنه اعترف بأنه ينظّف الصابون بالصابون، ولا يشرب ولا يدخّن، يخاف ركوب الطائرة ويتملّكه خوفٌ مرضيٌّ من كلّ شيء تقريباً. كان متوحّداً ومنغلقاً على نفسه، فامتنع عن الخروج من منزله ورفض المقابلات والتكريمات. هوسه بصحته جعله يأكل خبز الشعير ويمشي عدة كيلومترات يومياً. وحيث يجد الأرصفة مزدحمة جداً وملوّثة، يفضّل أن يسير كيلومترات كاملة داخل فيلّاه في حيّ الزمالك، وهكذا سيموت، فقد تعثّر بالسجادة حين كان يمشي لتسهيل الهضم بعد تناوله الطعام.



غنّى «من غير ليه»، الأغنية التي كلفته
المحاكمات وسخط المنظمات الإسلامية.

124

القلب منفطر

رفضت فيروز، منذ بداية الحرب، الانحياز إلى أيّ طرف. توقفت عن الغناء في لبنان كي لا يتبناها هذا المعسكر أو ذاك. كما رفضت الرحيل، وعاشت في أسى كبير من الحرب التي تمزّق وطنها. كانت، ساعةَ اندلاع الحرب، تمثل في مسرحية «ميس الريم»، المسرحية الغنائية الجديدة للرحابنة، في مسرح البيكاديلي. تروي المسرحية قصة قرية تتصارع فيها عائلتان وقد اتخذت كلتاهما من زيّون (فيروز) شاهدة لها. إنها مسرحية غنائية رائعة بالمعنى الكامل للكلمة. بلغت فيروز فيها ذروة تألّقها. كتب زياد مقدّمتها الموسيقية اللامعة. لم يكن عاصي قد استعاد عافيته كلياً لكنه كان يعمل بما لديه من طاقة قليلة. لم يكن ذلك التوقيت مناسباً لهجره، لكن فيروز لم تعد تتحمّل، إذ زاد مرضه في طبعه العصبي. عاصي قاسٍ، وأوامره لا تُناقش. والجميع يخشى العبقري بمن فيهم فيروز، وخصوصاً فيروز. فإن لم تنفّذ تعليماته حرفياً، يشتمها علناً. لقد تحكّم كلياً بجميع تفاصيل حياتها، الفنية وغيرها. فهي لا تتمتّع بأية لحظة من الحرية، حتى على المسرح، حيث لا يُسمَح لها بأي ارتجال. يقف وراءها مباشرة كونه يدير الأوركسترا، ويراقبها، ويتحكّم بها، ويهيمن عليها، ويعطيها الأوامر. وعند انتهاء العرض يرفض العودة أكثر من مرة واحدة لتحية الجمهور ويرفض الإعادات التي يطلبها هذا الأخير. لكن هذا كلّه لا يساوي شيئاً أمام ما قيل عن خيانته لها، وعن إساءته معاملتها. لكن هل يجب تصديق كلّ الشائعات؟ إنها في قمّة تألّقها، باعت عشرات ملايين الأسطوانات وتحظى بحبّ الجمهور الذي يعبدها، لكنها تعيش حياة بؤس. لذلك تركته... طالت الحرب في لبنان، وغنّت فيروز في الأولمبيا في باريس، مجسّدة عذابات الشعب اللبناني في حفلة خيالية، كانت الأخيرة بقيادة عاصي، الأخيرة التي كان عليها خلالها الاستمرار في الالتفات إلى الوراء لتلقّي الأوامر. كانت حفلة مكلّلة بالحزن والغار. بعيداً عن الوطن يكون الوجع دائماً أقوى. انفطر قلب الجمهور. التهبت الصالة. معظم الأغاني تتحدّث عن حبّ لبنان. أتذكرون تلك الجنّة؟ أغانٍ سامية ومأساوية تتحدّث عن عذاب بيروت. بلغ الحفل ذروته مع أغنية «يا هوا بيروت». انفجرت الأولمبيا. غنّت «بحبّك يا لبنان» فوقفت الصالة بأكملها وعلا التصفيق عنيفاً. تقدّمت شابة (ابنتها؟) على المسرح حاملة باقة زهور، إشارة إلى انتهاء الحفلة. غنّت أيضاً «زوروني»، الأغنية المرحة الناعمة والقصيرة (مدّتها دقيقة و35 ثانية). حيّت جمهورها بحرارة أكبر من المعتاد. من خلفها، بدا عاصي مقطّب الحاجبين وشفتاه تتمتمان. ما الذي يقوله لها؟ هتافات الجمهور تصمّ الآذان. التفتت إليه لتأخذ منه التوجيهات. كان يرميها بنظرات قاسية ويشير عليها برأسه للتوجّه إلى الكواليس كمن يقول: «ما الذي تفعلينه أيتها الحمقاء، أسرعي بالخروج». نفّذت الأمر ثمّ أُسدلت الستارة وراء فيروز. عادت لتحيّي الجمهور مرة أخيرة، على الأرجح بتشجيع من برونو كوكاتريكس، ثم غابت مجدداً. لكنّ الجمهور لم يتوقف عن التصفيق والصياح، رافضاً مغادرة الصالة. فإلى أين يذهب؟ دام ذلك بعض الوقت، لكن فيروز لم تظهر مجدداً.



125

ستارة

في ذلك العام 1979، طويت صفحة بشكل نهائي. فحفلة فيروز الشهيرة والحزينة في الأولمبيا كانت الأخيرة بقيادة عاصي، وهي الأثر الأخير من زمن البهاء. صوت فيروز سيظل يصدح بعدها زمناً طويلاً في الليالي. في الليل الأسود، ليل الحزن والمنفى والحرب. أصبح صوتها تجسيداً للألم حتى عندما تغنّي أغنية مرحة. أصبحت تجسيداً للمنفى حتى في نظر من ظلوا في الشرق الأوسط.

في القاهرة، في ثمانينات القرن الماضي، ارتدت الكثيرات من المغنيات والراقصات الحجاب، بتحفيز من دول الخليج. وقد وجدن أنفسهنّ يستلمن حقائب بمئات آلاف الدولارات حالما يوافقن على «إعطاء المثل». معظمهنّ عاش حياة لاهية إلى أقصى الحدود، هذا إذا لم تسلبهنّ عائلاتهن وأزواجهن ما راكمنه من ثروات. وقعت فاطمة رشدي في الإفلاس، فوافقت على وضع الحجاب. ولم يمنع هذا أن تموت وهي في غاية الفقر إلى درجة أنها قُبرت في المدافن العامة. وتحية كاريوكا المستهترة التي تزوجت أربع عشرة مرة، تحجّبت هي أيضاً. وبعد أن برعت شادية وهند رستم وهدى سلطان في تمثيل دور فتيات الحانات، وضعن الحجاب. انسحبت شاديا نهائياً من السينما، حتى إنها بعد أعوام رفضت تكريمها في مهرجان القاهرة السينمائي. وكيّفت هدى سلطان مسيرتها مع «قناعاتها» الجديدة، فأنشدت أناشيد دينية في احتفالات رمضان على التلفزيون ومثّلت في أفلام تاريخية باللباس الشرعي. أما سامية جمال، وعلى الرغم من تديّنها الشديد، فقد رفضت بشكل قاطع الداعية السعودي وحقيبته. مع العلم أنها كانت في حالة عوز واستمرت في الرقص حتى ما بعد الخامسة والستين من عمرها في سهرات تزداد انحطاطاً، رغم محاولات تحية، الآسفة على مصير زميلتها، ثنيها عن ذلك. عاشت سنواتها الأخيرة بعيداً عن الناس وماتت وسط لامبالاة تامة. كذلك لم يلفت الانتباه موت ليلى مراد في أحد مستشفيات القاهرة، ولا موت نور الهدى في بيروت. صباح لم تتحجّب، وقد يكون هذا مدعاة للأسف! فالعمليات الجراحية الكثيرة التي أُجريت لها شوّهتها بشكل مريع لكنها لم تمنعها من الزواج بعد تجاوزها الرابعة والثمانين من رجل في ريعان شبابه ومن الاحتفاظ بروحها المرحة وكرمها وحبّها لجمهورها.

هُدمت فيلّا أم كلثوم الفخمة في الزمالك بعد بضع سنوات من موتها، واستُبدلت بفندق يحمل اسمها، فندق أم كلثوم. وهُدم أيضاً كازينو بديعة في شارع عماد الدين، وكذلك الكازينو في الجيزة. تلك أيضاً كانت حال كازينو الأوبرا الشهير في ساحة الأوبرا، الذي شُيّد مكانه متجر كبير من عشرة طوابق أُطلق عليه للذكرى اسم «مول الأوبرا». وفي مكان مبنى الأوبرا الخديوية موقف للسيارات من ثمانية طوابق ومبنى حكومي نقرأ على واجهته: «مبنى الأوبرا، مكاتب ومرأب». وأنتم تعرفون أساساً ما حلّ بفيلّا أسمهان في بيروت، وما آلت إليه صالات سينما الريفولي وراديو سيتي والروكسي والأمبير والمتروبول...





ما شُيِّد مكان كازينو بديعة الشهير...



ومكان دار الأوبرا الملكية...



مكان فيلّا أم كلثوم الأسطورية...


النهاية


الحمراء
AL HAMRA



المحتويات

القسم الأوّل

القسم الثاني

كاريوكا

حكايات ونجوم

عبد الوهاب

فريد الأطرش

سامية جمال

أسمهان

بديعة مصابني

شكراً

عابد عازريه، كمال قصار، الياس سحّاب، فؤاد الخوري، باتريك تانغي.

شيرين أبو شقرا، زينة عريضة، أنطوان عطالله، سيرياك أوريول، ميريام بارشيشا، إيما برانت، جوليان كارين، جان كولون، رندا داعوق، يلديز دياب، جان لوك فرومانتال، زياد جنبلاط، إميل خوري، ماريان خوري، روبان كينغ، كريستوف بريبوا، باتريك رافار، أسامة رفاعي، جيرار صحناوي، ندى سويد، وليد زيادة، علي ابراهيم، رنا حايك.

مؤسسة التوثيق والبحث في الموسيقى العربية، المؤسسة العربية الصورة، مكتبة الإسكندرية.

وشكراً لمؤلّفي الكتب والأفلام التالية، التي تشكّل مصدراً توثيقياً قيّماً:

الأفلام:

Oum Kalsoum, Simone Bitton
AbdelWahab, Simone Bitton
Farid el Atrache, Simone Bitton
Umm Kulthum a voice like Egypt, Michael Goldman
Oum Kalthoum, l'astre de l'Orient, Feriel Ben Mahmoud et Nicolas Daniel
Hollywood sur Nil, Saïda Boukhemal
Hello mister Barakat, Saïda Boukhemal
Samia Forever, Saïda Boukhemal
Fairouz, Frederic Mitterand
Assi Rahbani, Joseph Bou Nassar et Charles Sawaya
Kenit Hkeyi, Reema Rahbani
Quand la femme chante, Moustapha Hasnaoui
Les Passionnées du cinéma, Marianne Khoury
La Légende de Rose el Youssef, Kamel el Kalioubi
Asmahan, Chawki el Magiri

الكتب:

100 ans de cinéma égyptien, Magda Wassef
The Golden Years of Egyptian Film, Cinema Cairo, Sherif Boraïe
Asmahan's Secrets, Sherifa Zuhur
The Voice of Egypt, Virginia Danielson
Le Centre Ville de mon père, Tanya Rayes
Harem Days, Hoda Shaarawi
Liban, le siècle en images, Dar el Nahar
Oum, Sélim Nassib

Nasser, Jean Lacouture
Une étoile filante, Marie Seurat
Le Colonel et l'Enfant-roi, Gilbert Sinoué
Cent ans de la presse au Liban, Fondation Libanaise de la Bibliothèque Nationale
Oum Kalthoum, Elias et Victor Sahhab
Fairouz, Souad el Haramzi
Mohamed Abdelwahab, Saad Sami Ramadan
السبعة الكبار، فكتور سحاب
أم كلثوم، الياس وفكتور سحاب
أسمهان تروي سيرتها، محمد التابعي
قرن من الصحافة في لبنان، المؤسسة اللبنانية للمكتبة الوطنية
لبنان، القرن في صور، دار النهار
البرج، دار النهار
محمد عبد الوهاب، سعد سامي رمضان
خوالد النغم العربي، عباس غيلان

بإمكانكم الاستماع والاستمتاع بصوت وحركة الشخصيات الأسطورية
المذكورة في هذا الكتاب على الرابط التالي:

www.onuitomesyeux.com

حيث ستجدون مجموعة من الأغاني والوصلات الراقصة والحفلات الموسيقية
والأفلام والخطابات المختارة من العهد الماضي الذي تستحضره صفحات هذا الكتاب.

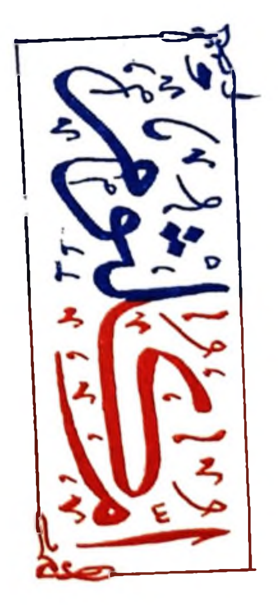


فيروز

نور الهدى







ليلى مراد

حكايات النجوم

في هذا الكتاب ملاهي القاهرة، الاستوديوهات، الفيلّات، الكازينوهات، الأزواج، العشّاق، الكحول، الأدوية المنوّمة، المال، الانتحارات، المسدسات، الفضائح، والفنادق الفخمة. فيه الغناء، الموسيقى، الصوت، الهتاف، النجاح، والمجد. فيه الجرأة، العبقرية، المغامرة، والمأساة.

فيه شعراء وأمراء، راقصات، مصرفيون، ضباط، أئمة، شيوخ، ممثّلات، خواجات، موسيقيون، غاويات، سهارى، متمردون، سلاطين، باشوات، بكوات، جاسوسات، عباقرة، ملوك مصر وأهل بلاطها. صحافيون بارزون، ملحّنون مشهورون، صاحبات ملاهٍ، كبار الحجّاب، وعازفو عود. فيه الفلاحة الآتية من دلتا النيل والأميرة الدرزية، ابن المؤذّن والمطرب الوحيد، النجمة اليهودية والعقيد البطل. فيه أسمهان، أم كلثوم، عبد الوهاب، فريد الأطرش، سامية جمال، ليلى مراد، نور الهدى، صباح، فيروز... نجوم الشرق. فيه الأناقة، الرونق، اللمسة المميّزة، والأسلوب. فيه الغرام، الشغف، الكره، والانتقام. فيه كاسات خمر وسجائر، أوراق لعب، طاولات قمار، ومجوهرات، وأعلام. فيه صالات السينما في بيروت، قصور دمشق، أرصفة ميناء الاسكندرية، شوارع القدس، وبلاط بغداد. فيه الراديو، الأسطوانات، الميكروفونات، الكاميرات، مقدّمات الأفلام، الأضواء، ستارة المسرح، الأوركسترا، الحفلات، والجمهور. فيه الطرب، والنشوة. فيه صوت العرب، وفيه الفنادق الأسطورية، «السان جورج»، «الملك داود»، «الأورينت بالاس»، «مينا هاوس».

فيه سقوط الأمبراطورية العثمانية وفيه حرب فلسطين، فيه تأميم قناة السويس ونكسة 1967.

في هذا الكتاب قرنٌ من تاريخ شرقنا العربي.

ISBN 978-614-438-628-6



هاشيت أنطوان A.